كتابي

٥



عازفة.. ذات دلال!

لوحة للرسام "كاراقاجيو" (١٥٩٤)

حلمي مراد

١٠ قروش



قبعة من الريش

للفنان « روبنز » ، بمتحف « ناشيونال جاليرى » بلندن

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الثالث والستون (السنة السادسة) : يونيو ١٩٥٧
الاشتراكات ومجموعة الأعداد السابقة: اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات العدد


قرأت وشهدت لك
فى الكتب .. والمسارح .. والحياة !

الغيرة .. امرأة !

• تعال ، أيها القارىء العزيز ، نبدأ جولتنا الذهنية معا هذا الشهر بقصة طريفة ، وعميقة المغزى ، قرأتها أخيرا للأديب الفرنسى المعاصر « فردريك بوتيه » ، عنوانها : « الغيرة » .. وهي قصة أحب أن أهديها لكل امرأة ـ زوجة كانت ، أو خطيبة ، أو صديقة ـ كي تأخذ منها عظة وعبرة تصون بهما حياتها ، وقلبها ، من الكوارث التى تجلبها الغيرة الطائشة :

- ١ -

نحن فى دار السيدة « جنفييف ألورج » بباريس ، وقد جلست ربة البيت فى صالونها الصغير المطل على متنزه (مونسو) الذى يستحم فى ضياء الشمس .. جلست منهمكة فى كتابة بضعة خطابات . وفجأة يدق جرس الباب ، وتعلن الخادمة قدوم صديقة الاسرة « مدام هالوان » ، فتنهض جنفييف هاشة لاستقبالها : « كيف أنت يا « ديان » ؟ لكم أنا مسرورة بأن أراك ! » .. وتبدو المفارقة بين شكل المرأتين : فالضيفة نحيفة الجسم ، صغيرة القد ، جميلة الوجه ، وان كان جمالها لا يرقى الى المرتبة التى تؤهلها لأن تحمل اسم « ديانا » ربة الصيد ـ فهذا الاسم أليق بأن تحمله صديقتها ربة البيت ، « جنفييف » ، ذات الجمال « الكلاسيكى » الباهر !

وتبادلت المرأتان القبلات . كانتا زميلتين قديمتين فى الدراسة ، وقد تزوجتا فى وقت واحد تقريبا ، ولكن مع الفارق : فبينما كان زواج « ديان » زواج حب ، كان زواج جنفييف خلوا من عنصر الحب !.. والآن ، وقد انتهى زواج الاخيرة الى الفشل ، فالطلاق ـ منذ عامين ـ وأمست تعيش بمفردها ، فقد ازداد تردد صديقتها وزوجها « هالوان » عليها ، وترددها هى عليهما ..

وقالت الضيفة وقد حانت منها نظرة الى الخطابات التى كانت جنفييف عاكفة على كتابتها قبل دخولها : « أرجو ألا أكون قد عطلتك ! » . وكانت تتكلم بعصبية وانفعال مكتوم ، وقد توردت وجنتاها والتمعت عيناها الجميلتان !..

فأجابتها صديقتها : « تعلمين جيدا أنك لا تزعجينني البتة ، ولكن ماذا بك ؟

« حب جمع التذكارات ! »

وضحكت « ديان » ضحكة خشنة ، ومرت بمنديلها على عينيها الجافتين ٠٠ فأجابتها جنفييف في أناة ، بعد أن ظلت تصغي اليها بلا حراك ، مطرقة العينين : « ان ما تقولينه ليثير رعبي ! أو يفعل ذلك « جورج هالوان » ، دون الرجال جميعا ؟ هو الذى يبدو مخلصا ، مستقيما ، متحفظا ، أبعد ما يكون عن هذه المغامرات المبتذلة ؟٠٠ كيف أمكن أن يفعل ذلك ؟! »

ـ انه أعمق غورا مما يبدو ٠ نعم ، انه قد يبدو لك جادا ، متحفظا ، رقيق الشعور ٠٠ لكن ذلك كله محض تظاهر وتمثيل !٠٠ أما فى الحقيقة ٠٠ آه ، انك تستطيعين تصور ما كانت عليه حياتى معه من مرارة ٠ لقد تذرعت بالصبر طويلا ، بدافع حبى له ٠ ظننت أنه لن يلبث أن يسأم تلك المسرات السوقية ٠٠ كنت أحسبه سيتغير ، ويعود الى فى النهاية ٠ حاولت اقناع نفسى بأن نزواته تلك كانت غير ذات أهمية ، وانه برغم كل شيء قد يكون مقيما على حبى ٠ لكننى نبذت كل آمالى هذه الآن وغدوت أشقى منى فى أى وقت مضى ، فلقد تركزت نزواته فى عاطفة واحدة ، جدية ، استمرت حتى الآن عدة شهور ، وما تزال تستغرقه أكثر فأكثر كل يوم ! وهل تعلمين لمن يكن هذه العاطفة يا جنفييف ؟ للراقصة « ليلى برجيرى » التى تعمل فى ملهى (الفردوس الازرق) !٠٠ انه متيم بحبها ، وهى تعرف كيف تسيطر عليه !٠٠ حتى لقد بات يهملنى اهمالا يتزايد كل يوم ! ففيما مضى كان يحرص ، على الاقل ، على المحافظة على المظاهر ٠ كان كثيرا ما يقضى الأمسية فى البيت ، حين لا نخرج سويا ٠ أما الآن فهو يخرج بمفرده ثلاث مرات على الاقل فى كل أسبوع ، ولا يعود الا فى ساعة متأخرة من الليل ٠ وأنا أعلم أنه لا يقضى تلك السهرات فى ناديه ، وانما يقضيها مع تلك المرأة ! »

ـ ولكن كيف وقفت على كل هذه المعلومات ؟

ـ منذ نحو شهر كنت فى أحد المسارح ، حين مرت تلك الراقصة بجوار مقصورتى ، وعندئذ سمعت أحد المتفرجين يقول لجاره : « نعم ، انها « ليلى برجيرى » ٠٠ وهى عشيقة « جورج هالوان » فى الوقت الحاضر ! » ٠٠ فأكدت هذه العبارة شكوكى التى كانت تراودنى من قبل ٠ بل ، أتعلمين يا جنفييف انه لم يعد الى البيت فى الليلة الماضية على الاطلاق ؟٠٠ انه لم يفعل ذلك من قبل ٠ وحين عاد هذا الصباح ، زعم أنه قضى الليلة فى المقامرة ٠ لكنها أكذوبة مفضوحة ، فانه لا يقامر قط !٠٠ وعلى أثر ذلك وقعت بيننا مشادة حامية ٠ أواه يا جنفييف ، أخشى انه لن يلبث أن يهجرنى من أجل تلك المرأة ٠ انى أكاد أجن حزنا ، فخبرينى ، ماذا عساى أن أفعل ؟

لم تجب جنفييف من فورها ، فقد بدت مستغرقة فى التفكير ، وظلت مطرقة

يبدو أنك جد مهمومة !؟ »

– جنفييف ، هل نحن في خلوة تامة ؟ عندي شيء خطير أريد الافضاء به اليك ، والتماس نصيحتك بشأنه ‥ فاني جد شقية ، وأنت صديقتي ، أخلص صديقة لي ، بل انك صديقتي الوحيدة يا جنفييف »

– ولكن ما جلية الامر ؟ انك تخيفينني !

– جنفييف : ان « جورج » زوجي لم يعد يحبني !‥ انه يخونني !

وأخذت ربة البيت !

– زوجك يخونك ؟ جورج لم يعد يحبك ؟ ما هذا الذي تقولين يا « ديان » ؟

– اني أدرك وأعني ما أقول : جورج يخونني . أنا واثقة من ذلك !

وأطرقت . لم تنخرط في البكاء ، لكن صدرها أخذ يعلو ويهبط في انفعال وهي تحدق في صديقتها بعينين تندتا بالتأثر :

– خففي عنك يا « ديان » . أنا موقنة من أن شكوكك على غير أساس ، وان زوجك ‥

– زوجي لم يعد يحبني . انه يحب امرأة أخرى ! لقد بدأت أرتاب في الامر منذ نحو عام ، والآن أنا موقنة منه تماما . عندي أدلة !

– عندك أدلة ؟ أية أدلة ؟

– سوف تطلعين عليها . سأطلعك على كل شيء ‥ حتى على اسم المرأة !

لاذت جنفييف بالصمت ‥ وما عتمت ضيفتها أن استطردت : « عند قدومي الى هنا ، لم أكن قد انتويت مصارحتك بخبيئة قلبي ، فانه أمر شديد الاذلال لي . غير أنك كان ينبغي أن تقفي على حقيقة الأمر ، كيما تستطيعي بذل النصح لي ‥ فاني أعلم أن في وسعي الاعتماد على كتمانك اعتمادا كليا . سوف تعدينني بأن تصوني سري ، أليس كذلك ؟

– بلا شك يا عزيزتي ‥ استمري

– اذن ، اليك القصة : لقد كان زوجي يخونني منذ البداية . ولئن كانت قد انقضت على زواجنا ستة أعوام ، فانه دائب على خيانتي منذ ستة أعوام ! آه لو تعلمين كم تألمت ! لقد اتخذ له صديقات أثناء فترة خطبتنا ، وظل على هذا المسلك حتى اليوم ‥ ان له صلة بنساء من شتى الطبقات : نساء من طبقتنا ، ونساء التقى بهن في صالات الرقص ، ونساء التقطهن من الطريق !‥ مغامرات رخيصة ليس ثمة حب يبررها ‥ بعضها يستمر أياما ، وبعضها يستمر أسابيع ‥ مغامرات تتبع احداها الاخرى ، بل تبدأ الواحدة منها أحيانا قبل أن تنتهي سابقتها !‥ لقد اعترف لي جورج بكل شيء . انه لا يستطيع أن يرى امرأة الا ويشتهيها ، ويتوق بكل جوارحه الى ارغامها على الاستسلام له !‥ انها صورة غريبة من صور الداء النفسي الذي يطلقون عليه

بعينيها الى أسفل ٠٠ وأخيرا غمغمت : « لست أدرى ماذا أقول لك يا عزيزتى ٠٠ فلقد صدمني ما ذكرته لى أيما صدمة ، اذ لم يحدث أن خدعت فى انسان كما خدعت فى زوجك !٠٠ ما كنت لأصدق فيه البتة ما تقولين ، وحتى فى هذه اللحظة ، بعد التأكيدات التى تسوقينها - والتى لا أرتاب فى صحتها - يبدو من العسير على أن أصدق الأمر !٠٠ لشد ما أرثى لحالك يا عزيزتى ديان ، بقدر ما أعجب بشجاعتك ، وبالجلد الذى أبديته فى تحمل الصدمة طيلة تلك الاعوام ! »

وعندئذ نهضت « مدام هالوان » لتنصرف ، قائلة بصوت ما يزال يرتجف بالانفعال : « انى ذاهبة ، فلقد تأخرت ٠ وأرجو ألا تكونى ناقمة على انى حرمتك من الخروج ٠ أعتقد أن زوجى بالمنزل الآن ، فلقد كان ينتظر زائرا لأمر يتصل بالعمل ٠ واذا وقعت بيننا مشادة انتهت بالقطيعة فسوف أخطرك بكل شىء ، كونى على ثقة من هذا !٠٠ فالى اللقاء فى فرصة قريبة أيتها العزيزة جنفييف ٠٠ »

وخرجت « ديان » لا تلوى على شىء ، فجلست جنفييف الى المنضدة التى تناثرت عليها خطاباتها الناقصة ٠٠ ولكنها لم تستأنف الكتابة ، وانما اتكأت بمرفقيها على المنضدة واعتمدت رأسها بين يديها ، وظلت بلا حراك ٠٠ مستغرقة فى التفكير

- ٢ -

◆ فى تلك الاثناء كانت « ديان » قد استقلت لدى خروجها من بيت صديقتها سيارة « تاكسى » حملتها الى منزلها ، وهناك ابتدرت خادمتها بمجرد دخولها : « هل عاد سيدك من الخارج ؟ » ، فلما أجابتها هذه بأنه فى حجرة المكتب مع زائر ، مضت المرأة الى مخدعها فخلعت معطفها وقبعتها وجلست ، بعد أن تناولت فى يدها كتابا ٠٠

٠٠ لكنها لم تقرأ حرفا ، وانما لبثت تنتظر ، متجهمة الوجه فى غضب ٠ ودقت الساعة السابعة ، فسمعت ديان صدى خطوات تعبر الحجرة المجاورة ، واذ ذاك اضطجعت على الكنبة وقد ارتسمت على شفتيها فى مكان الحركة العابسة ٠٠ ابتسامة !

وفتح الباب ، ودخل منه شاب طويل أسمر ، ذو قسمات وسيمة منتظمة ، وعينين حالكتى السواد ٠٠ فألقى الى زوجته بتحية مرحة ، ثم سألها عما تقرأ :

- كتاب « قلوب محطمة » ، من تأليف « بالمر » ٠ وبهذه المناسبة ، أتعلم ماذا سمعت اليوم ؟

- فضيحة جديدة فيما أحسب !؟

– انها ليست فضيحة بالمعنى المألوف ، وانما ٠٠

وسكتت لحظة ، ثم صاحت فجأة : « ان (جنفييف ألورج) تعتزم الزواج للمرة الثانية ! »

فهتف جورج فى حدة : « ماذا تقولين ؟ » ٠ واذ أعادت عليه زوجته العبارة ، مصحوبة بابتسامة عذبة ، سألها فى انكار : « ومن هذا الذى سوف تتزوج منه جنفييف زواجا ثانيا ٠ هيا وافصحى »

وكان جورج قد أخذ بالخبر على غير انتظار ، بحيث لم يستطع الا أن يلوذ بالصمت ٠٠ فقالت له ديان فى لهجة عدم مبالاة : « سيطر على نفسك ، فلا غرابة البتة فى ذلك ٠ انها مطلقة ، حرة ، مستمتعة بحريتها استمتاعا كاملا ، فأى عجب فى أن تتزوج من « ألفريد فرانيلبور » ؟ »

– من ؟ جنفييف تتزوج من ذلك الرجل ؟ هذا مستحيل !٠٠ ومع ذلك لم أعلم ٠٠ لم يعلم أحد قط بالأمر ؟!

– أنا كنت على علم به ٠٠ فنحن صديقتان حميمتان ، لا تخفى احدانا عن الاخرى سرا ٠ ولقد انتزعت منى جنفييف وعدا بكتمان الأمر عن الجميع ، حتى عنك أنت ٠٠ واليوم ، بعد خروجك ، اتصلت بى تليفونيا ورجتنى أن أزورها ٠٠ ثم أخبرتنى بأن الاتفاق على الزواج قد تم ليلة أمس ، وسمحت لى باذاعة النبأ !

– لكنى كنت أحسبها لا تكاد تعرف الرجل الا معرفة سطحية !

– بل انها تعرفه أكثر مما تتصور

أخذ جورج يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، محاولا أن يسترد سيطرته على نفسه ٠٠ ثم جعل يكرر : « لست أصدق ٠ هذا مستحيل ! لا يعقل أنها تتزوج من ذلك الأحمق « فرانيلوبور » ٠٠ انه غبى ، متغطرس ، ميزته الوحيدة ثروته الطائلة ! »

– انها ميزة يعتد بها على أية حال ، أليس كذلك ؟

– ليس مع امرأة من طراز جنفييف ٠٠ فضلا عن أنها ميسورة الحال !

– انها تدعى ذلك ٠ ولكن الواقع أن مطلقها لم يترك لها موردا يذكر ٠٠ ومن ثم اضطرت جنفييف الى أن ٠٠ تعيش من مواهبها !

– ماذا تعنين بقولك انها « تعيش من مواهبها » ؟

– أعنى ما أقول ٠ حقا انكم ، معشر الرجال ، سذج للغاية !٠٠ فلمجرد تظاهر امرأة بالاهتمام بالأمور العقلية أكثر من اهتمامها بحوادث الحياة اليومية ، نراكم ترفعونها فوق ذروة عالية ، وتنظرون اليها باعتبارها مثالا مجسما للفضيلة !٠٠ فلتكن على ثقة من أن جنفييف مثل سائر النساء ٠ انها تريد أن تعيش ، بوسيلة أو بأخرى ، فهل تلام على ذلك ؟٠٠ اذن فأنت تعتقد

أنها لا تكاد تعرف « فرانيلوبور » ؟ انك تضحكنى !٠٠ كل ما جد في الأمر أن جهودها لحمله على الزواج منها قد نجحت آخر الامر !٠٠ الا تفهم أنه صديق عزيز بالنسبة لها ، وأنه كان دائب المعونة لها طوال الثمانية عشر شهرا الأخيرة ؟

وعند هذا خطا جورج هالوان نحو زوجته خطوة تنطوى على التهديد ، وصاح بها : « صه ، يا ديان !٠٠ لا حق لك فى التفوه بهذه الأقوال ! كيف توجهين هذه الهجمات الظالمة ضد جنفييف ، وهى المرأة الشريفة العفيفة ؟ ثم لا تنسى أنها صديقتنا ، بل وصديقتك المفضلة ! انى أمنعك من أن تفوهى بأية كلمة تلوث سمعتها ! »

ـ وأنا أمنعك من أن تخوننى معها !

وكانت « ديان » قد نهضت وهى تلقى بقنبلتها فى عنف ، وقد انتصبت فى مواجهة زوجها على صورة توحى بالتحدى والتهديد ٠٠!

وتمتم جورج : « ماذا تقولين ؟ »

ـ لقد لاحظت علائم حبها لك منذ أكثر من عام ٠ استنتجت ذلك من ألف بادرة صغيرة ٠٠ من اعجابك بها وهى معك ٠٠ من أحاديثكما الأدبية والفنية ٠٠ الخ ٠٠ ومع ذلك فانى لم أنطق بحرف ، فى انتظار حصولى على دليل محدد ٠ والآن ، صرت أجزم بالأمر ٠ لقد استدرجتها حتى اعترفت لى بكل شىء ، كما استدرجتك أنت الآن !٠٠ ذهبت اليها عصر اليوم وتظاهرت بأنى أركن الى ثقتها وأفضى اليها بسر ٠٠ ثم بدأت بأن أنبأتها بأنك تخوننى ، واننى أعرف مع من تفعل ! ولبثت أراقبها من طرف خفى طيلة الوقت ، فرأيت مبلغ الفزع الذى استولى عليها ٠ اعتقدت اننى وقفت على حقيقة الصلة بينكما ٠٠ ثم تظاهرت باعتزامى الافضاء اليها بكل شىء ، وذكرت لها انك تخوننى منذ يوم خطبتنا ، مع شتى أنواع النساء ٠٠ وانك الآن متورط فى علاقة مع راقصة « موزيكهول » تقضى معها أكثر لياليك !٠٠ »

ـ أنت تفوهت بذلك ٠٠ عنى ؟

فأجابت ديان فى فحيح ينطق بالتحدى : « نعم ، فعلت ٠ واخذت حذرى كى لا تفطن هى الى أنى أكذب ٠ لم أشر بحرف الى ساعات العصر وانما نسبت اليك الخيانة فى ساعات المساء فقط ، التى تقضيها معى فى البيت !٠٠ أنا أعلم انك تقضى هذه الساعات فى البيت ، لكنها هى لا تعلم !٠٠ آه لو رأيتها وهى ترتجف بالغيرة المكبوتة ، وسمعتها تقول فى اشمئزاز : « هو ٠٠ هو قد فعل ذلك ؟! » ٠٠ لقد كان ذلك اعترافا صريحا منها ، مثل اعترافك أنت منذ برهة ٠٠ ان دهشتك ، وحزنك ، وحنقك ، حين اخترعت لك تلك الحكاية عن زواجها المزعوم ، تثبت كلها التهمة عليك ٠ ان التجربتين حاسمتان

كما ترى ! »

وتوقفت ، وقد غصت بانفعالها ٠٠ أما زوجها ، الذى تبدد الآن غضبه تماما ، فقد لبث يحدق فيها ، كما يحدق الانسان فى ٠٠ عقرب !٠٠ ثم تمالك نفسه أخيرا فقال : « أنت فعلت ذلك ، استنادا الى شكوكك الحمقاء التى لا تغتفر !٠٠ انك لقديرة على الانحدار الى مثل هذه التصورات الوضيعة ، والأكاذيب الحقيرة ، والمفتريات ، والخداع الدنىء ! »

فصرخت فيه محنقة : « وماذا بشأنك أنت ؟ ألست قديرا على خداعى مع أعز صديقة لى ؟ »

لكنه لم يعبأ بالرد ، وانما اكتفى بأن هز كتفيه وخرج ٠٠ أراد أن يستنشق هواء نظيفا ٠٠ أن يسترد هدوء نفسه وأعصابه ٠٠ وقبل كل شىء ، أراد أن يخلو بنفسه ، ليفكر !

- ٣ -

◆ وراح يجوب الشوارع ، المزدحمة بأناس يهرعون الى بيوتهم ليتناولوا العشاء ٠٠ لكنه لم يلق بالا اليهم ، أو يتنبه الى أين يسير ، محاولا أن يدرك فى صفاء ما قد حل به !

وفجأة ، تنبه الى انه فى مواجهة المنزل الذى تقطنه « جنفييف ألورج » !٠٠ ودون أن يتمهل ليتدبر ان الوقت متأخر بالنسبة لمواعيد الزيارة ، صعد الدرج ٠٠ ودق الجرس !

ولم يخطىء حدسه : كانت جنفييف فى البيت ٠ واستقبلته من فورها ٠٠ فقال لها ، دون أن يجرؤ على النظر اليها : « يؤسفنى أن أحضر فى هذا الموعد المتأخر ٠٠ ولكنى أبغى التحدث معك »

فسألته جنفييف فى برود : « هل أصاب « ديان » أى سوء ؟ ٠٠ لقد زارتنى عصر اليوم ، وكانت تبدو عليها العصبية والانفعال ٠ وزيارتك الآن تعزز انزعاجى ٠٠ »

ـ أعلم انها كانت هنا

ـ لقد كانت بادية التعاسة والانقباض ، وأفضت الى بأقوال صدمتنى وآلمتنى ألما عميقا ٠ لقد كنت أحسبكما تعيشان معا حياة سعيدة يرفرف عليها الوئام ، لذلك فجعنى ما صارحتنى به « ديان » ! ٠٠ فجعنى من اجل كليكما ٠ أنا أعلم ان ليس من حقى أن ألومك ، ولكن كيف أمكن أن ٠٠ »

فاتجه جورج نحو جنفييف قائلا فى توسل : « لكن ذلك كله غير صحيح !٠٠

غير صحيح ! ٠٠ انهـــا قد كذبت عليك ٠ القصة كلها غير صحيحة ، من بدايتها الى نهايتها ٠ كل ما ذكرته لك محض افتراء واختلاق ! ٠٠ انى لم أنحـدر الى ذلك الدرك كما زعمت ٠ لم أخنها قط ، أو أسلك ذلك المسلك الشائن الذى نسبته الى ٠ هذا غير صحيح ؟ »

فقمعت جنفييف ، جاهدة ، شهقة ارتياح كادت تند من صدرها ، وقالت من فورها فى صـوت خفيض : « أوه ! ٠٠ كنت أعلم ان ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا ! »

ـ كنت تعلمين ذلك ؟

ـ نعم ، شعرت اننى لا يمكن أن أكون قد خدعت فيك الى هذا الحد ٠ ان ديان مندفعة وسريعة الانسياق مع مشاعرها ، لكنها تخلص لك الحب ٠٠ لابد انها أخطأت الفهم ٠٠

فقاطعها جورج فى حدة : « كلا ! بل انها كذبت عامدة ! ذكرت لك كل تلك الأكاذيب عنى ، لغرض فى نفسها ٠٠ تماما كما ذكرت لى بعد ذلك طائفة من الأكاذيب عنك أنت ! »

ـ ذكرت لك أكاذيب عنى ؟ ماذا قالت لك ؟

ـ دعك مما قالت ، فما صدقتها ٠٠ الا ربما فى اللحظة الأولى ، قبل أن أتمالك دهشتى !

ـ ولكن ترى لماذا فعلت هى ذلك كله ؟

تردد جورج برهة ، ثم قال أخيرا : « لانها غيورة ٠٠ لقد حسبت انها تنصب لنا شركا ماكرا ـ لك فى البداية ، ثم لى أنا بعد ذلك ـ كى تسوقنا الى الاعتراف ٠٠ »

ـ الاعتراف بماذا ؟

لم يجب جـــورج ٠٠ فصاحت جنفييف وقد صعد الدم الى وجهها فلونه وألهبه : « أوه ! ٠٠ لقد ارتابت فينا ٠٠ هذا هو السبب الذى جعلها ٠٠ »

ـ نعم ، هذا هو السبب الذى جعلها تبث فى نفسينا سموم الغيرة ، كيما تتداعى مقاومتنا فنعترف ! وقد نجحت فى بلوغ هدفها ، فيما أعتقد ٠٠ فعندما حدثتنى عن زواجك المزعوم ، أدركت اننى أغار عليك ! أدركت ما طالما احسست به فى أعمق حنايا قلبى ، دون أن أعترف به لنفسى ٠ أدركت اننى ٠٠ أحبك ! ٠٠ أواه ! ان فى وسعى أن أبوح لك بذلك الآن ، بعد المسلك الذى سلكته ، فانها ـ بأكاذيبها ـ قد حررتنى من القيود التى كنت أكبل بها نفسى ٠ جنفييف ، لست أطيق فكرة الحرمان من رؤيتك ! لقد أرادت أن تفرق بيننا ، أن تجعل اللقاء بيننا ضربا من المستحيل ٠٠ فهل ترغبين

حقا يا جنفييف فى أن أبتعد عنك ، الى الأبد ؟

فرفعت عينيها اللتين كانت تخفضهما حتى تلك اللحظة ، ورمقته بنظرة ثابتة صريحة ، ثم أجابته :

ـ كلا !

واستطردت وهى تحول بصرها عنه ، الى بعيد : « أنا بدورى تألمت كثيرا ، منذ ذلك الحديث المشئوم ! أنا ، أيضا ، أحسست بالغيرة عليك ! ·· أنا الأخرى تبينت اننى أحبك ! ·· أحبك خلالها ، خـلال زوجتك ! أواه ، يا للمسكينة ديان ·· أية حماقة ارتكبت ! أية حماقة ارتكبت ! »

ثم ساد الصمت لحظة ·· أحس كلاهما خـلالها ـ وان لم يفصح ـ ان « ديان » ، برغم الخطأ الشنيع الذى ارتكبته ، قد أصابت فى شيء آخر : قد حدست سرهما الخفى ، قبل أن يعرفاه ! ·· و سعت الى تقريب الشقة بينهما، من حيث لا تدرى !

عباقرة الموسيقى ··حين يقعون فى الحب!

• وهذا كتاب حديث ممتع للكاتب « برنارد جرون » جعل عنوانه : « الحياة الخاصة لعباقرة الموسيقى » ·· فتعـال نتسلل على صـفحاته الى قلوب : بيتهوفن ، وبرليوز ، وبراهمز ، وشـتراوس ، وفاجنر ·· لنرى صورا من شـذوذ العباقرة ونزواتهم حين يتورطن فى الحب :

يحفظ أدواره الغنائية فى شوارع (مونبارناس) !

• يروى عن مغنى الاوبرا العظيم « فيودور شاليابين » ، انه كان يهيم فى شوارع باريس المظلمة ، فى الليالى التى كان يستعد فيها لأداء دوره فى أوبرا « بوريس جودونوف » ·· وكان يتحدث الى نفسه أثناء سيره ، أو يقف بغتة ليجرب حركة أو وقفة ، وهو يرسم فى خياله صورة للقيصر الروسى المجنون ، بطـل الاوبرا المذكورة · وفيمـا كان منهمكا فى ذلك ـ ذات ليلة ـ فى (مونبارناس) ، رأته احدى فتيات الطريق العـابرات ، فسألته : « أتعانى الوحدة يا عزيزى ؟ » ، فأجابها : « لا يا آنسة » ·· ولكنها عادت تلح عليه ،

فلما رفض ، سألته : « اذن ، فما الذى تفعله هنا فى هذه الساعة من الليل ؟ »
– اننى أتمشى فى الطرقات يا عزيزتى ، وأمارس عملى
وابتسمت الفتاة فى رثاء ، وانصرفت ..

القروية الوقحة التى عشقها بيتهوفن !

◆ ومن المعروف ان أعظم ثلاث مآسى غرامية فى دنيا الموسيقى ، هى مآسى بيتهوفن ، الساعى وراء الحب .. وبيرليوز ، الحالم به .. وبراهمز ، الهارب منه !.. فما تخللت حياة بيتهوفن فترة كان فيها بلا غرام ، اذ كانت له فى هذا الميدان علاقات تجل عن الحصر ، وكان لا ينفك يسعى وراء النساء ، ويبتسم لكل جميلة يلقاها فى شوارع (فيينا) ، فتلتفت خلفها لتتأمل هذا الرجل المكتنز الجسم ، ذا الشعر الطويل الأشيب ، والحاجبين الكثيفين ، والوجه المشوه ببثور الجدرى !.. نعم ، لم يدع بيتهوفن امرأة الا أحبها : فمن السيدة الراقية المتغطرسة ، الى الغانية الصغيرة .. ومن زوجة أحد الاصدقاء ، الى ابنة صاحب البيت .. ومن تلميذة تخطو فى استحياء الى مرحلة المراهقة ، الى بارونة فى أوسط العمر !

على أن أغرب عشيقاته ، وأكثرهن التفافا بالغموض ، هى « ليزا فلوبيرجر » – (الفتاة الجالسة على كومة الروث ، أو بالاحرى : «الجالسة على كوم الجلة »!) – فقد كان بيتهوفن يقيم – فى صيف سنة ١٨٠٥ – فى (دوبلينج) ، احدى ضواحى (فيينا) الريفية . وكان مشغول البال فى تلك الفترة بسيمفونيته الرابعة ، وبافتتاحية « ليونورا – رقم ٣ » . والى جانب « الصومعة » التى اتخذها لعزلته ، كان ثمة بيت قذر مهدم ، يمتلكه رجل سكير ، سىء السمعة، بذىء اللسان ، يدعى « فلوبيرجر » .. وكانت له ابنة شابة ، جميلة ، ناهدة الصدر – تدعى « ليزا » – اقتفت خطى أبيها ، فكانت أكثر نساء القرية وقاحة !.. ومع ذلك فان بيتهوفن مال اليها مذ رآها لاول مرة ، فأخذ كلما مر بمزرعة أبيها ، يقف ليتأملها – خلال السياج – بعينين مشوقتين .. وبينما كان يتمثل بعين الخيال « ليونورا » – أنبل بطلة فى عالم الاوبرا – كان يرى بعين الواقع « ليزا » وهى تقف على كومة الروث ، ومجرفتها فى يدها ، وقد انهمكت فى العمل .. تكدح ، وتضحك ، وتغنى !.. وكان بيتهوفن يقف صامتا ، مأخوذا ، مشتت البال ، والفتاة – التى كانت تعرفه على انه « الموسيقى المجنون الوافد من فيينا » – تتجاهله ، ولا تكترث له !

وأخذ بيتهوفن يقف بباب المزرعة يوميا يرقب الفتاة ، ويمتع عينيه طويلا بجمالها ، ثم يتحول فجأة غاضبا ، حانقا ، فينصرف . ولكن .. ليعود فى اليوم التالى الى موقفه !. وفى ذات ليلة ، أفرط « فلوبيرجر » فى الشراب ،

فأثار شغبا ، واشتبك فى عراك ، وانتهى به المطاف الى سجن بوليس القرية . فما ان أقبل الصباح التالى ، حتى ارتدى بيتهوفن خير ثيابه ، وسعى الى محكمة القرية ليتوسط للسكير الشقى !٠٠ لكنه لم يوفق فى وساطته ، بل أغضب القاضى الذى لم يحجم عن طرده ٠ فبارح المحكمة ساخطا ، ثم غادر القرية ٠٠ ولم ير « ليزا » بعد ذلك قط !

اللقاء الذى بدد أحلام نصف قرن !

◆ أما هيكتور بيرليوز - الحالم بالحب - فقد اعترف عندما دنا من نهاية عمره ، بأن الانثى الوحيدة التى أحبها حبا صادقا ، هى « استيل ديبيف » ٠٠ وكان عندما تملكه « الوجد القاسى » - كما كان يصف عاطفته - فى الثانية



عشرة من عمره ! أما هى ، فكانت فى الثامنة عشرة ٠٠ وقد كلف بيرليوز بقوامها البديع ، وحسنها الساحر ، ثم قدر لهما أن يفترقا ، فظل - طوال نصف قرن ! - يذكر شعرها الناعم ، وعينيها الساحرتين ، وحذاءيها القرنفليين وقد ضما قدميها الصغيرتين الرشيقتين !٠٠ ولم يكف عن الحنين اليها ، وعن تمثلها فى أحلامه وتمنى رؤيتها ثانية لمصارحتها بسره الذى راح يلح عليه ٠٠ حتى أتيح له فى النهاية ان يتغلب على كل عناء ، واستطاع ان يعرف مقرها !

وفى ذات يوم ، سعى الى دارها فى (ليون) ليراها ، وكانت قد بلغت السبعين من عمرها ، فاستقبلته فى جزع ، وأنصتت الى اعترافه فى عجب ٠٠ حتى اذا فرغ ، أنبأته انها عاشت حياة زوجية سعيدة ، وأنجبت لزوجها أربعة أبناء ، وأصبحت جدة ٠٠ وكانت أكبر صدمة لأحلامه انها أكدت له

انها لم ترتد فى حياتها حذاءين قرنفليين !٠٠ وهزت قصتها فؤاده ، فلم يتمالك ان انحنى على يدها يقبلها ، وهو يشكرها متأهبا للانصراف ٠ حتى اذا صار خارج الدار ، أطلق العنان لدموعه !

ورغم تلك الصدمة ، فانه صار يكتب اليها بعد ذلك ، ويتلقى منها خطابات مؤدبة ، يشوبها شيء من الحرج والحيرة ٠٠ ولو ان زيارته لها كانت قد بددت أحلامه !

العاشقان اللذان استمر حبهما ٤٠ عاما !

◆ وفى حياة « جوهان براهمز » الغرامية ، الحافلة ببغايا (همبورج) وفتيات الشوارع فى (فيينا) ، يقف طيف حنون ، كريم ، معتز بكرامته ٠٠ طيف « كلارا شومان » ، زوجة زميله وأستاذه الموسيقى الكبير « روبرت شومان » !

وكان « براهمز » قد اضطر – وهو فى الرابعة عشرة من عمره – الى أن يكسب عيشه من العزف على « البيانو » ، فى حانات (سانت باولى) ، أقذر أحياء (همبورج) ٠ واستطاع أن يكسب ود رواد تلك الحانات ، وان ينعم بعطفهم وهداياهم ، فظلت ذكراهم ترافقه طوال حياته !٠٠ وعندما بلغ « براهمز » العشرين من عمره ، قدر له ان يلج دار « روبرت شومان » ، فاستقبله الرجل بترحاب ، وسأله أن يعزف بعض الالحان ٠٠ فلم يكد يشرع فى أحب ألحانه الى نفسه ، حتى استوقفه شومان قائلا : « لابد لكلارا من ان تسمع هذا اللحن » ٠٠ وسرعان ما أقبلت «كلارا شومان» – زوجة رب البيت – وكانت من أشهر عازفات البيانو فى أوربا ، فتطلع براهمز الى السيدة الجميلة، ثم عاد يعزف لحنه ، فكسب اعجاب مضيفيه ، واذا بهما يتشبثان ببقائه ، ويسألانه ان يتخذ من دارهما دارا له ، ومنهما صديقين ٠٠ ولاول مرة فى حياته عرف براهمز « البيت » الحقيقى ، والعطف والحنان الصادقين ٠٠وأصبح فردا فى أسرة « شومان » !

وبعد ستة أشهر ، نقل شومان الى مصحة للامراض العقلية ، بينما كانت كلارا فى خامس شهور الحمل ، فلم يفارقها براهمز قط فى محنتها ، بل بقى الى جوارها يساعدها ويشجعها ، واستطاع باعجابه الساذج العارم ان يعينها على أن تجتاز أشق أشهر حياتها ٠٠ وكانت كلارا تكبره بأربعة عشر عاما ، وقد اعتبرته حتى ذلك الحين كابن لها ، وراحت تضفى عليه ألوانا من حنان الأمومة ٠ ولكنها ما لبثت أن جزعت ، اذ شعرت بأن عواطفها بدأت تتخذ اتجاها جديدا ! فقد عز شفاء شومان من لوثته ، فى حين كانت هى لا تزال شابة ، وكان الى جوارها شاب فى ميعة الصبا ، يتعلق بها ويشتهيها !

وفي يناير سنة ١٨٥٥ ، قامت كلارا بجولة موسيقية فى هولندا ، فتبعها براهمز .. وفى روتردام ، بعيدا عن أعين أهل (دسلدورف) الصغيرة وألسنتهم الناقدة ، وبعيدا عن روبرت الملتاث البائس ، التقى العاشقان !.. على انهما لم يفكرا قط فى الزواج خلال السنوات الطوال التى قضياها فى غرام مشبوب لا يخبو له أوار !.. وحتى بعد موت روبرت ، ظلا لا يوردان للزواج ذكرا على لسانيهما ، فقد كانت كلارا تدرك أن لابد لبراهمز من ان يكون حرا طليقا حتى يخلق روائع النغم .. بينما كان الشاب يحترم اعتزاز فاتنته باسم زوجها المتوفى « شومان » !.. وهكذا عاشا أربعين عاما فى وفاء مكين متبادل ، بحيث لم يسمع لأية امرأة ذكر فى حياة براهمز بعد ذلك !

أسد على .. وفى البيت نعامة !

◆ أما بين الموسيقيين المتزوجين ، فقد كان « ريتشارد شتراوس » صاحب الرقم القياسى فى طول أمد الحب ، بلا منازع !.. فقد عاش مع زوجته « باولين » فى هناء ودعة خمسا وخمسين سنة ، كان الموسيقى النابغة يعبد خلالها زوجته : كملهمته ، ومنظمة أعماله ، ومدبرة حياته ، وحافظة نقوده ، وسكرتيرته فى كل شئونه .. وهدف حبه وعواطفه !.. وما كان ليؤثر البتة فى هيامه بها انها كانت تضطره الى أن ينظف نعليه لدى الباب كلما أقبل على « الفيللا » التى كانا يقيمان فيها ، فى أحضان جبال الألب البافارية .. ولا أضعف من ذلك الهيام انها كانت كلما رأته قد أطال التلكؤ فى الحديقة ، ذكرته بالعمل ، منادية : « هيا ياريتشارد .. اذهب فاكتب بعض الألحان ! »

والحق انه كان يعبدها ، وقد خلدها فى لحن « هيلدنليبن » ، والسيمفونية المنزلية ــ « سيمفونيا دومستيكا » ــ و « انترميتزو » !.. ولا مراء فى أن الناس كانت تضحك من النابغة العملاق الذى كان ينقلب فى داره الى زوج وادع مطيع ، ريفى فى عاداته .. ولكن « باولين » الطيبة كانت تدافع عنه قائلة : « أجل .. من الصحيح ان ريتشاردى يبدو كما لو كان رعديدا ، ولكنه على « النوتة » عملاق كما ترونه ! »

« فاجنر » .. زير النساء !

◆ أما حياة « فاجنر » العاطفية ، فكثيرا ما أوقعته فى مآزق قاسية ، ولكن ايا من هذه المآزق لم يفق فى حرجه ذاك الموقف الذى وجد فيه نفسه في (زيوريخ) ، حين راح يقرأ أشعار أوبرا « تريستان و ايزولد » على



لوحة نادرة لفاجنر ، أهـداها « ويزيندونك » لزوجته ـ عشيقة فاجنر ـ كهدية !



« مينا فاجنر » : الزوجة الأولى للعبقرى ، التى ماتت كسيرة القلب!

حلقة من الاصدقاء ضمت خمسة ، أخـذوا يتطلعون الى فاجنر وينصتون الى القصة الشعرية العظيمة . وكانت بين هؤلاء الخمسة « مينا » زوجة فاجنر ، التى كانت يوما أولى ممثلات فرقة مسرحية صـغيرة فى (ماجدبيرج) ، ثم التقت بالموسيقى الشاب فأحبته ، وتوفرت على العناية به ، ورسمت له خط سيره نحو المجد ، ثم مضت تعبد له الطريق اليه .. وعندما انطلق مع أصدقائه يحتفلون بنجاح أولى أوبراته ـ « ريينزى » ـ سهرت هى فى البيت تعد له اكليلا من الغار طرحته على وسادته .. ولكنه كان قد هجرها ونبذ حبها عندما ألف « تريستان و ايزولد » !

والى جوارها جلست « ماتيلد فيزيندونك » ، عشيقة فاجنر التى ألهمته شخصية « ايزولد » .. وكانت امرأة جميلة ، متعالية ، تشعر بأنها فى ذروة حياتها ، وان مواهب فاجنر الخلاقة المبدعة ملك يديها !

وكان هناك « أوتو فيزيندونك » ، زوجها .. ينصت ـ وهو يمسك أنفاسه ـ الى صوت فاجنر ، ولعله كان يعرف كل ما كان بين صديقه وزوجته !

ثم .. « هانس فون بولو » ـ أكثر تلاميذ فاجنر تحمسا له ـ وقد استغرق فى الاصغاء الى كلمات « تريستان » ، وهو ممسك بيد زوجته الشابة «كوزيما»

ولم تنقض بضع سنوات ، حتى تفرقت هذه الجماعة الغريبة .. فقد ماتت « مينا » منبوذة مهجورة .. وعادت ماتيلدا الى زوجهـا بعد أن أنجبت من عشيقها النابغة ثلاثة أطفال !.. وتزوج فاجنر من « كوزيما » ، التى أطلق عليها أبوها ـ الموسيقى « ليست » ـ هذا الاسم العجيب ، لانها ولدت على ضفاف بحيرة (كومو) .. وأما بولو ، فمن العجيب انه سرعان ما وجد العزاء من الصدمة التى أصابته على أيدى أستاذه وزوجته « كوزيما » ، فقد أحب راقصة فى فلورنسا ، وتدله فى هواها ، فكتب الى صديق له يقول : « انهـا قصيدة منغومة ! » ، ولكن غرامهما انتهى سريعا ، فرحل بولو الى أمريكا .. وقد حدث ذات يوم ـ وهو فى نيويورك ـ أن تجاسر صديقه عازف البيـانو « وليم ماسون » فسأله عن « كوزيما » ، فاذا جوابه يكشف بجلاء عن انهـا



« كوزيما » فى شـبابها ، كانت زوجة لـ « فون بويلو » قبـل زواجها من فاجنر



« كوزيمـا فاجنر » : زوجتـه الثانية ، فى شيخوختها

كانت لا تزال أعز امرأة لديه ، اذ قال : « لقد كنت أصغر من أن أليق بها ٠٠ كانت فى حاجة الى عبقرى شامخ ٠٠ وقد ظفرت بريتشارد فاجنر !٠٠ ولقد كان فاجنر — من ناحيته — فى حاجة الى ذكائها والى ذوقها الفنى ٠٠ فكان ما حدث أمرا محتوما لا مهرب منه ! »

حقا ان الجنون ٠٠ فنون !

◆ وأخيرا ، هاكم قصة حب من نوع آخر ، بطلهـا الموسيقى التشيكى الطيب القلب ، الريفى الطابع : « انتونين دفوراك » ، الذى أوتى شـغفا ملحوظا بالسكك الحديدية ، ومحطاتها ، وقاطراتها ، وكل ما يمت اليها بصلة ! ٠٠ كان يسـير فى كل يوم الى محطة (فرانز جوزيف) ببراج ، فيبتاع « تذكرة رصيف » ، ثم يتفقد كل شبر فى المحطة ، ويتحدث الى عامل الباب ، والى الحمالين ، والى محصل التذاكر « الكومسارية » ، والى سائقى القطارات ٠ وكان يحفظ « جدول » مواعيد القطارات عن ظهر قلب ، فاذا ما تأخر قطار عن موعده ، أنحى باللائمة على أى موظف يصادفه ، وأخذ يعتذر الى الركاب !

وعندما كان يعمل فى معهد الموسيقى مدرسا ، كثيرا ما كان يخرج ساعته — وهى من ساعات عمال السكك الحديدية العتيقة — فينظر اليهـا فى قلق وانفعال ، ثم يسأل أحد تلاميذه فجأة ان يذهب الى المحطة ، ويسأل عما اذا كان القطار السريع القادم من (برنو) الى (براج) ، قد وصـل فى موعده المحدد ، وعما اذا كان لدى « ياروسلاف فوتروبا » — سائقه — أنباء طريفة !

وحدث يوما ان كان خطيب ابنته فى بلدته ، ثم عاد الى براج ، فسـأله دفوراك عن رحلته ، واذا الشاب يقول : « كانت بديعة ياسيدى ، فقد غادرنا كريكوفيتش فى الساعة الثانية و٣٤ دقيقة ، ووصلنا الى بنيسوف فى الثالثة و١٨ دقيقة ، وبعد أن تزودت القاطرة بالماء ، غادرنا المحطة فى الثالثـة و٢٨ دقيقة ، فوصلنا الى براج فى الخامسة و٤٦ ٠٠ وبهـذه المناسبة ، كان رقم القطار ١٠٧٢٦ » ٠٠ وهنا هتف دفوراك : « يا لله !٠٠ ما أغباك ! الا تعرف ان ١٠٧٢٦ هو رقم القاطرة ، وان رقم القطار فى الجدول هو ١٨٧ ؟ » ٠ ثم التفت الى ابنته فى حسرة ، وقال : « أو هذا ياعزيزتى هو الرجـل الذى تبتغين الزواج منه ؟ »

وعندما عرض عليه منصب « مدير معهـد الموسيقى القومى الجديد » فى نيويورك ، تردد طويلا ٠٠ وكان العامل الذى أملى عليه قراره الاخير ، بقبول المنصب ، هو ما توقعه من رؤية القـاطرات الامريكية الضـخمة ، الجبارة ، وسائقيها ، وعرباتها ، ومركبات الاكل والنوم فيها ، ومحطاتها !

لا تخف من الشيخوخة !

• والآن ، هل تحب ان تقرأ معى هذا البحث الذى نشرته مجلة « باراد » الامريكية ، للباحث الاخصائى الدكتور « موريس ليندن » ؟ انه يعالج موضوعا حيويا يهم كل رجل وامرأة ٠٠ فجميعنا بشر ، نشفق من الشيخوخة ٠ قال الباحث :

ما « القاسم المشترك الاعظم » الذى يشترك فيه الاشخاص التالية أوصافهم: المرأة المتوسطة العمر التى تلبس ثيابا لا تليق الا بالمراهقات !٠٠ الرجل الناضج الذى يغالى فى التهريج فى المجتمعات الى حد الحماقة !٠٠ الشاب الذى يضيع وقته أمام مرآة الحمام ليجد طريقة يخفى بها صلعه المتزايد !٠٠ المرأة التى لا تعترف قط بسنها الحقيقية !؟

الجواب واحد فى كل هذه الحالات : ان هؤلاء جميعا مصابون بالمرض الاجتماعى المتفشى فى عصرنا ٠٠ بالجرثومة الخبيثة التى تعطى للشباب أهمية مغالى فيها ، فى الوقت الذى تندد فيه بالشيخوخة أكثر مما تستحق ٠٠ فالاشخاص الذين أوردنا أمثلة من تصرفاتهم فيما سبق يشتركون جميعا فى انشغالهم بالمحاولات اليائسة العقيمة التى يرمون من ورائها الى وقف عجلة الزمن أو تعويقها بقدر طاقتهم ، تجنبا لما تحمله هذه العجلة معها من آثار على حياتهم ونشاطهم !

لكننا فى أشد الحاجة فى الواقع الى أن نقضى على الاعتقادات الخاطئة التى توحى الينا بأن الشيخوخة هى أبغض مراحل الحياة ٠٠ ولسوف أبين مدى هذه الاعتقادات الخاطئة فى الاجابات التى أقدمها فيما يلى عن أسئلة استوحيتها من خلاصة تجاربى :

• هل من الضرورى ان تكون الشيخوخة فترة حافلة بالأمراض ؟

يعتقد كثير من العلماء ان أمراض الشيخوخة عامة ترجع فى أصلها الى عادات سيئة فى المعيشة خلال سنوات الشباب !٠٠ لذلك فمن الحكمة اتباع القواعد الصحية فى كافة مراحل العمر ، سيما وان بعض علل الشباب تستفحل رويدا مع تقدم السن ٠ ومن ثم فمن الممكن علاج كثير من علل الشيخوخة بتغيير عادات المرء تغييرا جوهريا

• ألا تقترن الشيخوخة بالمماكسة والعناد ؟

من الخطأ أن نتهم « كل » كبار السن بهذه الصفة ، بحيث تغدو صفة عامة من مستلزمات الشيخوخة ٠ ذلك لان الانسان يكون شخصيته منذ الصغر ، وليست أخلاق المكتهل سوى تطور لما اكتسبه منذ باكورة حياته

• هل فى وسع الشيوخ أن يتعلموا أو يكتسبوا مواهب جديدة ؟

بالتأكيد ٠٠ وكم من أمثلة دلت المعنيين بتعليم الكبار على مقدرة الكثيرين من كبار السن على التعلم ٠ ومع ان تقدمهم فى هذا المضمار يكون بطيئا ، الا انه غالبا ما يكون أرسخ وأعمق من تقدم الصغار ، لانهم فى استيعابهم المعلومات الجديدة يمزجونها بما لديهم من معرفة سابقة

• كيف يكون الشعور بالكبر ؟

تكشف الدراسات عن انه لايوجد ثمة ما يسمى « الشعور بالكبر » ،وليس ما يعبر عنه الناس بهذا الوصف سوى مجموعة من الأحاسيس التى تصحب التطور البدنى : مثل الآلام العضلية ، وتيبس المفاصل ، وتضاؤل السمع والبصر ، وما اليها ٠ ثم ان شعور الكبار بأنهم لم يعودوا ذوى نفع - كما يحدث حين يحالون الى المعاش - وترفق المجتمع بهم وتسامحه معهم ٠٠ كل هذه التصرفات الهادفة الى الاكرام ، يأخذها الكبار على عكس المقصود منها ، فكأن المجتمع ينفض يديه منهم ٠٠ ومن ثم يستسلم بعضهم للاكتئاب والضيق٠ وفيما عدا ذلك لا يشعر الكبار بأى تغير ، بل يظلون محتفظين بميولهم وشهيتهم وأسباب تسليتهم ولهوهم ٠ واذا كان ثمة تغير ذو بال ، فهو تضاؤل الميول الجنسية ، وازدياد الميل الى الهدوء ، والنظر الى الحياة بفلسفة مكتسبة من الخبرة الطويلة

• هل من الصحيح ان الشيوخ محافظون ؟

الواقع أن الدراسات الدقيقة أثبتت ان لا فرق يذكر بين الشباب والشيوخ فى المحافظة ٠ وقد يكون من الصحيح أن الشيوخ محافظون اذا أخذنا « المحافظة » على غير معنى « الرجعية » ، أى على انها الميل الى المحافظة على ما حققته المدنية من انتصارات ، وعلى مقاييس البشر ، وعلى الكفاءات

الانسانية ، سعيا الى نقل هذه كلها للأجيال التالية · أما الشباب ، فانه ميال عادة الى التخلص من القديم والاتجاه الى التجديد ، والتجديد فى عنف وحدة، لا فى اعتدال وتدرج كما يؤثر الشيوخ · ذلك لان هؤلاء يتأثرون بما جمعوا فى حياتهم من خبرة وتجربة

◆ هل للهوايات قيمة لدى المسنين ؟

أجل ، اذا كانت تتمشى مع ميول تروق لهم فعلا · وأكثر الهوايات نفعا لهم هى تلك التى تتطلب قسطا من الدراسة والبحث ، مما يوسع الثروة المدخرة لدى الفرد من المعرفة

◆ هل يزداد احتمال الاضطرابات العقلية بتقدم السن ؟

لا تزيد نسبة الذين يصابون باضطرابات نفسية تحتاج الى علاج فى المستشفيات العقلية على ٥ فى المائة ممن تجاوزوا الخامسة والستين · على ان الميل الى الاكتئاب والضيق يزداد لدى المسنين · واذا كانت ثمة اضطرابات تصيبهم، فان من العسير الجزم بما اذا كانت نتيجة أضرار تحيق بالمخ ، أو انها من آثار القلق الذى يؤثر على حالتهم النفسية · وبوجه عام ، تتوقف الاضطرابات العقلية لدى الكبار على عين الاضطرابات النفسية التى تؤدى الى اختلال العقل فى مراحل العمر الاخرى

◆ هل للمسنين ان يتزوجوا ؟

يستنكر كثير من الشباب زواج المسنين فى كبرهم ، فيؤدى هذا - فى الغالب - الى مضاعفة شعورهم بالوحدة ، مع ان الأدلة وافرة على أن زواج المسنين يكون عادة نتيجة عاطفة قوية ، كما انه يكون أكثر استقرارا ووئاما ، اذ أن الميل الى المشاكسة والخصام يقل بتقدم السن ، وكذلك يقل الاندفاع وراء النزوات والعاطفة المغررة · بل ان الزواج بين الشيوخ والمسنات يساعد على تخفيف شعور الفريقين بالوحدة والعزلة والحرمان ·· وبالتالى يخفف من شقائهم

◆ هل ينبغى أن يواصل المسنون الاقامة مع أولادهم ؟

أجرى فى أمريكا استفتاء بين الذين تجاوزوا الخامسة والستين ، كشف عن ان أكثر من ٩٠ فى المائة منهم يفضلون عدم الاقامة مع أولادهم ، وانما يؤثرون

الاستقلال فى معيشتهم ، اعتقادا منهم بأن ذلك يساعدهم على الاحتفاظ بتقديرهم لانفسهم وبكرامتهم ، كما انه يجنبهم التدخل فى شئون أولادهم ٠ وهى نظرية قد تكون فى محلها ، ولا سيما اذا اجتمعت الحماة وزوجة الابن ، وكان الود بينهما مفقودا !

المدينة الآثمة ٠٠ أخبث مدن العالم !

• وهذا « ريبورتاج » صحفى يثير الاهتمام ، نشرته جريدة « صنداى دسباتش » البريطانية للكاتب « ٠ا و ٠ بارســونز » ، بعد ان قام بجولة فى مدينــة (فنيكس) الأمريكية ، التى تعتبر وكرا لشتى أنواع الموبقات التى ترتكب تحت سمع السلطات وبصرها !٠٠وهذا التحقيق الصحفى يعطيك فكرة عن صــور من الشرور التى كانت طابعا مألوفا فى ولايات « الغرب » الامريكية فى القرن الماضى ، وكنا نحسب ان عهدها قد انقضى وعفى عليــه الزمن ٠٠ ولكن يظهر ان لتلك الشرور ذيولا حتى يومنا هذا !٠٠فتعال نصحب الكاتب فى رحلة الى تلك المدينة:

كان فتى يافعــا ، وكان ثملا بعض الشىء ، ومع ذلك فقــد أدرك ان نقوده سرقت !٠٠ وكانت تلك أول ليــلة يقضيها خارج مدرسة المشــاة ، فى (فوت بنينج) بجنــوب أمريكا ، وكان قد اسـتقل « الاوتوبيس » الى (كولمبس) ، البلدة الهــادئة الوادعة ، فلم ترق له « البيرة » الخفيفــة التى كانت مشاربها تقدمها ، ومن ثم عبر النهر الذى يفصل بين ولايتى (الاباما) و (جورجيا) ، فما ان اجتاز الجسر ، حتى تراءت له الأضـواء الحمراء والخضراء ٠٠ أضــواء المنتديات الليلية ٠٠ وخلال النوافذ الزجاجية لأحد هذه المنتديات ، رأى المكان حافلا بذوى البزات العســكرية ، وبالنســاء ذوات النحور العــارية ٠٠ ودخل « نادى رو الليلى » ، فما ان اسـتقر بداخله ، حتى اقتربت منه شـقراء ينحسر ثوبها عن شطر كبير من صدرها ، وقالت له بدلال : « اطلب لى شرابا ! » ٠٠ وطلب كأسين ، وكان الشراب الذى ملأ كأسها ماء ملونا ، ولكن الفتى لم يكن يدرى ٠٠ ودفع الدولارين اللذين طلبهما الســاقى ، دون ان يعلم ان الفتــاة لن تلبث ان تحصل على نصف دولار ، عمولة لها !

وبعد الكأس الثالثة لكل منهما ، وضعت الحسناء يدها على ذراعه ، وتمتمت مقترحة ان يتسللا الى « الغرفة الخلفية » . وفى الطريق أغرته على ان يجرب حظه فى احدى آلات المقامرة الاوتوماتيكية .. واستطاعت بنظرة واحدة ان تقدر المبلغ الذى كان يدخره . فلما وصلا الى « الحجرة الخلفية » استقبلتهما فتاة برعت فى استدراج الوافدين الى الرهان على رمى « الزهر » .. وبين الشراب والمراهنة ، فقد الجندى نقوده المدخرة ، فصاح : « ان هذا اللعب غير نظيف ! » .. واذا برجلين ضخمين ينقضان عليه ، ولكمه أحدهما بقبضة كان يلف عليها سلسلة حديدية .. فغاب الفتى عن وعيه ، وحين أفاق الفى نفسه فى المشرب والدم يسيل من وجهه ، ثم أقبل اثنان من رجال البوليس فأخذا يجرانه الى السجن !

وكانت التهمة المعهودة هى : « الافراط فى الشراب ، واحداث الشغب » .. عشرات من الجنود كانوا يساقون مثل الفتى الى السجن ليلة بعد أخرى ، ويوجه اليهم هذا الاتهام !.. والواقع ان السعيد هو الذى كان يساق الى السجن ، فقد كان هناك من يلقون فى النهر ، أو يقتلون وتطرح جثثهم فى بالوعات المجارى !

هكذا تجرى الامور فى « مدينة الاثم » بأمريكا ، أو بالاحرى .. مدينة (فنيكس) بولاية (ألاباما) ، التى وصفها وزير الحرب الامريكى بأنها « أخبث مدينة فى الولايات المتحدة » !.. وبلغ من غضب الجنرال « باتون » لما كان يلقاه جنود الجيش هناك من غش وسرقة واعتداءات ، ان هدد - عندما كان رئيسا لأركان حرب الجيش الامريكى - بأن يوفد اليها حملة من الدبابات تدكها دكا !

ومع ذلك فقد قدر لمدينة الاثم ان تظل سنوات سادرة فى غيها ، حتى أوفد جوردون بيرسونز - حاكم الولاية - حملة من الحرس الوطنى ، فى أواسط عام ١٩٥٤ ، للسيطرة على المدينة وتطهيرها !.. وكان هذا العمل هو الأول من نوعه فى تاريخ أمريكا ، ولكن الحاكم برره فى البيان الذى أذاعه بقوله : « ان المدينة غارقة فى حالة من الانحطاط ، والعبث بالسلام ، والاجرام المنظم ، والفزع ، والارهاب .. فقد تآمرت عصابة من المجرمين - ولا تزال تتآمر - للاثراء عن طريق استغلال الرذيلة والشر ، بأساليب مرسومة » !

وتبينت الحملة ان الميسر كان يجرى فى (فنيكس) ليل نهار ، وبكل أنواعه ، وكان وسيلة للسرقة والنهب .. ويقول الميجر جنرال وولتر هانا ، قائد الحرس الوطنى : « لم نجد زهرا واحدا نظيفا ، بل كان كل زهر محشوا ليستقر - عندما يرمى - على أرقام معينة !.. ولم نجد مجموعة واحدة من ورق اللعب خالية من العلامات ! » .. وكانت قطع الزهر المحشوة ، وأوراق اللعب ذات العلامات ، تنتج بكميات كبيرة فى (فنيكس) ، لتباع فى كافة ارجاء الولايات

المتحدة ! كما كانت تعقد فى كل يوم عمليات سحب زائفة لعدة أنواع من « اليانصيب » غير المشروع !

وكانت الملاهى أوكارا لاستدراج السذج ، وقد حشدت بخمسمائة امرأة لاغوائهم ٠٠ وكان ثمة سفاكون يستأجرون لأية عملية اغتيالية فى مقابل خمسين دولارا عن كل قتيل !٠٠ وكانت ثمة عصابة لاجراء عمليات الاجهاض التى لا يقرها القانون !٠٠ كما كانت المخدرات واسعة الانتشار فى المدينة ، حتى لقد اعترف رجل للمحققين بأنه أعطى أحد الأطباء ما يزيد على ١٤٠٠٠ دولار فى فترة تتراوح بين ١٠ و ١٢ سنة ، فى مقابل امداده بالمخدرات !٠٠ وكانت الأصوات تباع وتشرى وتزيف فى الانتخابات ، كما كان المحلفون ينساقون للاشقياء والا تعرضوا للارهاب ٠٠ كذلك كان رجال البوليس تحت سيطرة المحتالين والنصابين ، وكان الموظفون يتقاعسون عن تنفيذ القوانين واللوائح اذا كانت تتعارض مع مصلحة أصدقائهم !

ومما جاء فى تقرير الميجر جنرال هانا : « لقد بلغ النشاط غير المشروع كل بيت وكل أسرة فى المدينة ، سواء مباشرة أو عن طريق غير مباشر ٠٠ فان أهل المدينة لم يعرفوا - منذ أجيال - سوى الاعمال غير المشروعة ٠ ولقد كانت المدينة تضم ٢٧ر٠٠٠ فرد لا صناعة لهم سوى المقامرة ، والبغاء ، والنصب والاحتيال ٠٠ وعلى هذه الألوان من النشاط ، كانت اقتصاديات المدينة تتوقف » !٠٠ وكانت المدينة تزخر بالفتيات اللاتى كن يتدفقن عليها ابتغاء الكسب السهل ، ومنهن من اثرين ثراء مطردا ٠ على ان الميسر كان هو الحرفة الرئيسية لمدينة (فنيكس) ٠ ويقدر ما كان يتدفق على المدينة سنويا عن طريقه بحوالى خمسة ملايين من الدولارات سنويا ! وكانت المبالغ التى تطرح للمقامرة تصل فى الليلة الواحدة الى ٣٥٠٠٠ دولار أحيانا ، فقد كان كبار المقامرين يفدون على « مدينة الاثم » من كافة ارجاء الولايات المتحدة !

مشكلة الفراش ٠٠ منذ الازل !

• هل تحب ان ترفه عن نفسك فى هذا الحر بقراءة بحث فكاهى تاريخى طريف - وان اعتبره كاتبه بحثا نفسيا رصينا - اذن فاقرأ معى هذا الفصل ، من كتاب « كريستوفر جون » الذى يتناول مشكلة من المشكلات التى تواجه كل زوجين : مشكلة الفراش الواحد ، أو الفراشين :

أجمع عدد من علماء النفس فى بلاد مختلفة ، على أن « ازدياد عدد الحالات التى ينام فيها الزوجان فى سريرين منفصلين ، يتمشى مع ارتفاع معدل الطلاق» ٠٠ ذلك ان الزوجين اللذين يشغلان سريرا واحدا ، انما يساعدان حياتهما الزوجية على ان تمتد وتعمر طويلا !

ولقد وجهت حملات كثيرة الى هذه « الفتوى » ، وكان من الغريب حقا ان ساهم بعض رجال الدين فى هذه الحملات ، فراحوا يحتجون على هذه الفتوى بشدة ، قائلين : « ليست ثمة علاقة ، على الاطلاق ، بين نوع السرير الذى ينام عليه الزوجان - وهل هو واحد أو اثنان - وبين السعادة الزوجية ! » ٠٠ ومهما يكن رأيى أو رأيك ، فان التاريخ خير حكم ٠٠ والتاريخ يقول ان قدماء المصريين كانوا - منذ ثلاثة آلاف عام - يستعملون السرير الواحد للزوجين ، وانهم كانوا يعيشون طويلا ، وكانت نسبة السعادة الزوجية فى مجتمعهم عالية ! (ولك ان تستخلص من هذه الحقيقة النتائج التى تروقك !)

ومنذ ٩٠٠ سنة ، كان فرسان العصور الوسطى ينامون على أسرة ضيقة ، أشبه بالأرائك ، لا يتسع الواحد منها لأكثر من شخص واحد ٠٠ ولم يقل أحد انهم وزوجاتهم كانوا أوفياء فضلاء ، يعافون الرذيلة ، وينأون عن الخيانة الزوجية ٠٠ وليس أدل على ذلك من « أحزمة العفة » التى كان الازواج يكبلون بها زوجاتهم !

ونقترب قليلا من عصرنا ، فنلتقى بالسرير ذى الاعمدة الاربعة ، الذى انتشر فى انجلترا فى عهد الملكة القديمة « اليزابيث » ، حتى أصبح « موضة » فى تلك الايام ، لأن الملكة كانت تستخدم هذا الطراز ٠٠ ومع انه كان عريضا ، الا انه لم يحل دون اشتهار اليزابيث بلقب « الملكة العذراء » !٠٠ ورغم ان السرير ذا الاعمدة الاربعة أخذ يتسع فى الحجم بمضى الزمن ، فانه لم يحل دون ان يكون الملك المرح « تشارلس الثانى » من أشهر « المزواجين » بين الملوك !٠٠ أى ان السرير الواحد لم يكفل له القناعة بزوجته الواحدة !

وكانت الامبراطورة « آن » الروسية من أنصار السرير الفردى ٠ ولكنها ما لبثت ان « ابتكرت ! » طرازا جديدا منه ، ليضمها مع واحد محظوظ من الحاشية ، هو الامير « ميخائيل جاليتسين » ، الذى كان مفرطا فى التفاؤل ، فظن ان بوسعه ان يكون عشيقا للامبراطورة ، وان يتخذ لنفسه زوجة فى الوقت نفسه ٠٠ وقبلت الامبراطورة على مضض ، وظلت - طيلة حياة الزوجة - تخفى استياءها من ان يشرك الرجل معها امرأة أخرى فى عواطفه !٠٠ ولكن سوء الحظ - حظ جاليتسين - شاء للزوجة ان تموت فى يناير سنة ١٧٤٠ ، واذ ذاك سنحت الفرصة للامبراطورة ، كى تكيل للعشيق المدلل بنفس الكيل ٠٠ ألم يتزوج جاليتسين - فى المرة الاولى - غير مكتف بما كانت تغدقه عليه من

عواطف ؟٠٠ حسنا ، فليتزوج مرة أخرى ٠٠ ولتزوجه هى ، ولتختر له أبشع امرأة فى روسيا بأسرها !٠٠ وأعدت الامبراطورة للعروسين زفافا هائلا ، فقد وضعتهما فى قفص حمل الى الكنيسة على ظهر ٠٠ فيل !٠٠ ثم أقامت لهما بعد ذلك مأدبة فطور ، وأجلستهما بين الخدم ٠٠ وأرسلتهما بعد ذلك ليقضيا « شهر العسل ! » فى عش للغرام شيد من الجليد على ضفاف نهر (نيفا) المتجمد !

وكانت قاعة النوم تقع فى احد جوانب القصر ، فأقامت فيها فراشا كبيرا ذا أعمدة أربعة ، من الجليد !٠٠ كما صنعت كل ستائره وحشياته ووسائده وأغطيته من الثلج ! واستقر على الارض بجواره زوجان من النعال - الشباشب - الثلجية ! وما ان استقر الزوجان فى « قصر العسل » ، حتى جردا من كل ثيابهما ، وطرحا على الفراش الجليدى ، ثم أقيم على الابواب حراس ليحولوا دون فرار العروسين !٠٠ ولولا ان الامير وعروسه كانا قويى البنية ، ما قدر لهما ان يريا ضوء النهار مرة أخرى !

سرير الدكتور جراهام = ٥٠ جنيها فى الليلة !

◆ ومن الاسرة الطريفة ذلك السرير الذى ابتكره الدكتور جيمس جراهام لمعبد الصحة الذى أقامه فى (ادلفى) - فى سنة ١٧٨٩ - وأطلق عليه اسم « سرير الدولة السماوية الاعظم » ٠ ويقال ان « نيلسون » - القائد البحرى البريطانى - وعشيقته « مدام هاملتون » ، وقفا أمامه مجردين من الثياب ٠٠ ليقدما فروض الولاء لربة الصحة !

وقد أنشىء هذا السرير « لا ليمحو الوحشة فحسب » - كما قال الدكتور جراهام - وانما : « ليدخل التحسين والبهجة والقوة على البدن ، ولينمى - عن طريق ذلك - قوى العقل » !٠٠ وكان هذا السرير يقوم على أربعين عمودا من الزجاج ، وتعلوه قبة صنعت من المرايا « لتعكس مفاتن وحركات النائمين السعيدين » ٠ وفوق القبة ، أقيم تمثال لكيوبيد - اله الحب - ولمحبوبته « سايك » ، ول « هايمن » اله الزواج ، الذى أمسك فى احدى يديه مشعلا ، ناره من الكهرباء ، وفى اليد الاخرى تاجا براقا فوق حمامتين رقدتا فى سرير من الورود !٠٠ وكانت القبة تستند الى أعمدة تألفت من مجموعة من الادوات الموسيقية ، كما كانت أنابيب الأرغن تهمس فى الجو بأنغام « حالمة » كلما تحرك السرير !

وعلى قمة هذا السرير « الطبى - المغناطيسى - الموسيقى - الكهربائى » ، نقش هذا الشعار : « اخلصوا ، وتكاثروا ، واملأوا الأرض » !٠٠ أما الحشيات ، فكان حشوها من الاعشاب الزكية ، وأوراق الورود ، وزهور « اللافندر » ، والتوابل الشرقية !٠٠ كما نسجت الاغطية من حرير ناعم ،

يضاهي في لونه بشرة السيدة التى تنام على الفراش ، وقد ضمخت هذه الاغطية بالعطور !

وكان الأجر المحدد لاستخدام السرير ليلة واحدة ، خمسين جنيها ٠٠ ولا مجال للمساومة !

نشأة السرير الفردى « نتيجة » لا « سبب » للخلاف الزوجى !

◆ ولعل سرير الدكتور جراهام « السماوى » ، كان بداية تحول فى تاريخ الاسرة ، اذ بدأت تظهر الاسرة المزدوجة ، التى ظلت محتفظة بالاعمدة الاربعة، والتى كانت وثيرة بالنسبة لرعايا الملكة « فيكتوريا » ، الذين كان « بناء الامبراطورية ! » ينهك قواهم ٠٠ ولكن هـذا النعيم لم يدم ، اذ أصبحت المساكن تبنى صغيرة الحجم ، مرتفعة الايجار ٠٠ ومع هذه المساكن ، ولدت الاسرة الفردية : لكل من الزوجين سريره الخاص !٠٠ أما لماذا تلقى على هذا النوع من الاسرة المسكينة تبعة كل البلاء ، فهذا ما يتعذر ادراكه ٠٠ فهى فى حد ذاتها تبدو متواضعة ، بل متقشفة وقورة ، ومع ذلك فقد نسبت اليها كل المصائب ـ حتى تبعات الحروب ! ـ واعتبرت مسئولة عن قيام المساواة بين الجنسين ، وعن تكافؤ فرص العمل والاجر للرجل والمرأة ، وعن هبوط معدل المواليد !٠٠ ولكن أحدا لم يحاول ان يتذكر ان لا جديد تحت الشمس ، وان ما يحدث اليوم ليس سوى تكرار لما حدث بالامس !٠٠ فعندما شاءت الامبراطورية الرومانية ان تضمحل وتنهار ، ارتفع معدل الطلاق فيها ارتفاعا كبيرا ، فاذا مصانع الامبراطورية تقبل على انتاج الاسرة الفردية ٠٠ ولم يحاول أحد من أهل القسطنطينية ان يقفز من سريره المستقل ليتفرج على الاتراك وهم يدقون آخر المعاول فى الامبراطورية البيزنطية !

وكان معظم الالمان ينعمون بدفء الاسرة المزدوجة ، عندما غفلوا عن هتلر وهو يقود بلادهم الى الدمار ، بينما كان جنود شيانج كاى شيك ينامون على أسرة فردية عندما طردوا من الصين الى فرموزا !

ومن هذا كله نرى ان الاسرة الفردية ـ أو بالاحرى ان استقلال كل زوج بسرير خاص ـ ليس سببا فى انهيار الحياة الزوجية ، وتداعى المجتمع ، وانما ٠٠ قد يكون من اعراضهما !

ماذا تعرفين عن العطور

التى تعززين بهاسلطانك على حواس الرجل ؟

◆ والآن ، تعالى أيتها القارئة العزيزة ننقب لك فى

دوائر المعارف العالمية عن موضوع يهم جنسك الناعم . ما قولك فى موضوع « العطور » ؟ لا بأس ؟ اذن اليك أطرف المعلومات التى قرأتها لك فى دوائر المعارف فى هذا الشأن :

يؤكد لنا العلماء أن ٨٠ فى المائة من « الحس » فى الانسان مقصور على حاسة الابصار ، وان العشرين الباقية موزعة على الذوق واللمس والسمع والشم . ومع ان هذه الحاسة الأخيرة لا تعدو أن تكون واحدة من خمس ، ومن السهل الاستغناء عنها ، الا أنها ـ فى الواقع ـ من أندر النعم التى يمتلكها الانسان . ففى كل يوم تغشى خياشيمنا روائح الزهور ، والليمون ، والأعشاب ، والأطعمة ، والزيوت ، والأدوية ، والعطور ، فتحدث فى نفوسنا آثارا لا حصر لها ولا نهاية .. واذا كان بعضها كريها تعافه النفس ، الا أن بعضها الآخر زكى ، عبق ، شذى ، ينعش النفس .. ومن هذه الروائح ما تعلم الانسان ـ خلال تقدم حضارته ـ أن يستخرجه وأن يصنع منه عطورا !

ولا جدال فى أن فن صناعة العطور ، يرجع الى أقدم عصور المدنية .. الى حضارتى مصر واليونان .. فقد كانت « كليوباترا » و « بوبيا » تستخدمان أنواعا خاصة من الأريج والبخور الشذى ، كما كانتا تمزجان مياه الاستحمام بزيوت وعطور خاصة ، وكان العنبر معروفا منذ عهد الفينيقيين ، وقد كان اكتشافه فى الحيتان سببا دفع الطامعين فى الثراء الى التسابق الى شواطىء البحر !

ومن الأمور التى قل أن تخطر بالبال ، أن الميول الى العطور تختلف من عصر الى عصر ، فهى تتطور كما تتطور الأزياء وغيرها من أدوات الزينة . وقد كانت العطور ـ فى عهدى حكم الملكة فيكتوريا والملك ادوار السابع ـ قوية ، مباشرة التأثير ، وكانت عطور « الهليوتروب » والورد والبنفسج هى أكثر العطور شيوعا ، ولا تزال العطور الانجليزية العريقة تحتوى على عبير «اللافندر» ـ أو « اللاوندة » ـ و « الروزمارى » و « الجيرانيوم » ، وكلها عطور من أصل نباتى !

وفى أوائل الحرب العالمية الاولى ، أصبحت العطور الثقيلة ، والعطور الشرقية ـ كالمسك ـ هى الشائعة . وقد ظلت سيادة عطور الشرق حتى سنة ١٩٢٠ . وكان نشر عبير زيت خشب الصندل ، أو العطر اليابانى ، فى خدور النساء ، مثيرا لهن !.. على أن انقلابا حدث فى صناعة العطور ، وفى صناعها ، فى أوائل ذلك العام ، اذ بدأ مبتكرو الأزياء ينزلون الى ميدان هذه الصناعة ، فسرعان

ما أنتجت « شانيل » و « لانفان » وغيرهما عطورا تحمل أسماءهم !٠٠ كما أن الانقلاب تناول أساليب الصناعة ومزج الزيوت العطرية ٠ فحتى ذلك الحين كانت العطور تستخلص زيوتا من العنبر والزهور والأعشاب وأوراق الشجر ، ثم تخلط بعضها ببعض وبالكحول ، وفق نسب معينة ٠ ولكنها فى عصر الكيمياء العضوية بدأت تستخلص من القار ومن الأصباغ ٠٠ وامتد الأثر الى ميدان الأطعمة فغزته عطور الفانيليا والزهور الصناعية !

اتجاه « الموضة » الى العطور الصناعية « الخفيفة » !

◆ وهناك فوارق - يعترف بها الكيميائيون أنفسهم - بين المنتجات الصناعية والمنتجات الطبيعية ، فقد يكون فى وسع العلماء أن يحضروا شذى الفانيليا أو الأناناس أو الكمثرى ، بطريقة صناعية فى المعامل ٠ ولكن شتان بين هذا الشذى ، وبين الأريج الطبيعى الذى ساهمت الشمس والهواء فى تثبيته ، ومن ثم فان الاقبال على العطور الصناعية دليل على ميل جديد لدى مستعملى العطور يتجه نحو الخفيفة منها ، ونحو تلك التى لها عبير الفواكه٠٠ومع ذلك ، فان أكثر الناس دراية وخبرة بالعطور ، قل أن يفرقوا بين الصناعية والحقيقية !

وعندما أنتجت « شانيل » عطرها الذى طبقت شهرته الآفاق - تحت اسم « رقم ٥ » - تغير فن الروائح تغيرا تاما ٠ فان جميع العطور الغالية التى أنتجت منذ ذلك الحين ليست سوى ألوان تستند فى أصولها الى زيوت صناعية لها عبير الفواكه والزهور ، وقد يكون لها أثر يتخم حاسة الشم ، ولكنها مع ذلك لا تصل فى مفعولها الى ما كان للعطور الخفيفة القديمة ٠٠

وكما هو الحال فى الأزياء ، نجد أن من العسير معرفة أصل استخدام العطور ٠ على أن من المعروف أن النساء يسعين دائما - وان لم يشعرن أو يتعمدن - الى أن يخلقن حولهن جوا يترك آثارا فى النفوس ٠ ومن ثم يحاول صناع العطور اليوم أن يخلقوا لكل مناسبة عطرها الذى يتفاوت عن غيره من حيث البساطة واللطف ، أو الثقل والعبير الخانق !٠٠ ولعل المنشآت والأسماء لم ترتفع وتنخفض بمثل ارتفاعها وانخفاضها فى ميدان العطور ، فان الأسماء الذائعة فى هذا الميدان تتغير باستمرار : ففى العقد الثانى من هذا القرن كان « كوتى » و « هوبيجان » يعتليان عرش العطور ، وكان « شيبر » كوتى هو أفخم العطور ردحا من الزمن ٠ ثم أدخل « جيرلان » - فى العقد الثالث من القرن - نفحات من توابل الشرق فى العطور ٠٠ وعادت « الموضة » تتغير فى أعقاب الحرب الأخيرة ، فأصبحت العطور تشتق عبيرها من أريج الفواكه الطازجة ، وغدت أخف منها فى أى عصر سابق ٠



فينوس وكيوبيد للفنان « فيلاسكويز » ، بمتحف « ناشيونال جالیری » بلندن

المحروم!

قصة مصرية .. بقلم:

محمد بدر الدين خليل



لا يا سيدى .. لم يذهب الخير بعد من الدنيا ، ولم تمت الضمائر !.. وتلك هى قصتى ، يؤكد كل سطر منها هذه الحقيقة

تفتحت عيناى على الحياة ، وأنا فى أحضان أم ساذجة ، جاهلة ، عاشت فى الاسكندرية اعواما طوالا ، وفى دار أحد الباشوات الأقدمين ، الذين أفلت نجومهم من سماء المجتمع ، فلاذوا بالعزلة ، يقضون ما بقى لهم من أعمـــار فى هدوء ، متوارين عن الأنظار .. ومع ذلك ، فان البيئة لم تســتطع أن تغير من الصبغة القروية التى فطرت عليها أمى ..

وتلفت حولى حين استيقظ عقلى أبحث عن أب ، فلم أجد لى أبا !.. وكان من الطبيعى ان اسائل أمى عنه .. ولكنها كانت تراوغ وتتهرب ، فاذا أثقلت عليها ، أجابتنى فى لهجة ما زلت أحار الى اليوم فى تفسيرها

ــ أبوك ؟! .. يا كبدى يا بنى .. انت سقطت من قعر القفة !

ــ يعنى ايه ؟

ــ يعنى مالكش أب !

★ ★ ★

وكنت لا أفقه ما ترمى اليه ، فى حداثتى . ولكننى حين بلغت الثامنة من عمرى ، شعرت أن وراء اجاباتها معـــانى أخرى .. غير أننى عبثا حاولت أن أغوص فى اغوار الكلمات بحثا عن تلك المعانى . **كان عقلى أصغر من ان يبدد الغموض الذى اكتنف اجابات أمى ، بيد أننى فهمت من عباراتها ولهجتها أن القدر قضى على بأن لا أعرف لى أبا !**

والحق اننى ما كنت اشعر بحاجة الى أب ، فقد كنت وأمى

سعيدين فى حياتنا .. كنا نعيش فى كنف « باشـــا » من باشوات الاسكندرية ، عملت هى فى صباها خادما فى داره ، ثم أشفق عليها ، فرفعها درجة فوق مستوى الخدم ، وأفرد لها غرفة خاصة ، فى ركن منزو من داره .. وأصبحت كجزء من اثاث الدار .. لا تكاد تعمل شيئا !

وكان الباشا يعطف عليها وعلى ، حتى لقد أرسلنى الى المدرسة ، وراح يرعانى عن بعد ، فلما نلت الشهادة الابتدائية ، كافأنى بأن الحقنى بالمدرسة الثانوية ..

* * *

وكنت قد بلغت اذ ذاك درجة من النضوج الذهنى ، جعلتنى أفكر فى موقفى وأمى من الباشا . **كان من المعقول أن يحنو رجل تقى ، كريم مثله ، على مسكينين مثلنا .. ولكن اهتمامه بتشجيعى على التعليم كان يشغل بالى ، ويستثير فضولى !**

وكان فى الواقع مثالا للطيبة والصلاح .. لم يعد له من هم فى الحياة سوى العناية بابنته الوحيدة « ست سلوى » التى كانت تصغرنى بستة أعوام .. فقد كانت هى كل دنياه !.. وكان له ولد من زوجته الأولى ، ولكنه نشأ فاسدا ، فما لبث ان ارتكب ذنبا لم أعرف كنهه ، وان علمت انه أغضب والده عليه ، فطرده من داره ، وحرمه من ميراثه .. وكان الولد ضعيف النفس ــ رغم أنه كان فى باكورة الشباب ، سن الطموح والأمل ــ فلم يقو على حياته الجديدة ، وانتحر !

وكانت الصدمة قاسية على أبيه ، ولكنه تحملها فى جلد .. وما لبث أن انجب من زوجته الثانية « ست سلوى » ، التى قدر لها أن تفقد أمها فى السنوات الأولى من عمرها ، فكرس الباشا لها حياته ، ووقف عليها عواطفه .. وعاش من أجلها !

وكانت السيدة الصغيرة حفية بى ، كريمة معى .. ولعل العطف الذى كان أبوها يسبغه على شخصى المتواضع ، جعلها

تخفض لى من جانبها بعض الشىء ، وتؤثرنى برضـــاها ..
وكانت أحيانا تولينى شرفا ـ كنت أراه كبيرا ـ اذ تسألنى أن أشرح لها بعض ما أغلق عليها فهمه من دروس ، فكنت افعل فى البداية متهيبا ، خشية ان يكون فى عملى ما يغضب الباشا .. على اننى ما لبثت ان تبينت رضاه ، فتوفرت على مساعدة « الست سلوى » فى تحمس ، وانا أشعر باننى أسد بعض ما للباشا من فضل على !

* * *

ومضت بى الحياة رضية ميسورة .. حتى اذا ماتت أمى ، لم استشعر قسوة الصدمة ، وان امضتنى مرارة الوحشة والوحدة .. ولشد ما تأثرت اذ رأيت الباشا يضاعف من رعايته لى بعد وفاتهـــا ، فأبى أن أبارح داره ، بل انه أمر فأفردت لى غرفة فى أقصى الطابق الخاص به وبابنته ..

وكان هذا التمادى منه فى العناية بى يضاعف من فضولى ، دون ان أصل الى ما يرضى ذهنى ويطمئن نفسى . ووجدتنى مرة أسائل « عم حسن افندى » ، ناظر عزبة البـاشـا ، فى احدى فترات اقامتنا بالعزبة .. فأجابنى فى اللهجة المشفقة التى اعتاد أن يحدثنى بها :

ـ ايه اللى يخليك تشغل بالك بشىء زى ده يا ابنى ؟ .. ده ربنا مقسم الرحمة على القلوب .. ومع ذلك ، كان يحب أنك تفهم أن بينك وبين الباشا قرابة بعيدة جدا ، انما الباشا بتاعنا راجل يعرف ربنا ، وما يتنكرش لأهله أو أصله ..

ووجدت فى هذا الجواب تعليلا معقولا ، خدر فضـــولى نوعا ما

* * *

وعندما نلت شهادة « البكالوريا » خلت اننى قد ظفرت

بأقصى المنى .. حتى اذا كنا أصيل ذات يوم ، استدعانى اليه .. وكان يجلس فى حديقة الدار التى كانت تشرف على منظر من أبدع مناظر رمل الاسكندرية .. واستقبلنى هاشا ، منفرج الأسارير ، وهو يقول :

ـ مبروك يا محمد « أفندى » !

وارتبكت وأنا أقبل يده ، فضحك قائلا :

ـ أمال .. انت دلوقت « افندى » رسمى !.. مبروك يا ابنى .. انا طلبت درجاتك ، وانبسطت لما لقيتك متقدم جدا .. وعلشان كده جبت لك الهدية البسيطة دى !

وأجفلت ، فقد كانت الهدية « البسيطة ! » ساعة يد ذهبية ! .. وعصانى لسانى ، وأجدب ذهنى ، فلم أهتد الى وسيلة لشكره ، سوى ان انكببت على يده أقبلها ، وقد جرت دموعى فياضة .. وسحب الباشا يده قائلا :

ـ استغفر الله يا ابنى .. استغفر الله ! .. لكن انت ناوى تعمل ايه بعد البكالوريا ؟



وأحرجت ، وقد تملكتنى حيرة مستبدة .. لا لشىء الا لأن المستقبل الذى كنت أرجوه ، كان أشبه بالمستحيلات .. **كانت آمالى جسيمة ، ولكن جسامتها كانت تتضاءل أمام الواقع .. فقد كنت أصبو الى الالتحاق بكلية الحقوق ، ولست أملك مليما من نفقاتها .. فضلا عن أن الاقامة فى القاهرة ـ اذ لم تكن فى الاسكندرية جامعة فى ذلك العهد ـ تتطلب نفقات ، لا أملك موارد لها !**

وعز على أن أطمع فى مزيد من رعاية الباشا ، فقلت :
ـ انا عشت لغاية النهارده فى خير سعادتك وعطفك .. وأعتقد انى بالبكالوريا أقدر الاقى عمل !
ولم يمهلنى حتى أتم حديثى ، بل صاح :
ـ عمل ؟! .. انت لازم مجنون !.. حد يبقى من الأوائل ، وله الحق فى انه يدخل الجامعة ، وما يفكرش فى استغلال الفرصة ؟!
وانسابت دموعى من جديد .. كانت فى أعماقى معركة حامية بين الطموح ، والشعور بالعجز عن تحقيق الآمال ، والاحساس بما فى معونة الباشا لى من ثقل وذلة .. ووجدتنى أقول :
ـ الواقع ان البكالوريا حاجة كبيرة قوى بالنسبة لمستوى طبقتى .. والتعليم العالى عاوز نفقات ..
فصاح مغضبا :
ـ نفقات ايه ؟ .. انت مالك ومال النفقات !
ولم يدعنى الباشا فى ذلك اليوم ، حتى صارحته بأننى كنت أرجو أن التحق بكلية الحقوق .. **فلم يمض شهر ، حتى كنت قد قبلت فى الكلية بفضل مسعاه ، وبما أحرزت فى «البكالوريا» من درجات عالية ..**

★ ★ ★

وبدأت دراستى العليا ، بين عوامل شتى تتقاذفنى كالكرة .. كنت سعيدا اذ اتخذت أهم خطوة جدية فى سبيل تحقيق آمالى .. فلقد كنت أشعر بضعة منبتى ، وكنت لا أعرف صاحب ذلك الاسم الذى سجل فى شهادة ميلادى على أنه أبى .. بل كنت لا أدرى ان كان ثمة شخص قد حمل ذلك الاسم يوما ! **وكانت أصداء كلمات أمى عن أبى توحى لى بأشياء كثيرة تزيد من مرارة شعورى بدناءة أصلى .. فكان هذا كله**

يحفزنى على ان اصبو لبلوغ ارقى المناصب ، كى انتقم للذل والصغار ! .. ولكننى كنت ــ فى الوقت ذاته ــ اتعذب ، اذ أعيش عالة على رجل غير مكلف بالانفاق على .. رجل غمرنى بفضله حتى لم أعد أطمع فى مزيد ، ومع ذلك فقد ظل ماضيا فى رعايته لى !

* * *

ومضيت فى دراستى كالسهم المارق .. وصدقنى اذا قلت لك أن للفقر والضعة حسنات تفوق كل مساوئهما .. ولعل أجل حسناتهما ان عذابهما يبعث فى النفس الطموح .. **كل فقير يرجو أن يسمو الى أعلى المراتب ، كى يطفى حاضره على ماضيه ، وكى يعوض نفسه عما عاناه من مرارة النشأة !**

وبدأت أحس بأننى أتطور الى آدمى ، ومخلوق له كيانه ووجوده ، يوم فزت بالليسانس .

ولكن هذا الاحساس تضاعف فى الصيف الذى تلا ذلك .. **كانت « ست سلوى » قد بلغت السابعة عشرة من عمرها ، فتفتحت أكمامها عن وردة رائعة الجمـــال .. فما لبثت أن شعرت بعاطفة غريبة تتسلل بين جوانحى خلسة ، دون وعى منى ، فتنمو فى صمت وتتطور !**

وجزعت اذ أدركت اننى أحب الفتاة .. أنا ؟! .. ابن الخادمة ، الذى أحاله فضل سيده الى انسان .. اتطلع الى ابنة سيدى ، صاحب هذا الفضل ؟! .. أنا الذى دفعه القدر الى الحياة دون أن يعرف له أبا ، أتطلع الى ابنـة الباشا ، العريقة النسب ، التى لولا خير أبيها على ، لما زدت عن خادم ، أقصى مطمع له أن يغدو « الشوفير » الذى يقود سيارتها ؟!

أجل يا سيدى .. أحببت مولاتى ! .. ولو اننى كنت خادما عاديا ، لجاز لى أن أتطلع اليها ، وأن أطمع فى أن انال جزاء لعاطفتى ، ولو فى ظل ابتسامة باهتة ، ترتسم على شفتيها

اذ تراني .. أما وقد كان أبوها ولي نعمتي ، فقد رأيت فى هذه العاطفة عقوقا .. بل غدرا للرجل الذى جعل منى انسانا !

★ ★ ★

ووجدتنى أنزوى عن الحياة فى دار الباشا ، وأتحاشى جهدى لقاءه ولقاء « ست سلوى » .. وفى الفترة التى سبقت التحاقى بمكتب أحد كبار محاميى الاسكندرية للتدريب ، رحت أقضى جل وقتى بعيدا عن الدار ، حتى اذا أبت اليها ، اعتكفت فى غرفتى ، أروض قلبى الجامح على أن ينطوى على العاطفة الطائشة .. وأحاول أن أقتله فى صدرى ، وأن الفه فى أكفان الكتمان !

ولكن « ست سلوى » كانت تهدم كل ما أقيم من استحكامات .. تحطمها فى جهل وسذاجة ، دون أن تدرى ما تفعل ، ولا عواقبه .. ووجدتنى أكاد أعجز عن كتمان العاطفة التى أنكرتها ، فعولت على أن أبعد عن الدار .. وعن حياة العزيزة التى دفعنى طيش قلبى الى حبها !



ووجدتنى ذات يوم فى مخدع الباشا ، استأذنه فى أن يسمح لى بأن أدبر لنفسى حياة خاصة ، مكتفيا بما نالنى طيلة العمر من فضله ونعمته ، وأن أقضى مدة التدريب فى مكتب أحد محاميى القاهرة ..

وكنا وحيدين .. ولم يعترضنى الباشا كعادته كلما حدثته عن افضاله ، بل ظل ينصت فى صمت ، وقد توالت على وجهه

شتى المشاعر .. حتى اذا فرغت ، ظل فترة واجما ، متجهما ، ثم قال فى صوت خافت :

ـ كده يا محمد ؟ .. بقى أنا كنت بأعدك علشان تحمى سلوى بعدى ..

وأجفلت ، ولكنه تجاهل وقال :

ـ كنت أرجو انى أجوزك سلوى ..

وارتجفت فى عنف .. وتطلع الى لحظة ، ثم أطرق وقد اختلجت أعصابه فى صراع مكتوم .. وصحت على الرغم منى :

ـ أنا ؟!

وتكلم .. كان صوته واهنا ، خافتا .. ولكن كل كلمة من كلماته ، دوت فى أذنى كقنبلة .. اذ قال :

ـ أظنك ما تعرفش ان كان لى ابن زيك .. كان تمام شكلك .. ولكنه ماكانش فى اجتهادك وطموحك .. كان فاسد!

واختنق صوته .. وتهدج صدره .. وعاد يقول بعد فترة :

ـ وفى يوم من الأيام ، دفعه الطيش الى الاعتداء على بنت خدامة فى البيت .. وكانت جريمته صدمة لى ، أنا الرجل اللى عاش العمر مستقيم ، تقى ، يعرف واجب ربنا ، ويصون سمعته أمام الناس .. وكنت يائس من اصلاحه ، فطردته من بيتى ، وتبرأت منه .. وأوشكت أن أطرد الخدامة ، لولا انى تبينت أنها مالهاش ذنب .. كانت ضحية .

وداخلنى قلق غريب ، بينما كان الباشا يلتقط أنفاسه فى صعوبة ، وما لبث أن استأنف الحديث قائلا :

ـ كانت أحق بالرثاء منى ، أنا اللى أصبت بالصدمة .. فأرسلتها للعزبة ، لغاية ما وضعت ثمرة الزلة فى سكون . وكنت أقدر أتخلص من الطفل وأمه ، لولا انى خفت ربنا ، ولولا ان ابنى انتحر فى الوقت ده .. فقررت انى أكفل الولد ، ودبرت خطتى بحيث انى وضعت اسم ابنى فى خانة الوالد فى

شهادة الميلاد ، بدون ما حد يفطن لغرضى ، أو أثير فضيحة ..

وتململت فى مقعدى وقد استبد بى القلق .. ولكنه مضى يقـول :

ـ واعتنيت بالولد ، وأنا عازم على اختبار نفسيته .. فان طلع زى أبوه ، اختصرت تعليمه ، وعينته فى أى عمل يكسب منه عيشه .. أما ان فلح ، فعاهدت نفسى انى أتم له تعليمه ، وأعلن نسبه ، وأعطيه نصيبه من ثروتى .. والحمد لله .. نجح الولد فى التجربة !

وشهقت مأخوذا .. كانت المفاجأة أكبر من أن أتحملها .. وهممت واقفا ، ولكننى ترنحت ، فتلقانى الباشـا الكهل فى أحضانه ، وراح يغرقنى بقبلاته ودموعه .

وأدركت سر الغموض الذى أحاط بأبى .. كنت حفيد الباشـا !

وهمس الباشا فى صوت متهدج :

ـ انت حققت كل آمالى .. وبقى أمل واحد .. تتجوز سـلوى !

وحملقت فيه مندهشا على الرغم منى ، وهتفت :

ـ عمتى ؟!

وألقى الباشا قنبلة جديدة حين قال :

ـ لا .. مراتى التانية كانت عاقر .. وكانت تحب الأولاد .. لذلك تبنت سلوى ، أثناء العامين اللى كنا قضيناهم فى لبنان .. أيام مرضى !.. كانت بنت شهور ، واستطعنا اننا ما نخليش حد يعرف انها مش بنتنا ، لما رجعنا ..

وتطلع الى فى رجاء . وكان قلبى يخفق فى عنف .. كانت كل الفرص سانحة كى أحقق أعز الأمانى التى خامرتنى .. لم أعد الخادم الذى يتطلع الى ابنة ولى نعمته .. بل أصبحت السيد الذى يتواضع فيتزوج ربيبة أبيه !

ولكن ضميرى وعقلى أسرعا يحجبان الاغراء عن عينى ..

فلقد أومضت فى ذهنى فكرة لا أدرى مأتاها فى تلك اللحظة ، وان كنت أرجح أن الحب النبيل الذى كتمته بين ضلوعى ، هو الذى أوحى الى بها .. كان لابد لتبرير هذا الزواج من اعلان الحقيقة .. اعلان اننى ثمرة الزلة ، واعلان أن سلوى ذات الصلف والكبرياء ، لقيطة متبناة !

وأقسم اننى لم أفكر فى الخزى الذى يصيبنى من جراء كشف سر مولدى ، قدر ما فكرت فى الصدمة التى تصيب سلوى !.. وعز على ان أقضى على كبريائها واعتزازها .. كنت أعرف أنها مرهفة الحس ، فخشيت عليها

ليس هذا فحسب .. بل انها اذا عرفت أصلها وأصلى ، فلن تلبث أن تستشعر الذلة والهوان ازائى ! .. صحيح أن كلانا كان ثمرة الخطيئة ، ولكننى كنت من صلب الباشا .. أما هى ؟

* * *

ولم اقو على المضى فى التفكير ، فقد تمثل أمامى الشقاء الذى لن يلبث أن يسود حياتنا اذا تزوجنا ، وأن ينغص عيشنا .

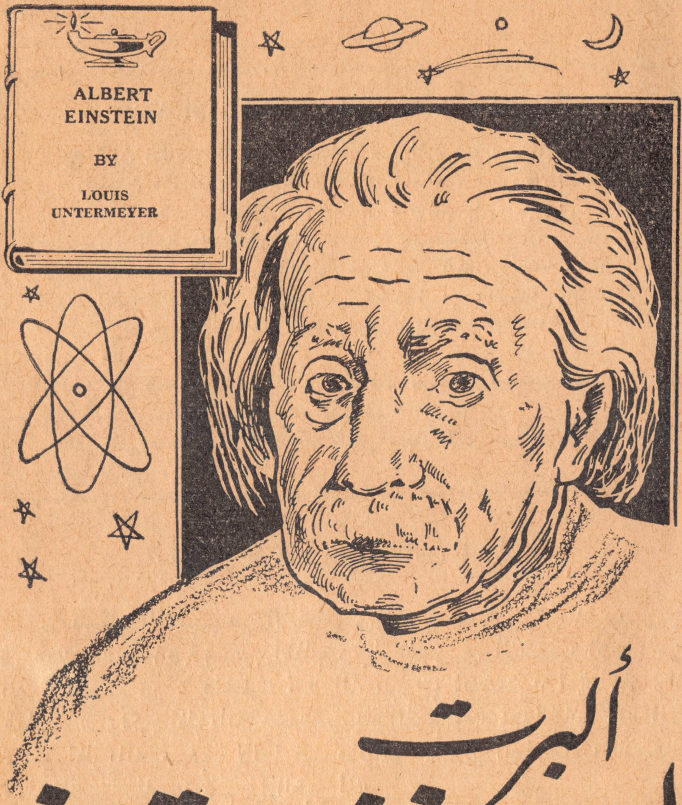
ووجدتنى أقول دون وعى :

ـ لا .. لا !

وتطلع الى الباشا مذهولا ! ولم أقو على احتمال النظرة الزاخرة بالألم فوجدتنى أصارحه بما جال بخاطرى ، ثم أعقب قائلا :

ـ سعادتك اديت واجبك نحوى .. ربتنى وجعلتنى رجل استطيع ان أواجه الحياة ، وأبنى لنفسى مركز وثروة يعوضونى عن كل ما فقدت .. وأنا أكتفى بده .. **خلى سلوى فى نعيمها وسعادتها .. مش ضرورى تعرف شىء .. وثق انى حافضل خادم لك ، وانى حاحميها بروحى وحياتى ! .. سعادتك ضحيت كثير ، فسيبنى أضحى أنا كمان ، علشان أكون جدير بالانتساب اليك !**

وظللت فى دار الباشا . وطويت قلبى على الحب التعس . . الحب الذى قدر له أن يدفن منذ مولده ، وأن تغير السبب . . كان مقدرا له أن يدفن ، لأنه جموح من قلب خادم تطلع الى مولاته . . ثم قدر له أن يظل دفينا لأنه كان سيقضى على سعادة الحبيبة . . ويفضحها ويفضحنى !



ألبرت إينشتين

العبقرى الذى وضع اساس القنبلة الذرّية ..
ثم تبرأ منها !

مجدته الانسانية .. فهل تلعنه يوما ما ؟!

● قارن الكاتب الايرلندى الساخر « برنارد شو » يوما بين نابليون و « اينشتين » ، فقال ان نابليون حاول بمساعدة جيش من الأعوان أن يبنى أمبراطوريات ، ففشل ، فى حين أن « اينشتين » نجح فى أن يبنى « الكون » بأسره .. بدون أعوان ! .. وكان يقصد بذلك أن « اينشتين » استطاع أن يحطم النظريات القديمة عن عناصر الكون ونظامه ، وأن يجلو أسرار الطبيعة ويكشف عن غوامض نظامها .. واستطاع بالمعادلات الرياضية أن يرشد الى اطلاق أعظم قوة فى تاريخ البشرية ، وهى « الطاقة الذرية » !

فمن هو ذلك الانسان الذى اعترفت بعبقريته ومجدته الانسانية جمعاء ، وقد تلعنه فى يوم ما .. لعنة عمياء ؟!

تعال معى نغص فى أعماق هذا العقل الجبار الذى حير الدنيا بجبروته وعظمة تفكيره !

« المخ » الذى وضع أساس الدمار !

• سئل الفيلسوف الانجليزى المعروف « برتراند رسل » فى مطلع عام ١٩٥١ عن أعظم رجل ظهر فى النصف الأول من القرن العشرين ، فأجاب : « انه ألبرت اينشتين ! » .. واذ قيل : « ولكن نظرياته مستعصية الفهم ! » ، وأجاب : « انما تبدو نظرياته صعبة لأنها غير مألوفة . ولو أنها لقنت للاطفال منذ الصغر لما حيرتهم فى الكبر ! »

وكان اينشتين نفسه يعترف بأن نظرية النسبية لم تلق — مذ نشرها وهو فى السادسة والعشرين من عمره — أكثر من اثنى عشر عقلا ذكيا يفهمها .. رغم ان تسعمائة كتاب وضعت فى شرحها !

وكانت نظرية النسبية أساس شهرة خلدت اسم «اينشتين» فى تاريخ العلم .. ولكن اينشتين لم يتربع على عرش هذه

الشهرة لينام ، بل ظل يقظا ، جادا ، لا يكف عن التفكير .. **وبعد أربعين عاما ، وقع حادث خلد اسم ((اينشتين)) فى تاريخ الانسانية بأسرها ، اذ ألقى سلاح الطيران الامريكى على جزيرة (هيروشيما) أول قنبلة ذرية ـ فى ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ ـ فاذا بثمانين ألف نسمة تروح ضحية التفكير الدقيق المنظم الذى كان عقل ((اينشتين)) لا يكف عنه !**

وفى سنة ١٩٥٥ ، حضر الموت « اينشتين » ، وقدر لمخه الجبار ان يتوقف عن العمل .. ولكنه قبل أن يتوقف ، كان قد وضع آخر معادلاته .. وكانت معادلة اتخذت شكل وصية وردت فى أحد بنودها رغبة « اينشتين » فى أن يسلم مخه ـ بعد وفاته ـ الى صديق له من الأطباء ، كى يتولى تشريحه ، عسى أن يجد فيه ما ينفع العلم والناس .. ولعلها كانت رغبة أبية من العالم الفذ ، أراد بها أن يصون مخه عن ان يدفن تحت التراب ، وأن تأكله ديدان العدم !

كان عييا ، بطىء التفكير .. فى صغره !

• **ولد** « اينشتين » فى (اولم) ـ وهى احدى المدن الصغرى فى (بافاريا) بألمانيا ـ فى ١٤ مارس سنة ١٨٧٩ ، لأسرة تعيش فى يسر ورخاء . فقد كان أبوه مهندسا ، يمتلك المصانع الهندسية الكهربائية الوحيدة فى المدينة . ولكن الظروف لم تلبث أن اضطرت الأسرة الى النزوح الى (ميلان) بايطاليا ، فى سنة ١٨٩٤ .. أى و « ألبرت » فى الخامسة عشرة من عمره .. على ان الفتى قضى معظم سنى صباه فى (ميونيخ) بألمانيا ، حيث تلقى دراساته الأولى

وكان «البرت اينشتين» فى صغره عازفا عن الروح العسكرية التى كانت تدب فى كيان المجتمع الألمانى ، فكان يؤثر على المنظمات العسكرية العزف على كمانه ، والانكباب على كتب

الفلسفة ، لاسيما تلك التى تدور حول العلوم الطبيعية والرياضية ، فلم يبلغ الخامسة عشرة حتى كان قد ألم بمؤلفات يوكليد – واضع اصول الهندسة – ونيوتن وسبينوزا .. **ومع ذلك فانه كان – اذا ما غادر عزلته المختارة – بطيئا ، خجولا ، عييا !.. وكان خجله وتهيبه يجعلانه بطىء التفكير فى الفصل ، مما أوحى الى اساتذته بأنه بليد الذهن ، وجعل أبويه يخشيان أن يكون الفشل نصيبه فى الحياة !**

واذ بلغ السابعة عشرة ، التحق بمدرسة الفنون الهندسية فى (زيوريخ) بسويسرا . ومع أن أباه كان يستحثه على ان يدرس حرفة هندسية – كالهندسة الكهربائية – الا أن الفتى كان تواقا الى ارتياد مجاهل دنيا العلم ، وهى دنيا تمتاز بالدقة والنظام ، على نقيض دنيا الأعمال التى تشيع فيها المنافسة المريرة والفوضى !.. وكان يردد لنفسه قول ايمرسون : **« ان الانسان الذى يصمد فى مناصرة الهامه ، لا يلبث أن يجد الدنيا تسعى اليه !»** .. وكان الهام « البرت اينشتين » يحفزه على التخصص فى العلوم الرياضية والطبيعية . وما لبث أن التحق بجامعة (زيوريخ) ليتبحر فى هذه العلوم ، بينما عمل كمدرس فى المدرسة العليا بالمدينة ، ثم بمدرسة (شافهاوزن)

النظرية التى احدثت أخطر انقلاب علمى فى التاريخ !

• **وعندما** بلغ الثانية والعشرين ، اكتسب الجنسية السويسرية ، وتزوج فتاة كانت من زميلاته فى الدراسة ، هى « ميليفا ماريك » ، التى تخصصت فى العلوم الرياضية وعملت فى ادارة تسجيل المخترعات ، فى (بيرن) . وكان «البرت اينشتين» اذ ذاك شابا مقبول الشكل ، خفيف الظل ، ذا شارب صغير أسود ، وشعر ناعم منسق دائما .. ولم يكن ثمة ما يسترعى الانتباه فيه سوى عينيه ، فقد كانتا تجمعان بين

وميض الذكاء وحب الكتمان .. وكانتا ــ فى الوقت ذاته ــ قلقتين ، تنمان عن نشاط وسرعة ادراك ومقدرة على تركيز الفكر !

وفى سنة ١٩٠٣ ، نشر اينشتين بحثا صغيرا فى خمس صفحات بعنوان : « نظرية النسبية الخاصة » ، ثم اتبعه بسبع صفحات أخرى ، وجعل العنوان : « نظرية النسبية العامة » . ولم يفطن أحد الى قيمة هذا البحث حتى سنة ١٩٠٥ ، عندما نشرت له احدى المجلات العلمية بحثا شغل ثلاثين صفحة ، بعنوان « القوى الكهربائية للاجسام المتحركة » .. ولم يتوقع أحد ــ ولا اينشتين نفسه ــ ان تكون لهذه الأبحاث قيمة كبرى ، وان القدر كان يعدها لتقلب كل ما كان العلم يؤمن به عن خواص المادة ، وعن بنيان الكون . حتى قيض لهذه الأبحاث أن تترجم فى سنة ١٩٢٠ ، فاذا بها تثير اهتمام علماء الطبيعة والرياضة . **ذلك لأن العالم الشاب ذهب الى أن القوانين التى تحكم المادة ــ كالأجسام ــ هى عينها التى تحكم القوى ، كالكهرباء والمغناطيسية .. أى أن المادة والقوة صورتان لشىء واحد ، ولكن العلاقة التى تربطهما ليست ثابتة ، فهى تتغير فى حالة الحركة . بل ان « الزمن » ذاته ليس بالشىء الثابت ، فان الفترة الزمنية تطول وتقصر تبعا لطبيعة الأجسام . فالساعة بالنسبة للنملة ، غيرها بالنسبة للرجل المسرع مثلا !..**
والخلاصة أن ثمة بعدا رابعا ، الى جانب الأبعاد الثلاثة المستخدمة فى قياس الأحجام ــ وهى : الطول والعرض والارتفاع ــ وذلك البعد الرابع هو : الحركة .. وهذا البعد شىء نسبى !

قوانين الطبيعة الخفية تتكشف لأينشتين !

• **ولقد** كان العلماء الذين خلفوا « نيوتن » يؤمنون بأن الحركة والسكون حالتان مطلقتان ، ويمكن قياسهما . ولكن

اينشتين بين ان الحركة والسكون حالتان نسبيتان ، يختلف قياسهما باختـــلاف الذين يراقبونهما .. وكذلك الطول ، والكتلة ، والزمن ـ وهى المقاييس الأساسية ـ ليست ثابتة ، بل هي نسبية

وليست المســـألة بالتى لم تخطر من قبل ببال .. فقد سبق للفيلسوف « هربرت سبنسر » ان عالج مسألة البحار الذى يسير غربا على ظهر سفينة متجهة شرقا بنفس السرعة . فهل يكون البحار متحركا أو ساكنا ؟ .. انه ، بالنسبة لأى فرد على سطح السفينة ، فى حركة ، بلا مراء . أما أى مراقب للسفينة من البر ، فلا يتمالك ان يحكم بأن الرجل فى سكون !.. فالحركة النسبية كانت موضوع بحث قبل عهد اينشتين ، ولكن العلماء كانوا يمنون بالفشل كلما حاولوا تطبيقها على حركة « الضوء » ، فكانوا يقنعون بأن يفترضوا وجود نقطة فى مكان ما من الكون ، تقيم فى سكون مطلق !

على أن هذا الافتراض غير العملى لم يكن الثغرة الأولى فى النظريات العلمية التى اطمأن اليها العلماء منذ عهد نيوتن ، بل كانت ثمة ثغرات أخرى كشف عنها العلم ، منها ما يتعلق بالجاذبية الأرضية ، ومنها ما يتعلق بتحول المادة الى قوة ـ اذ بين كورى وزوجته ان « الراديوم » يتحول دائما الى طاقة ، دون ما مورد يمكن رؤيتــه ـ كما اثبت « كوفمان » ان الاليكترونات التى تتحـــرك بسرعة ، أثقل من الاليكترونات الساكنة ، دون ما سبب ظاهر .. ولم ير اينشتين فى هذه الثغرات سوى أدلة على وجود قانون آخر للطبيعة !

يتبرأ من القنبلة الذرية !

• **ولقد** بين اينشتين ان الأحداث التى يبدو لأحد المراقبين

أنها تجرى معا ـ فى وقت واحد ـ قد لا تبدو كذلك لأى مراقب آخر .. فالأمر يتوقف على حركة كل من الأشياء والمراقب . فبندول الساعة يبدو للشخص المتحرك أقل سرعة منه للشخص الساكن .. ذلك لأن البعد والزمن مقترنان باستمرار ، ومن ثم جمعهما اينشتين فى وحدة واحدة هى « فترة الفضاء ـ الوقت » ـ وثبات هذه الفترة هو الأساس الذى يعلل نظام الكون ـ ثم اثبت ان انكماش الأطوال المتحركة بسرعة ، وما يبدو من تباطؤ بندول الساعة المتحرك بسرعة ، ظاهرتان تبينان أن الكتل المتحركة بسرعة أثقل من الكتل الساكنة . وقد ادى هذا الى العلاقة المتبادلة ـ المسلم بها الآن ـ بين المادة والطاقة . ففى قوانين نيوتن ان أى جسم متحرك اذا دفع ، زاد الدفع من سرعته ، وأصبحت الطاقة الدافعة طاقة محركة ، ومن ثم فان تكرار الدفع يزيد السرعة الى غير ما حد : **أما اينشتين فقد بين استحالة تفوق اى شىء على الضوء فى السرعة ، وان الكتل تزداد بازدياد السرعة ، وبالتالى فان الدفع لا يساهم فى ازدياد سرعة اى جسم ـ اذا ما اقتربت من سرعة الضوء ـ الا بنصيب جزئى .. أما بقية الطاقة المتولدة عن الدفع فتتجه الى زيادة الكتلة ..** ومن ثم فان ازدياد الكتلة يقعد بالجسم عن بلوغ سرعة الضوء .. وكانت عبقرية اينشتين تتمثل فى ان أثبت ضمنا ان الكتلة ـ وبالتالى كل مادة ـ ليست سوى طاقة مركزة . وخلص من أبحاثه الى معادلة تقرر أن : « **الطاقة الكامنة فى أى جسم تساوى كتلته مضروبة فى مربع سرعة الضوء الهائلة** » !

ومضى اينشتين فى تحليلاته : « ولكن ، اذا كان كل جرام من المادة يحتوى على هذه الطاقة الهائلة ، فلماذا لا نفطن الى هذه الطاقة ؟.. والجواب سهل ، هو : ليس من الممكن ملاحظة الطاقة مادام ان شيئا منها لا يتبدد خارج المادة » .. وكان هذا هو المفتاح الذى فتح له ـ وللعلم ـ الباب الى أهم

ميدان .. ميدان الطاقة الجبارة التى تتولد عن تفتت الذرة والاشعاع الذرى !.. ولقد وصل اينشتين الى هذه المعادلة فى نهاية رسالة قصيرة استغرقت اثنتى عشرة صفحة ، الا ان ٣٧٧٥ كتابا ألفت فى سبيل تبسيط هذه الصفحات القلائل !.. وكانت هذه المعادلة هى الأساس الذى انشئت عليه القنبلة الذرية !

على ان اينشتين ظل الى آخر عمره ينكر انه « أب الطاقة الذرية » ! .. وهو يقول فى كتاب : «أحرب ذرية أم سلام ؟» ، ان دوره كان غير مباشر ، فما كان ليتوقع ان تنطلق الطاقة الذرية فى حياته .. « لقد كنت أعتقد أن هذا غير ممكن الا من الناحية النظرية » .. **ومع ذلك فان اينشتين لعب دورا مزدوجا فى هذا المضمار .. دورا تمثل فى المعادلة ، كما تمثل فى رسالة كتبها – فى سنة ١٩٣٩ – الى الرئيس روزفلت ، يؤكد له فيها ان النازيين يعملون دائبين لانتاج القنبلة الذرية ، فما لم يسبقهم العالم الحر ، فمن المؤكد ان الانسانية ستسير الى هلاك محتوم !** وقد دفعت هذه الرسالة الرئيس روزفلت الى تنفيذ البرنامج الذى مكن أمريكا من ان تسبق ألمانيا الى انتاج هذه القنبلة

الخط المستقيم .. ليس أقصر الخطوط !

• **ولقد** كانت كل هذه الآثار ، على أهميتها وبعد مداها ، نتاج « نظرية النسبية الخاصة » – وهى أولى النظريات التى اخرجها اينشتين – و « نظرية النسبية العامة » ، التى نشرها فى سنة ١٩١٥ . وقد استمد من أحدث ما بلغته العلوم الرياضية مادة اضافها الى ما لديه من نتاج عبقريته الفنية الهندسية ، ثم خرج على الناس بما أسماه « مبدأ التعادل » ، وهى نظرية تؤكد انه لا توجد ثمة فوارق جوهرية بين قوة الجاذبية وقوة

زيادة السرعة .. على أن هذه الأخيرة ليست فى الواقع «قوة» ، وانما هى « تغير فى حالة الحركة » .. وكذلك يمكن اعتبار « الجاذبية » أيضا ، اذا تغيرت خواص الفضاء بالقرب من الأجسام الكبيرة . **وانتهى العالم من ذلك الى أن الخط المستقيم ـ الذى تعرفه الهندسة بأنه أقصر خط بين نقطتين معلومتين ـ ليس هو أقصر خط .. وانما أقصر خط هو « المنحنى » ! .. وأدى هذا الرأى الى انقلاب فى تقدير أبعاد الكواكب والأجرام السماوية** ، على ما سنراه فيما يلى

فقد استطرد اينشتين فى استنتاجاته : اذا كانت الجاذبية خاصة من خواص الفضاء ، وليست قوة ، فمعنى هذا ان الضوء كان يخضع للجاذبية الأرضية ، اى ان كل شعاع من الضوء يدخل نطاق الجاذبية الأرضية ينحرف ، أو «ينحنى» .. ولقد تلقى العلماء هذه النتيجة على أنها حقيقة نظرية ، ولكن اينشتين اقترح تجربة عملية ، وذلك بتصوير طريق شعاع صادر من أحد النجوم ، وهو يشق طريقه فى نطاق جاذبية الشمس . ولما كانت الشمس والنجوم لا ترى معا الا فى مناسبات الكسوف ، لذلك اقترح « تصوير النجوم التى تحف مباشرة بالوجه المعتم من الشمس أثناء الكسوف ، ثم تقارن الصور بصور أخرى للنجوم ذاتها تؤخذ فى غير وقت الكسوف » . وتبعا لنظريته ، فان ضوء النجوم المحيطة بالشمس ينحنى ـ اذا دخل نطاق جاذبية الشمس ـ نحو وجه الشمس ، ومن ثم تبدو تلك النجوم ـ للناظر من الأرض ـ وكأنها منحرفة الى أعلى عن أماكنها العادية فى السماء .. ومن هنا نفهم سر الانقلاب الذى حدث فى تقدير أبعاد الكواكب !

يتلقى المجد .. فى فتور !

• **وقد** أدت النتائج الباهرة التى اسفرت عنها هذه التجربة

ـ فى سنة ١٩١٩ ـ الى اعلاء شأن اينشتين ، واذاعة صيته .. ولكنه تلقى هذا المجد فى فتور ، قائلا : **((اننى اليوم ألقى من ألمانيا تكريما ـ بوصفي عالما ألمانيا ـ أما فى انجلترا فيكرموننى كيهودى أجنبى .. فاذا قدر لنظرياتى ان تنقض فى يوم ما ، فان الألمان سيلعوننى بوصفي يهوديا أجنبيا ، كما أن الانجليز سينفضون من حولى ويرموننى بأننى ألمانى !))**

وكان اينشتين اذ ذاك أستاذا لنظريات الطبيعة بالجامعة الألمانية ببراج ، فما لبث أن انتقل الى (برلين) ـ حيث كان عضوا بالأكاديمية البروسية ـ وكان زواجه الأول قد انتهى الى طلاق بعد ان أثمر طفلين .. على ان اينشتين عاد الى الزواج فى سنة ١٩١٧ ، مختارا فى هذه المرة ابنة عمه « ايلسا اينشتين » ، التى ظلت رفيقة حياته الى أن توفيت فى سنة ١٩٣٦

واذ بلغ الأربعين من عمره ، بدأ يتنقل بين البلدان ، فزار انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة والصين واليابان وفلسطين

يدافع عن السلام .. ويتبرع بجائز نوبل للفقراء !

• **وعلى** الرغم من أن اينشتين كان ينفر من الأفكار السياسية ، الا انه كان دائما ضد استخدام العنف . بل لعل من أغرب المتناقضات حقا ، ان هذا الرجل الذى فتح الطريق الى « القنبلة الذرية » كان محبا للسلام ، ونصيرا للفقراء .. **وقد بلغ من حبه للخير أن تبرع بالمكافأة المالية ـ عندما نال جائزة نوبل ـ لأعمال البر . كما بلغ به النفور من الطغيان ان وقف فى وجه النازية حين بدأت تفرض سياسة العنف فى ألمانيا ، فلما استولت على الحكم ، اضطر اينشتين الى ان يهجر وطنه ، ووصمته الحكومة النازية بأنه ((عدو للشعب)) .** ولجأ العالم المشرد الى امريكا ، فمنح منصبا لمدى العمر فى

معهد برينستون . وما لبث أن اكتسب الجنسية الأمريكية فى سنة ١٩٤٠ .

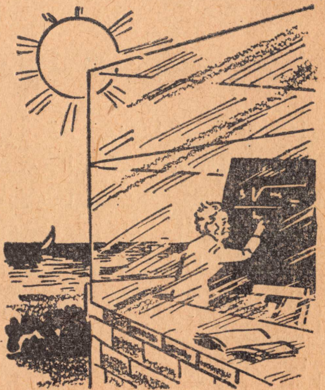
وأعرب اينشتين عن تحمسه لروح السلام لدى الانسان ، فى مجموعة من المقالات والكتيبات ، جمعت فى كتابين عنواناهما : « الدنيا كما أراها » ، و « على هامش حياتى الحاضرة » . وقد اثبت اينشتين ان له فى الأدب باعا لا يقل عما له فى العلوم . فقد كتب فى سنة ١٩٣٧ عن « التداعى الخلقى » فقال : « علينا ان ندرك اليوم — ونحن فى جزع — ان أعمدة الوجود البشرى المتحضر قد فقدت متانتها . فمن الأمم التى كانت يوما فى ذروة المجد ، ما ينحنى أمام الطغاة الذين يؤكدون علنا : « ان الحق هو الذى يسخر فى خدمتنا ! » . ولم يعد طلب الحقيقة من أجل ذاتها أمرا يقابل بالاحتمال والتسامح .. **وأصبح الظلم ، واضطهاد الأفراد والعقائد والطوائف كلها ، يمارس فى تلك الأمم ويقبل على انه أمر عادل أو محتوم ! ..** فحذار من ان نحجم عن الكفاح عندما لا يكون منه بد لصون حق الانسان وكرامته ! »

« عابد الشمس » الذى آمن بارتباط الدين بالعلم والفن !

• **ومع** أن نظريتيه عن النسبية قد أحدثتا ثورة فى العلم تفوق اية ثورة أخرى ، الا ان اينشتين لم يكف عن البحث وراء أدق مظاهر نظام الكون .. ذلك لأن اينشتين كان مشغوفا بجمال الطبيعة الى درجة لا تصدق ، وكان دائما يرى ان ما يبدو من تعقد الكون والطبيعة انما يرجع الى جهلنا بهما .. فالطبيعة نظام ، والنظام بساطة . وقد سعى اينشتين الى كشف كنه هذا النظام ، ومن هنا توصل الى نظريتى النسبية ! .. وتتمثل فلسفة العلم عنده فى ان التناسق أو الانسجام هو الهدف النهائى للعلم وللفن . ويعتقد معظم الناس أن العلم

والفن متناقضان ، ولكن اينشتين كان يؤكد ان الموسيقى كثيرا ما ساعدته فى عمله . **كذلك هو يصفع دعاة المذهب المادى — الذين ينكرون وجود الله — فقد كان يؤمن بأن الدين مرتبط بالعلم والفن رباطا وثيقا . فالعالم الحق والفنان الصادق يقفان اجلالا امام جمال الخالق ممثلا فى الطبيعة والمخلوقات ! ..**
ولما كانت قيمة الانسان تتمثل فى أنه جزء من الكون الغامض ، لذلك فان من واجب الانسان ان يسعى لجلاء علاقته بغايات الطبيعة لأن فى ذلك تعبيرا عن نفسه .. فالكون ميدان موحد للفن والعلم والدين ، وأبدع ما فى هذا الميدان هو غموضه ، ومن ثم كان هذا الغموض مورد الهام للعلم والفن والدين !

وكان معارف اينشتين يلمسون آثار فلسفته هذه فى حياته . فقد كانت خير أفكاره وآرائه توافيه حين يخرج الى الهواء الطلق وينطلق بين مناظر الطبيعة . **ويقول الصحفى الامريكى « اميل لنجيل » ان اينشتين كان يسمى نفسه « عابد الشمس » ، وانه حرص على ان يكون بيته ذا شرفة واسعة وحديقة غناء ، كما جعل غرفة مكتبه من الزجاج .. كل ذلك لكى تتجلى الطبيعة والضوء امام ناظريه على الدوام !**



.. ولم يكن فى غرفة مكتبه سوى مكتب من الخشب الابيض — أى غير المطلى — وثلاث لوحات تمثل : نيوتن ، ومكسويل ، وفاراداى .. ثم كمنجة كانت أحب زميل له ، وكان يسرى عن ذهنه التعب بان يعزف عليها ألحان القرن الثامن عشر الكلاسيكية !

يقضى ١٦ سنة فى التأكد من معادلة الذرة !

• **واذا** كان اينشتين قد اعتقد فى نفسه أن الكون ميدان موحد للفن والعلم والدين ، فانه نقل كذلك فكرة « الميدان الموحد » الى العلم . ففى سنة ١٩٥٠ أضاف ملحقا الى الطبعة الثالثة من كتابه « معنى النسبية » ، كان خلاصة ابحاث دامت خمسا وثلاثين سنة ، سعيا وراء مبدأ موحد مبسط .. وهذا المبدأ هو ما ضمنه « نظرية الميدان الموحد » التى تخضع جميع ظواهر واشكال الخلق لمبدأ واحد مبسط : فقسم الكتل المادية الى ٩٢ عنصرا ، وقسم العناصر الى جزيئات دقيقة .. كما «بسط» القوى الطبيعية ، فجمعها فى عدد قليل من « ميادين القوى » .. بينما جمع أشكال الاشعاع ـ من ضوء وحرارة واليهما ـ فوصفها بأنها موجات كهربائية مغناطيسية تتفاوت فى الطول والذبذبة .. ولكن مؤلفاته التى سبقت ذلك كانت قد ذهبت فى التبسيط الى ابعد من هذا ، اذ اثبتت ان المادة ليست سوى طاقة غير مطلقة ، وان المادة والطاقة ليستا سوى مظهرين مختلفين لوحدة كونية مفردة !

على ان اينشتين لم يقنع بذلك ، فقد كان يسعى وراء البساطة المطلقة .. كان يسعى الى ان يثبت ان الكون كله استمرار لشيء واحد .. انه ارتفاع وانخفاض مجرى أو جدول لا ينتهى قط ! وفى سبيل اثبات هذا ، لم يكن يكتفى بالتأمل والمنطق والخيال ، وانما كان يلجأ الى الوسيلة التى كان يؤمن بأنها مفتاح أسرار الكون .. الى المعادلات الرياضية . وقد قضى فى التأكد من صحة المعادلة الرياضية التى تحكم الذرة ، ست عشرة سنة !.. كما أن البحث عن « المجهول » فى هذه المعادلة ـ وهو الرمز الذى كان يمثل سر الكون كله ـ استغرق منه ستا وعشرين سنة !

وما ان شارف اينشتين الخامسة والسبعين من سنى

حياته ، حتى كان موضع تكريم العالم بأسره . وكان مجرد حضوره مأدبة ــ ذات مرة ــ كافيا لجمع عـــدة ملايين من الدولارات ، اكتتب بها الحضور لانشاء كلية للطب .. وقدظل رغم كهولته ورغم الارهاق الذى عاناه فكره خلال هذه الحياة الحافلة ، محتفظا بحيوية جسمه وقوة عقله

يزدرى الشهرة ، والثروة ، والرفاهية !

• **ولكن** .. كيف كان اينشتين فى حياته الخاصة ؟

يقول الصحفى « أميل لنجيل » انه زار اينشتين فى برلين ــ فى سنة ١٩٣٠ ــ ثم خرج معه لبعض أمرهما ، فشاء اينشتين ان يعرجا فى طريقهما على محطة السكك الحديدية ، ليحجز لنفسه مكانا فى قطار الليل الذى كان ذاهبا الى (جنيف) . ولكنه تبين ان النقود التى كانت معه لا تكفى ، فأكمل له الصحفى المبلغ ، بأن أقرضه ما يعادل دولارا . وما أن عاد الاثنان الى بيت اينشتين ، حتى انهمك العالم الكبير فى عملية حسابية حاول أن يعـــرف بهـــا مقدار ما دفعه لنجيل . وما لبث أن رد اليه ما يعادل دولارا ونصف دولار ، فلما نبهه الصحفى الى انه لم يكن مدينا بأكثر من دولار ، قال اينشتين : « أرأيت كيف اننى ضعيف فى الحساب ؟! »

ويقول « ديل كارنيجى » ان اينشتين لم يكن يشعر بغير الازدراء للامور التى يهفو اليها معظم الناس ، وهى : الشهرة ، والثروة ، والرفاهية . ويضرب لذلك مثلا بأن اينشتين كان مسافرا مرة على احدى السفن الكبرى ، فقدم له الربان أفخم جناح على السفينة ، ولكن العالم الكبير أبى الا ان يشغل قمرة عادية !.. كذلك يروى « كارنيجى » ان زوجة اينشتين كانت تشكو دائما من ان الرجل الذى عرف بالتفكير المنظم ، كان يحطم كل نظام فى حياته الخاصة ، فكان يعمل كل ما يشعر برغبة فى عمله ، ومتى شاء ان يعمله ، دون مراعاة لشىء ..



وكان يتبع فى حياته الخاصة قاعدتين اثنتين .. الأولى : لا تتبع أية قاعدة .. والثانية : لا تحفل بآراء الغير فيك !

أما ابنه هانس البرت اينشتين فيقول أن العالم الكبير لم يكن يحفل بأية تسلية او لعبة ، عدا الالغاز الحسابية والجبرية والهندسية .. ويستطرد قائلا : « ولست أذكر أنه شاهد يوما سباقا للخيل ، أو مباراة للكرة ، ولكنه يحب التنزه على سطح الماء ، ويجيد قيادة اليخوت . وأحب ألوان الرياضة اليه : المشى على القدمين . ولكنه يكره تسلق المرتفعات ، بل ان مجرد رؤية الجبال تضايقه ، لأنه يخالها وشيكة الانقضاض عليه !.. وهو يدخن الغليون « البايب » ، ويقرأ كثيرا .. ويحب ــ الى جانب العلوم ــ التاريخ ، وسير الأشخاص ، والمقالات الأدبية . كما انه مشغوف بالصور الفنية الدقيقة ، ولكنه لا يجمعها » !

وكان نهجه فى عمله : « الصبر .. الصبر والعزم ، يؤازرهما انشراح الصدر ، وقسط من عدم الاكتراث بأهمية استمرار المرء على قيد الوجود .. اننا ــ معشر العلماء ــ لن نبدل قلوب غيرنا من الرجال بالأساليب الميكانيكية ، وانما بأن نبدل قلوبنا نحن ، وبأن نلتزم الجرأة اذا ما تكلمنا !.. **يجب أن نكون أسخياء فى منح الدنيا ما لدينا من معرفة بقوى الطبيعة ، بعد أن نقيم الضمانات التى تحول دون اساءة استخدام هذه القوى . ويجب أن ندرك اننا لا نملك ان نضع المشروعات للحرب وللسلام فى آن واحد !.. ومتى طهرنا القلب والعقل ،**

فسوف نجد ـ عندئذ فقط ـ الشجاعة التى تمكننا من ان نتغلب على الخوف الذى يلاحق الدنيا » !

وفى سن السادسة والسبعين ، أصيب اينشتين بمرض مفاجىء لم يمهله .. فلفظ آخر أنفاسه فى ١٨ أبريل سنة ١٩٥٥ . وقد قدم ـ حتى فى موته ـ دليلا جديدا على صحة نظرية « النسبية » .. اذ اثبت أن الموت أمر نسبى : فمن الأحياء من يعتبر فى عداد الموتى ، ومن الموتى من هم فى عداد الأحياء .. وقد كان اينشتين من هؤلاء !


THE GENIUS
& THE GODDESS
BY
ALDOUS HUXLEY
عبادة..
للروائى العالمى "الدوس هكسلى"

نفوس .. تحت مبضع الكاتب !

◆ ان المرأة قد تسمو بنفسها عن صغائر البشر ونواحى ضعفهم ، حتى تصل الى مراتب القداسة .. ولكنها ما ان تفطن مرة — ولو للحظة خاطفة — الى أنها من البشر ، حتى تهوى من علياء قداستها !.. هذه هى الحقيقة المريرة — فيما يتعلق بالنفس البشرية ، ونفس الأنثى بالذات — التى يعالجها الكاتب العالمى الذائع الصيت « ألدوس هكسلى » ، فى القصة التى أقدمها لك فيما يلى ، فى تحليل رائع ، يبلغ ذروة روعته حين يكشف لنا عن مجاهل نفس الأنثى فى طور المراهقة ، ونفسها فى طور النضوج .. وحين يكشف لنا عن مجاهل نفس الرجل العبقرى ، والشاب الساذج !

فتعال نطلع على هذا النوع الجديد من الأدب :

◆ **قال** جون ريفرز : « ان العيب فى القصص الخيالى ، انه يعنى كثيرا بحكم العقل ، وبالحبكة والأسلوب .. أما « الواقع » فلا يحفل بشىء من هذا ، بل ان الأصل فيه هو عدم ارتباطه بخير ما يمكن ان يخطر بالبال أو ما يقال ! ومن العجيب حقا ، ان أقرب القصص الى الواقعية ، هى تلك التى يظن انها أقلها حظا من الحقيقة ، فى حين ان أبعدها عن الواقعية هى الأنواع العلمية من القصص ، لاسيما ما يدور منها حول سير الأشخاص وحياتهم .. وهاك أحدث نماذجها ! »

ودفع الى بكتاب عن « حياة هنرى مارتنز » ، فتذكرت ان صديقى قد تتلمذ على هذا العالم .. لذلك قدرت رأيه حين أكد لى ان الكتاب كان اغراقا فى الخيال المنمق ، المزوف .. لا لأنه اشتمل على أكاذيب ، وانما لأن الحقائق التى تألفت منها حياة « مارتنز » لم تكن من البساطة كما صورها الكتاب ليعلى من قدر الرجل ، ولأن وراء الحقائق الظاهرة للملأ — فى

حياة أى عظيم ــ حقائق أخرى متوارية !.. واستطرد جون قائلا : « انك لا تستطيع ــ فى الواقع ــ أن تظفر بخير ما فى هذه الدنيا ، ما لم تتعلم خلال ذلك كيف تحظى بخير ما فى الحياة الأخرى .. **وما أجمل ان تستمتع بالحياة ، حتى وانت فى النزع الأخير !.. ان الموت فن ، وخليق بمن فى سننا أن يتعلمه .. فانك لن تعرف كيف تموت ما لم تكن قد عرفت كيف تعيش ، لأنك بهذا تموت على دفعات يومية ، أى تستمتع بكل يوم من عمرك ! »**

ودفع الى بصورة قديمة ، وهو يقول : « ها نحن جميعا : هنرى وكيتى والطفلان وأنا » .. وكان « الكبار » الثلاثة يقفون امام دار خلوية من الخشب : رجل ضئيل الجسم نحيله ، ذو شعر ابيض وانف كالمنقار .. وشاب جميل ــ هو صديقى ــ عملاق .. وبينهما حسناء فاتنة ، ذات شعر أشقر وثغر ضاحك وصدر ناهد وجسم قوى متين .. وعند أقدامهم جلس غلام فى التاسعة أو العاشرة ، وفتاة تجاوزت العاشرة ولكنها لم تبلغ الخامسة عشرة

وهتفت : « ما أكبر سنه ! .. انه من الشيخوخة بحيث كان يمكن ان يكون جدا لطفليه ! » . فقال جون : « وما اقربه الى الطفولة ! كان فى السادسة والخمسين أشبه بطفل من أبناء كيتى !.. كان يعيش عليها ، ومن ثم فانها كانت أمومة مجسدة !» فتأملت الصورة ثانية وقلت : « لقد نسيت انك كنت مفرط الجمال .. صورة صادقة لآلهة الأغريق ! »

ــ ولكننى كنت أيضا نتاجا لم يهذب ، لتربية تدعو الى الرثاء !.. كنت ابن قس لوثرى ، وكنت العزاء الأوحد ــ منذ بلغت الثانية عشرة ــ لأم ترملت .. ولم يكن للعزاء الأوحد سوى ان يكون كما ارادته أمه : ابنا مثاليا ، وتلميذا لامعا لا يكل عن احراز التفوق ، وتكسب الدرجات العلمية !

ــ وهل تركتك الفتيات تتجاهلهن ، وانت على ذلك الجمال ؟

– هل انبأتك أمك ان أروع هدية يقدمها رجل لعروسه هي .. عفته .. بكارته ؟!.. هكذا علمتني أمي ، وهي جاثية خلال صلاة كانت مستغرقة فيها . وكنت آخذ كل ما تقوله – وهي تناجي ربها – بايمان وتقديس ، لاسيما اذا كان متعلقا بالموضوع المحرم ذكره .. ومن ثم ظللت حتى الثامنة والعشرين من عمري محتفظا لعروسي بهذه الهدية الموهومة !

وتحول يذكر لي كيف رشحه أستاذ له – عقب تخرجه – ليعمل مساعدا لهنري مارتنز ، الذي كان عاكفا على الأبحاث الذرية في (سانت لويس) .. وكيف أنه سافر الى هناك ، وسعى الى بيت هذا العالم ، وهو كالتلميذ الذي استدعى لمقابلة ناظر المدرسة ، فهو موجس متخوف .. اذ كان الرجل قد دعاه – في خطاب التعيين – لأن ينزل ضيفا عليه ، ريثما يجد مسكنا ملائما ، فخشي أن يكشف ، في الجو المثقف الراقي الذي تصوره مسيطرا على الدار ، عن خجل وغباء وذوق ريفي فج !

ولكن ما ان فتح الباب ، وتأملته « بيولاه » الخادمة ، حتى وقع من نفسها موقعا حسنا ، فاستقبلته كما لو كان ابنا عزيزا آب من غربة . فلما ولج صادفه منظر عجيب .. **فقد رأى على أريكة رجلا أشيب ، في قميص مفتوح ، وقد بدا وكأنه يحتضر .. وبجواره امرأة بارعة الجمال ، مستغرقة في القراءة .. وعلى الأرض طفل أحمر الشعر يلعب ، وفتاة في الرابعة عشرة – ذات ساقين طويلتين سوداوين – وقد انبطحت على بطنها تنظم أبياتا شعرية ..** وقبل ان يتم تقديم نفسه للحسناء الفاتنة ، نهضت وأسرعت الى النافذة ، حيث كان الشيخ قد سبقها وانحنى كما لو كان قد أصيب بلكمة في بطنه ، وانبعثت منه حشرجة وكأنه كان يموت .. وراح يكافح من أجل الهواء ، وهو يكاد يختنق !.. وبينما كانت السيدة تعنى بالشيخ المريض بالربو ، ظلت الفتاة روث

منصرفة الى أشعارها . وكانت تنظم قصيدة حزينة ، اذ لم تلبث أن سألت « جون » عن كلمة تنتظم فى القافية مع كلمة « قبر » !

* * *

• **هكذا** كان أول لقاء بين جون ريفرز وآل مارتنز .. على أنه لم يلبث ان ألفهم ، وألف الربو الذى كان يعذب « هنرى مارتنز » ، والذى تركه ـ مع ذلك ـ يعيش حتى سن السابعة والثمانين !.. وأصبح عضوا فى الأسرة التى كانت تتألف من العالم الشيخ ، وزوجته « كيتى » ، وابنتهما « روث » ، وابنهما « تيمى » ، والخادمة « بيولاه » .. وبعد ان كان ضيفا عليهم ، استقر به المقام بينهم

واستطرد صديقى يقول : « ولم أشعر بأننى سعيد فحسب ، بل أصبحت أيضا طيب النفس متدينا بدرجة لا عهد لى بها .. كان ثمة تجدد دائم للروح فى تلك الدار !.. ومع الايمان والأمل انبعث نبع دافق من حب الخير . كما اننى أحببت هنرى ، فقد كان عظيما ، وكان العمل معه بمثابة سمو بذكائك وبصيرتك الى مستوى رفيع . بل اننى أحببته أيضا خارج العمل ، اذ عمر قلبى من الخير ما كان كافيا لأن يحملنى على أن أحب تمساحا أو اخطبوطا !.. **لقد عرفت فى تلك الأيام معنى كلمة « حب » للمرة الأولى** .. وكنت حين أكتب لأمى ، لا أخفى عنها الحقيقة ، ولكننى كنت أتعمد أن أطفىء بريقها ، وان أشوه محاسنها .. فقد كانت الحقيقة خليقة بأن تؤلمها ، لاننى لم أكن قد عرفت السعادة ، أو حب الناس ، أو الايثار ، الا يوم تركت بيتنا وجئت لأعيش مع هؤلاء القوم !.. **ذلك لأن أمى كانت فى حبها لى تأبى الا ان تستحوذ على ، وكنت أنا آبى أن أكون مملوكا لها .. وكانت هى وحيدة وقد فقدت كل شىء ، وكنت أنا سعيدا بأن أصبح لى أصدقاء .. وكانت هى متقشفة**

مفرطة فى التدين ، فى حين اننى انغمست فى حياة هؤلاء القوم المتحررة من فروض الدين

« كانت حياتى الجديدة شاعرية ، حتى حين كنت أقل هنرى فى سيارتى العتيقة الى المعمل ، و « كيتى » الى السوق ، وتيمى الى المحطة ، وروث الى الحقول فى الربيع لتلتقط الديدان ويرقات الفراشات . فقد كانت هذه الحشرات أقرب الأشياء الى « ادجار ألان بو » .. اذ كانت روث تعشق مؤلفات « بو » ، وترى معه ان الحياة مأساة للانسان بطلتها الدودة المظفرة .. كانت تحب كل شيء فيه رائحة الموت ، لاسيما اذا كان مشوبا بعنف وانهيار وفناء !.. فالموت من الأشياء التى تثير شهية الأطفال ، لأنهم يجدون فيه انفعالا جديدا يهز عواطفهم .. لا ، بل انهم يحتاجون اليه ــ كما يحتاجون الى سواه ــ ليضفوا شكلا معينا على المثيرات التى تهز عواطفهم بالفعل . ألا تذكر مشاعرك وانت طفل ازاء لذة القشدة وبشاعة زيت الخروع ، والعذاب المتولد عن اضطرارك لأن تقف لكى تتلو الدرس من الذاكرة أمام الفصل الدراسى كله ؟ .. ان عقلك يكون ــ فى طفولتك ــ محلولا مشبعا من المشاعر ، تسبح فيه المثيرات دون ان تتبلور او ترسب ، فهى دائما فى حالة مبهمة ، بحيث يتعذر تحديدها أو تعيينها !.. **وقد تكون هذه المثيرات العاطفية عوامل خارجية ، كما انها قد تكون ــ فى ظروف أخرى ــ من صنع خيالك . فأنت قد تشتهى ما يهز عواطفك ، فاذا بك تصطنع لنفسك عامدا ما يثيرها !.. والخوف ، من الهوايات الفظيعة فى هذا المجال !**

« وهكذا كانت روث ، ولكنها كانت ذات تربية متحررة . حدث ذات ليلة ــ من ليالى أول ربيع قضيته مع آل مارتنز ــ ان خرجنا معا بعد العشاء ، نجوس الخلاء ونتأمل الكواكب .. وكان ثمة تل خلف البيت ، تتكشف لك من فوقه أكبر رقعة من الأفق .. ووجدتنى أحدثها عن أبعاد النجوم ، وأسوق فى

حديثى الحقائق العلمية والأرقام . واذا بالذعر مما وراء الطبيعة — من المبهم والمجهول — يتولاها وهى تسمع عن الأبعاد الشاسعة التى تفصلنا عن النجوم ، والعوالم المتناثرة فى الفضاء خارج عالمنا .. وكانت خلف التل غابة ، انبعث منها صياح قنبرة ، فاذا الفزع من الطبيعة ينقلب الى فزع مادى ، ولكنه غيبى فى الوقت ذاته ، اذ داخله ما هو شائع من تشاؤم من القنابر ، ومن أن صياحها كثيرا ما يكون نذيرا بالموت ! .. **وكانت الفتاة تعرف ان هذه خرافات باطلة ، ولكن خيالها جعلها تفكر وتتصرف كما لو كانت هذه الخرافة حقيقة !..** وتشبثت بذراعى وأسنانها تصطك ، فشرعنا نهبط التل ، وانا أستدرجها الى الغابة .. وما لبثت ان سألتنى : « هل قرأت قصة : انهيار بيت أوشر ؟ »

« وتركتها تروى لى هذه القصة الرهيبة التى كتبها « ادجار ألان بو » ، عن أخ واخته كانا يعيشان وحيدين فى قصر موحش ، معتم ، رهيب .. وكانا مريضين بعلة عصبية غامضة ، فكانت الأخت تصاب أحيانا بنوبات من الصرع

« وكنا نسعى الى الغابة المظلمة و « روث » تروى كيف ان الرجل وجد اخته يوما ميتة ، فواراها تابوتا من الخشب ، ووضعها فى سرداب تحت القصر .. وكنا قد دخلنا الغابة ، تحت الأشجار المتعانقة ، وكأننا فى سرداب ، فاذا بخيال «بو» يتحول الى صورة فى لباس الحقيقة !.. والفتاة ماضية فى القصة : ففى ذات ليلة ، سمع الرجل صوت ارتطام مدو .. وفى اللحظة التالية ، رأى اخته لدى الباب ، وقد لطخ الدم قميصها الأبيض ، فهى لم تكن قد ماتت — فى الواقع — ومن ثم لم تلبث أن أفاقت وراحت تناضل للخلاص من تابوتها .. وأخذت تترنح ، ثم اطلقت صرخة مروعة ، وهوت فوق أخيها ، فصرخ بدوره !

« وفى تلك اللحظة سمعنا جلبة فى ظلمات الغابة ، فصرخت

روث وشدت على ذراعى ، ثم أخفت وجهها فى ثنايا كمى .. وارتفع صوت كالخوار ، وجلبة حوافر تجرى ، فصرخت روث ثانية ، وكادت تهوى لولا ان أسندتها .. كان ثمة جواد هائم ، تحالف مع قصة « بو » ، مما أدى الى تبلور بعض المثيرات العاطفية فى ذهن الفتاة !.. وقضيت أكثر من نصف ساعة ، حتى سريت عنها . وفى اليوم التالى ، كانت قد استردت طبيعتها المرحة ، وبدت كالطائر .. ولكنه طائر قرأ « بو » ، وشغف بالديدان ويرقات الفراشات ، ومن ثم خرجنا فى الصباح ، ننقب عن اليرقات فى أرض الغابة ، وروث تردد ماكتبه «بو» عن الديدان والموت . وما لبثت ان انطلقت تعدو ، فرحت أعدو خلفها ، ولكننى لم ألحق بها . وعندما رأيتها بعد ذلك ، كانت تقف على كثيب ، وقد راح الهواء يداعب شعرها ، بينما كانت تصعر له خدها وهى مغمضة العينين ، وعلى فمها ابتسامة كتلك التى ترسم على شفاه الملائكة ، وقد أخذت شفتاها تتحركان .. ورحت أناديها ، دون ان تسمعنى . وفجأة ، تبدلت أساريرها ، وندت منها صرخة خافتة ، ثم أقبلت تجرى — اذ رأتنى — وهتفت : «جون ! لكم يسرنى أنك هنا !.. لقد خيل الى ..» . وضحكت ، ثم قالت : **« خيل الى اننى رحلت .. الى حيث لا أدرى .. كأنما هذه الرياح قد بددت كل شىء حولى ، فلم يبق سواها .. سوى الرياح ، والشعور بأننى على قيد الحياة ، وأننى لو تركت نفسى فلن أكف عن الجرى ، وسوف أجتاز الجبال ، وأعبر المحيط ، ثم أهوى فى احدى الثغرات المعتمة التى تتمثل فى الفراغ الذى يتخلل النجوم ! »** .. ثم ارتجفت وهى تتساءل : « أفتحسبنى كنت أموت ؟ .. او اننى كنت أروح فى غيبوبة فيظنوننى ميتة ، ثم أفيق داخل التابوت ؟ » .. وفى اليوم التالى ، اطلعتنى على قصيدة ، تحولت فيها أهوال الليل ونشوات الصباح ، الى مجرد ظلمات وقبور .. الا ما ابعد الهوة بين التأثر العاطفى وبين التعبير ! »

* * *

• **وصمت** جون ريفرز لحظات ، ثم شرع يحدثنى عن النشوة التى أخذ يحس بها أثناء عمله مع « هنرى مارتنز » فى المعمل .. كانت لآلىء الحكمة تنساب خلال أحاديثه عن النظريات العلمية .. كان يتغنى بأهازيج الحب للاليكترونات والذرة !.. واستطرد صديقى يقول : « لقد كنا فى سنة ١٩٢١ فئة ضئيل عددها ، من العلماء الأبرياء ، يستمتعون بهواية علمية طاهرة نقية ، وهم يعكفون على الأبحاث المتعلقة بالذرة .. وكنت ـ اذا انتهينا من لهونا فى المعمل ـ أقل هنرى فى سيارتى الى البيت ، حيث أجد ملاهى جديدة : مساعدة « تيمى » فى استيعاب « جدول الضرب » ، او معاونة روث على التنقيب عن كلمات لقوافيها الشعرية ، او الاستماع الى أحاديث كيتى ، او تعليقات بيولاه .. فاذا ما أوى الطفلان الى مضجعيهما ، وهنرى الى مكتبه ، نعمت بأعذب متعة .. بالجلوس مع كيتى !.. كان الورق ـ الذى يكسو جدران الحجرة ـ ورديا مغبرا ، وغطاء المصباح أحمر يعكس وميضا من لونه على وجهها ، وهى تعكف على ترتيق الجوارب ، ولكن هذا اللون لم يكن يبلغ يديها اللتين كانتا تتحركان فى خفة .. **وما كان أجملهما من يدين قويتين تحملان كل أنعم الله ! .. كذلك كان جسدها شابا ، مفعما بالقوة ، ووجهها وجه فلاحة موفورة الصحة .. لا ، بل وجه الهة أو ربة تنكرت فى شكل فتاة فلاحة**



موفورة الصحة !.. ربة لأنوثة ليس فيها اى خطر ، ولا اى الهام بالجنس أو شعور به !

« وكنت أقرأ لها بعض الروايات ، او أقضى السهرة أجاذبها أطراف الحديث . وقد روت لى عن طفولتها ، وعن ثلاثة شبان أحبوها فى صباها ، فلما بلغت التاسعة عشرة ، خطبت الى أكثرهم غنى ، وأشدهم عيا وتلعثما اذا تكلم !.. وقبيل الزفاف بأيام ، جاء هنرى مارتنز الى (سان فرانسيسكو) ، وسمعته يحاضر فى فلسفة العلم ، ثم تعرفت اليه فى سهرة لتكريمه .. وكان اذ ذاك فى السادسة والثلاثين ، غير جميل الشكل ، وحديث عهد بطلاق زوجته الأولى .. وكانت امرأة مسكينة ، لم تحتمل اداء الدور الذى ارادها على ان تقوم به .. **دور العشيقة لعاشق نهم مسعور لا يكل ولا يتعب ، ومديرة الأعمال لمالى تائه العقل ، وسكرتيرة لنابغة ! وبعد مرتين من الحمل الفاشل ، منيت بانهيار عصبى ..** وكان الطلاق ، ثم مضى النابغة التائه العقل المعقد النفس المسعور الجنس يبحث عن امرأة قادرة على الاضطلاع بمطالبه .. فلما رأى كيتى أمامه ، تعمد ان ينتحى بها جانبا ، ونسى كل من كانوا فى الحفل ، وراح يتحدث اليها .. ومن الطبيعى ان كيتى لم تفقه كلمة من حديثه ، ولكن نبوغه وعبقريته خلبا لبها . وان هى الا أيام قلائل ، حتى أصرت على فسخ خطبتها ، لتتزوج من أستاذ نصف مخبول ، لا يملك سوى مرتبه ، وقد طلق زوجته الأولى ، وبلغ من العمر ما كان يرشحه لأن يكون أبا لكيتى !.. ولكنها لم تندم قط على ان ضحت بخطيبها الشاب المليونير .. بل وبكل أسباب النعيم والرفاهية ، من أجل نابغة كثير العيوب : فقد كان هنرى - فى بعض الظروف - أكثر عيا من خطيبها الغنى ، وكان غبيا فيما يتعلق بالروابط الانسانية ، كما كان « حمارا » فى الشئون العملية للحياة .. كان - أحيانا - لا يطاق ، ولكنها كانت تراه دائما أهلا لما أقدمت عليه من تضحية ! »

كان هنرى زوجا لا يطاق .. وكان صديقى جون ريفرز شابا خلقت منه أمه الجاهلة المتهوسة فى تقواها ، كتلة صماء لا تطاق .. ومع ذلك فقد تدله فى حب كيتى !.. وقلت « ومع ذلك فلم يكن بوسعك ان تقول لها .. (بم) ! » .. فقال : « لم يكن ليخطر ببالى ان أقول لها شيئا ، فقد كانت زوجة هنرى ، فضلا عن أننى كنت عضو شرف فى أسرة مارتنز ، مما جعلها أما فخرية لى ! .. **ثم ان المسألة لم تكن مسألة اخلاق ، وانما أحببت كيتى حبا فيه تقديس ورهبنة ، كحب دانتى لبياتريس ، مع فارق واحد ، هو اننى كنت مخلصا صادقا فى عاطفتى .. كنت أعيش حقا فى مثلى العليا .. فلم تكن فى حياتى عشيقات او مومسات كأولئك اللائى كان دانتى يجد فيهن ملاذا تمس به الحاجة اليه !** .. ما أغرب ذلك ، من شاب مثلى فى ذلك الحين ، فقد كنت أمتلك من الطاقة والحياة عشرة أمثال ما امتلكت فى أى وقت عادى .. وكان كل شىء يبدو فى عينى جميلا ، زاهيا ، مشرقا ، الى درجة لا يصدقها العقل ! .. ولكن ، لنعد الى كيتى ! »

★ ★ ★

• **وبعد** صمت قصير ، استأنف جون حديثه قائلا : « دام ذلك خمسة عشر شهرا تقريبا ، تخللتها عشرة أسابيع عدت فيها الى أمى المسكينة ، فكأنها كانت فترة نفى وحرمان ! لم أفتقد خلالها كيتى وحدها ، بل اننى كنت أشعر بشوق الى كل فرد وكل شىء فى وطنى الجديد .. وأية سعادة داخلتنى حين عدت الى فردوسى فى سبتمبر !.. وانقضى الخريف ، وتلاه الشتاء . وفى مطلع الربيع التالى ، وردت برقية من (شيكاغو) بأن أم كيتى أصيبت بالتهاب فى الكليتين .. ولم تكن « السلفا » أو « البنسلين » قد عرفت اذ ذاك . فرحلت كيتى وتركت طفليها ، بل أطفالها الثلاثة ــ اذا حسبنا هنرى بين الأطفال ــ

لرعايتى ورعاية بيولاه !

« ولم يكبدنا تيمى عناء ، ولكن روث بدأت تظهر انحرافا عجيبا ، اذ تحررت من كل قيد . وفى اليوم التالى لرحيل أمها ، اشترت بمدخراتها ادوات للزينة من نوع رخيص ، وبدت كغوانى بابل فى غابر الأزمان .. وكانت قد هجرت « بو » وأقبلت على اشعار « سوينبيرن » و « أوسكار وايلد » . **وتحولت الى شاعرة من لون جديد ، تبحث عن كلمات جديدة لقوافيها : الخطيئة العذبة ، الرغبـة ، زهور الاثم .. وكل ما توحيه المراهقة !.. فلقد بدأت تتفتح كالبرعم ، وبرز لها ثديان صغيران لطيفان تحملهما على صدرها فى اعتزاز ، وكأنهما حليتان ثمينتان ولكنهما خطرتان .. بل كأنهما منبع يفيض بالزهو الممتزج بالحياء والغبطة والاحسـاس بالاثم !..** انك تزيف الحقائق اذا لم تورد الظواهر البدينة التى تقترن بالانفعالات العاطفية . وسواء أكان الحب عاطفة أو شهوة ، وسواء أكان حنانا أو اعجابا أو حنينا خياليا ، فانه يكون مصحوبا دائما باضطرابات تنتاب الأعصاب والجلد والأغشـية المخاطية والغدد !.. ألم أذكر لك ان فى نفس كل طفل محلولا مشبعا بالانفعالات العاطفية ؟.. فكلما وقعت فيه كلمات وأحداث أخذ يترسب ويؤلف كتلا وبلورات من الأحاسيس والانفعالات .. ففى حالة الفتاة المراهقة ، تبدأ الغدد فى الاضطراب ، ويظهر ذلكما النتوءان اللذان تختال بهما الفتاة فى زهو وارتباك ، أعنى الثديين اللذين تشع حلمتاهما حسـاسية تسرى فى الجلد والأعصاب الى النفس والعقل الباطن ، فالعقل السـامى ، فالروح .. وهذه العناصر النفسية الحسية تبعث حركة فى السائل المشبع بالانفعالات العاطفية ، فيتدفق فى اتجاه معين ، نحو منطقة « الحب » التى لا تزال مجهولة فى أعماق الفتاة ، لم يسبق ارتيادها .. وفى هذا الجدول الدافق ، تسـقط المصادفات عناصر تساعد على تبلور سائله ، وتتمثل فى كلمات

وأحداث ، ونزوات وذكريات . ولقد قدر لروث ان تنتقل من جو « بو » الى جو « اوسكار وايلد » ، فى الوقت الذى اعترتها التطورات البدنية الجديدة ، فدفعها هذا اللون من الأدب ـ الذى كانت « سالومى » نموذجا له ـ الى ان تلطخ شفتيها باللون الأحمر ، والى ان تضمخ كيانها بعطر من البنفسج الصناعى .. والى ان تهيم بحب صناعى ايضا .. فقد أغرت نفسها على الايمان بأنها مغرقة فى حب مشبوب .. معى أنا ، من بين الناس جميعا ! »

* * *

• **وهنا** سألت صديقى : « أو لم يكن بوسعها اختيار فتى يقربها سنا ؟ »

ـ لقد حاولت وأخفقت .. اذ علمت من بيولاه أن الفتاة ابنة الخمسة عشر ربيعا ، أحبت فتى رياضيا ، مبرزا فى مدرستها ، فى السابعة عشرة من عمره . ولكن العامين اللذين كانا يفصلان بينهما يعتبران ـ فى تلك المرحلة من العمر ـ هوة لا سبيل الى اجتيازها .. فكان البطل يبحث لعواطفه عن فتيات أكثر نضوجا من الفتاة النحيلة ، المعروقة ، التى لم تتجاوز الخامسة عشرة .. **ومن هنا اتجهت روث الى .. حبى ! اذ لم يكن فى وسعها أن تحب تلميذا آخر بعد أن صدها البطل فى جفاء وخشونة أمام الجميع .. وكانت الحقائق الطبيعية الجديدة ، واللون الجديد من الأدب ، يدفعانها الى الحب دفعا ، فلم تجد بدا من أن تحبنى أنا !..** وكنت قد لاحظت الأعراض قبل سفر كيتى بأسابيع : تضرج الوجه ، والصمت ، وبوادر الغيرة التى كانت تتجلى عليها لأننى كنت أوثر رفقة الأم على رفقة الصبية !.. ولاحظتها أيضا فى قصائد الحب التى بدأت تنظمها وتعرضها على ، والتى كانت تقض راحة بالى وتربكنى . وفكرت حينا فى أن أفاتح كيتى فى الأمر ، ولكننى وجدت ان

الأجدى ان أصمت ، على أمل ان تنجاب نوبة النزق . ورحت أتظاهر بأننى لم أكن أرى فى القصائد سوى ألوان من الانتاج الأدبى .. **ولكن غياب كيتى أعفى روث من القيود التى كانت تكبحها ، فاذا بها فى اليوم التالى تظهر مخضبة معطرة كأنها مومس !..** ولم تكن المرآة وحدها هى التى نبهتها الى ما صارت اليه ، بل أن الرأى العام كله نبهها كذلك : زميلاتها ، ومدرساتها ، ثم .. بيولاه الخادمة ، التى راحت تؤنبها فى عنف ، حتى اذا اشتد الجدل ، احتكمتا الى ، فلم أجد بدا من أن أقول الحق ، وأن أؤيد الخادم العجوز فى أن كيتى لن تعفى روث من « علقة ساخنة » اذا ما وجدتها على هذه الحال عند عودتها . وساد الصمت برهة طويلة ، ثم هتفت الصبية : « اننى أمقتك ! » .. وانسابت دموعها ، فأذابت الأصباغ على وجهها .. وصاحت : « لعنة الله عليك ! » ، ثم هرعت الى حجرتها ! .. **وكان هذا هو السبب فى أن « العاشقة الكبيرة » لم تحفل بهدف عاطفتها المتأججة خلال الأسبوعين الأولين !**

« وفى اليوم الرابع من تحرر هنرى ، غافلنا وذهب الى حفلة « كوكتيل » ، وكان بطبيعته لا يحتمل الخمر ، ولكنه أراد أن يثأر لنفسه من الكبح الذى كانت كيتى تفرضه عليه لهذا السبب .. ففى غياب القط يلعب الفأر ! .. وعند الكأس الثالثة ، ثمل العالم الجليل وبدأ يهذى .. وبعد الكأس الرابعة، هرع الى الحمام فأفرغ ما كان فى جوفه . ثم أصر على أن يعود سيرا على قدميه ، ففقد فى الطريق حافظة أوراقه ، وكانت بها الفصول الثلاثة الأولى من كتاب جديد كان عاكفا على تأليفه .. وردت اليه هذه الخسارة صوابه ، فقضى أياما فى هدوء ورصانة . ثم جاء نبأ بأن كيتى لن تلبث أن تعود قريبا ، اذ كانت صحة أمها فى تدهور ، حتى بات من المتوقع أن تموت . ولكن كيتى أبت أن تفقد الأمل ، فدعت طبيبا شابا لامعا راح يصارع الموت الذى كان يريد الاستحواذ على العجوز ، حتى

صده .. وعندما كتبت لنا كيتى عن هذا الانتصار ، اغتبط الجميع ، عدا هنرى ! .. كان يترقب موت الأم ، ليسترد السكرتيرة الأم العشيقة ! .. ولكن تدخل الطبيب الشاب أقصى الموت ، وفرض فترة طويلة للنقاهة ، استدعت بقاء كيتى الى جوار أمها .. وأدت خيبة هنرى الى عدة نوبات من الربو . وانقضى أسبوع آخر كان شعور هنرى بالحرمان يتحول خلاله الى ألم يزداد يوما بعد يوم ، فاذا به يثور ويصف حماته بأقذع النعوت ، ويتهمها بأنها كانت تتعمد استبقاء ابنتها بعيدا عنه !

★ ★ ★

• « **وانقضى** يومان آخران ، ثم وصل خطاب من كيتى تعلن فيه تقدم صحة المريضة ، وتوقع عودتها هى بعد أيام ، فاذا هنرى ينقلب الى أب ظريف وادع أشاع فى البيت جوا مرحا . وفى اليوم الثالث ، صعد الصغيران الى مخدعيهما فى الساعة التاسعة مساء ، وراح هنرى يداعبهما ، واذا برنين جرس التليفون ينبعث فى الحاح ، فهتف هنرى : « ان لدى الهاما بأن هذا النداء من شيكاغو ، فان الأم ستعود غدا » .. وكنا فى مخدع روث ، فهرع هابطا السلم . واذ هممت بأن أتبعه ، أمسكت روث بيدى ، وتلاشت أمارات القلق ، لتحل محلها ابتسامة اعجاب ، وانفرجت شفتاها ، واتسعت عيناها وأومضتا .. وكأنما تذكرت فجأة اننى كنت عبدها والوحش المنتظر أن يستبد بها ، ومن ثم آثرت أن تقوم بدور مزدوج : دور الغانية الشديدة الاغواء ، ودور الضحية المستعدة للفداء ! .. كأنما تذكرت ذلك ، وتذكرت أن الفرصة قد تفلت اذا ما جاءت أمها ، فضغطت يدى ، وتساءلت : « **أتحبنى ياجون ؟** » .. **فقلت فى مرح وتلطف : « بالطبع » . فعادت تتساءل : « قدر ما تحب أمى ؟!** » .. **فقاومت الغضب وقلت: « ياللسؤال ! .. اننى أحب أمك كما يحب المرء الكبار ،**

وأحبك ... » ، فاكملت هى عبارتى بمرارة : « كما يحب المرء الصغار ! » .. ورمقتنى بنظرة غاضبة ، وسادنا صمت محرج ممض ، ثم قلت وانا اسحب يدى برفق : « عمى مساء ! » .. وانحنيت لأطبع القبلة التقليدية على جبينها ، واذا بها تطوق عنقى فجأة ، فلم أعد أقبل الطفلة ، وانما أصبحت الطفلة هى التى تقبلنى .. **على الخد أولا ، ثم على الركن القريب اليها من فمى ، فصحت : « روث ! » ، ولكنها عادت تطبع على شفتى قبلة عنيفة !**

« وتخلصت منها بعنف وصحت فى غضب وذعر : « لماذا فعلت هـذا ؟ » .. فتضرج وجهها ، وأومضت عينـاها ، وهمست : « أحبك ! » ، ثم دفنت وجهها فى الوسادة . فقلت فى حزم : « هذه آخر مرة آتى فيها لأحييك فى المساء ! » .. وهممت بالخروج ، فاذا بها تقفز من فراشها وتهرع حافية ، ثم تهتف فى ضراعة ، وقد بدت فى عينيها ذلة بدلا من الاغراء « آسفه .. سأفعل كل ما تقول ! » .. وبادرت انا الى حجرتى فمحوت آثار طلاء شفتيها الأحمر عن وجهى ، ثم أسرعت الى هنرى . فما ان رأيت وجهه ، حتى بهت ، اذ بدا كما لو كان قد شاخ فجأة ، واكتسى بشحوب الموت ، وتجلى فى عينيه وحول فمه ألم لا يطاق ، فهتفت قلقا : « ما الأنباء ؟ .. هل من سوء ؟ » . فهز رأسه دون أن يتكلم . وما لبث ازاء الحاحى أن قال بصوت أجوف : « كانت المحادثة التليفونية من كيتى » . فسألته عن أمها ، ولكنه أشاح عنى ، وسـار الى المخدع ، فتبعته .. وكانت تلك أول مرة ألج فيها مخدع الزوجين ، فكان أول ما استرعى انتباهى ــ ودهشتى ــ سرير عجيب ، كبير ، بل هائل الحجم .. وكان التليفون الذى حمل اليه منذ دقائق نبأ الحرمان من زوجته ، قائما الى جوار هذا السرير الذى يعتبر رمزا للسعادة الزوجية . **ولكن ، لا .. ان « السعادة الزوجية » تنطوى على معنى العلاقة المتبادلة ، أما كيتى فلم**

تكن – فى اعتبار هنرى – شخصا ، وانما كانت قوته .. غذاءه الحيوى ، وكان فى غيابها أشبه ببقرة حرمت من الحشائش !
وفى غمرة الألم والثورة ، راح يتكلم ، فاذا كلامه يخرجنى من جنة الحمقى التى كنت أرتع فيها ، ويصدم براءتى وطهارة فكرى .. فقد راح يتهم زوجته بأنها ولا بد عشقت الطبيب الذى أنقذ أمها .. وانجاب عنى الذعر ليخلفه شعور من الاستنكار : كيف جرؤ على أن يتهم كيتى – التى كنت أعتبرها أطهر ملاك ! – بمثل هذه القحة ؟ .. ولكنه ظل سادرا فى هذيانه عن زوجته وعشيقها المزعوم . ثم أخذ يصور علاقتهما على ضوء شهوانيته الحسية .. فقد كان الكون – فى نظره – عبارة عن بحر من الافكار الفلسفية والعلمية ، تغرق فى جوفه كتلة ضئيلة من الخبرة بالحياة ، يتألف أغلبها من مادة جنسية ! .. كان يعيش فى عالم يتألف من عنصرين اثنين : النظريات العلمية ، والجنس والألم ، فلم يكن يفطن الى شىء غير هذين العنصرين .. حتى انسانيته لم يكن يفطن اليها .. كان يلم تماما بأفكاره ونظرياته العلمية ، كما كان يدرك تماما أحاسيسه الجنسية ، ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن الرجل الذى اجتمعت فيه هذه الأحاسيس وتلك المعرفة ! .. ومن ثم فانه لم يحاول – عندما صدم بامتداد حرمانه من زوجته – أن يفكر فى مشاعره على ضوء العلاقات بالناس ، وانما وجد نفسه موزعا بين الحب والشك .. تماما كأى حيوان ، أو أى انسان ناقص ! ..
ولم يحفل بأنه كان يكشف عن أدق وأقدس أسرار مخدع الزوجية أمام شاب ساذج تقى مشدوه ، فراح – فى عنفوان هياجه – يتحدث عن العلاقات الجنسية الزوجية ، والاشباع الجنسى . وكان يربط حديثه بزوجته ، ويسكب هذه الفظائع فى أذنى الشاب الذى أحبها كما كان دانتى يحب بياتريس ! »

* * *

• **وسكت** جون ريفرز لحظة ، ثم ضحك وقال : « لن

تصدقني اذا قلت اننى حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف شيئا عن حقيقة ما يجرى بين الأزواج والزوجات ! بينما راح العبقرى المهتاج يتحدث عن أشياء هى أبعد ما تكون عن معاييرى الخلقية والأدبية ، ويصف ما كان يدور بينه وبين كيتى ــ معبودتى ــ فى سرير الزوجية ، ويرسم ما كان خياله يوحى اليه بأنه كان يجرى فى (شيكاغو) بين زوجته والطبيب الشاب ! .. ثم ، وفجأة ، أخفى وجهه وشرع يبكى !

« وأسلمته الى فراشه ، وتعللت بالذهاب لاحضار كوب من اللبن الدافىء له ، ثم غادرت الغرفة .. وكانت بيولاه فى المطبخ تصلى ، فلما انبأتها بأن الدكتور مارتنز كان متوعكا ، ظلت تتمتم بصلواتها طويلا ، ثم تنهدت وقالت : **«خال ، مجرد ، مزوق !»** .. ومع أنها كلمات غريبة بالنسبة لرجل احتوى رأسه أكثر مما تحتوى رؤوس ستة من المثقفين العاديين ، الا أن الكلمات كانت أدق وصف لهنرى المسكين .. كان خاليا من الايمان بالله ، مجردا من الرجولة العادية ، ومزوقا كشجرة عيد الميلاد ــ بالأفكار البراقة ! .. وقد تملكته سبعة شياطين أخرى ألعن من الغباء والشهوة !

« واذ عدت اليه باللبن ، وجدته واقفا امام باب خزانة صغيرة مدفونة فى الحائط ، وهو يمسك بصورة نصفية لكيتى فى ثوب الزفاف .. وأوشك قلبى أن يكف عن الوجيب عندما رأيته يخرج من الخزانة جسما أسود .. مسدسا !.. وخيل الى انه قد ينتحر ، أو قد يرحل الى شيكاغو فيقتل زوجته والطبيب ، فسرت اليه ، وأمسكت بالمسدس .. ولم يقاوم ، فدسست المسدس فى جيبى ، ثم أعدت الى الخزانة ما كان قد اخرجه منها ــ وبينها الاجزاء الستة التى تألف منها كتاب « دراسات نفسية فى الجنس » ــ وعلقت الصورة فى مكانها .. وبعد نصف ساعة ، غادرت المخدع وقد غشينى الارتياح كشخص نجا من كابوس رهيب !

« وكان أول ما وقع عليه بصرى فى غرفتى ، ورقتين سجلت عليهما روث قصيدة من الشعر عن حب اعترفت به صاحبته فقوبل من المحبوب بازدراء !

« وعندما هبطت من مخدعى فى الصباح ، وجدت الطفلين متأهبين للذهاب الى مدرستيهما ، فأنبأتهما بأن أمهما ستطيل من غيابها . ثم أخرجت قصيدة روث فوضعتها امامها ـ على مائدة الفطور ـ وقلت : « انها بذيئة ! » .. ودون أن أنظر اليها ، سعيت الى مخدع هنرى ، فاذا به منهوك القوى ، وقد ارتفعت درجة حرارته حتى تجاوزت الأربعين . وهرعت الى بيولاه ، فهزت رأسها وقالت : « لسوف يضطرها الى الحضور !» . وروت لى كيف ان كيتى سافرت الى فرنسا ـ منذ عامين ـ لتزور قبر أخيها الذى استشهد فى الحرب ، فلم يمض شهر على سفرها حتى مرض هنرى مرضا اضطروا معه الى الابراق لزوجته ، فأسرعت بالعودة . **وكان موشكا على الموت عند وصولها . فما أن وضعت يدها على جبينه حتى فعلت به فعل السحر ، فلم تنقض ثلاثة أيام حتى كان معافى ! .. كان يدعى المرض ، ولكنه ذهب فى ادعائه الى درجة المرض الحقيقى الذى استفحل وكاد يقضى عليه !**

« واستدعيت الطبيب .. ولكن الحال استفحلت فى المساء .. واتصلت تليفونيا بكيتى . وكان ذلك فى يوم الاثنين ، وفى يوم الثلاثاء اضطررنا الى مساعدته بالاوكسيجين ـ اذ أصيب بالتهاب رئوى حاد ـ والى استئجار ممرضة والى اقصاء الصغيرين عن البيت .. وفى يوم الأربعاء اشتد المرض ، فاتصلت بكيتى ، ولكن أمها كانت تحتضر .. وازدادت حال هنرى سوءا .. واعتكفت بيولاه فى غرفتها تصلى ، ثم جاءت تقول ان الحى أفضل من الميت ، واذا كانت أم كيتى تحتضر ، فان فى حضور كيتى انقاذا لحياة زوجها . واتصل الطبيب فى المساء بكيتى فأقنعها بالحضور .. وفى المساء التالى أقبلت ،

فاذا بمنظرها يجعلنى أجمد فى مكانى .. فما كان أشد شحوب وجهها ، وما كان أقسى الانهاك الذى تجلى على أساريرها ! .. ولكنها كانت أجمل مما عرفتها فى أى يوم .. **ووجدتنى أحبها كما لم أحبها من قبل .. أحبها بوجد خلا من آخر آثار الشوائب التى خلفها كلام زوجها عنها ، فتولتنى رغبة مشبوبة فى أن اساعدها ، وأحميها ، وأضع حياتى فى خدمتها !** .. وعانقتها بيولاه ، ثم راحت تتأمل الوجه الذى تركت عليه الدموع آثارا واضحة ، وهتفت : « ولكنك .. لست أنت . هذا شبحك ولا ريب .. انك تغيرت أكثر مما تغير هو ! .. لقد فارقتك حيويتك ! » .. وتعللت كيتى بأن الأسابيع الثلاثة التى قضتها الى جوار سرير أمها قد استنفدت كل قواها ، ثم اصرت على أن ترى المريض ، عسى أن يفعل فيه وجودها ما فعل فى المرة السابقة . ولكن بيولاه هتفت : **« لقد كانت لديك حيوية فى تلك المرة ، أما الآن .. فأنت مجرد شبح ! »** .. على أن كيتى لم تحفل ، بل سعت الى سرير هنرى .. وكان راقدا تحت الرئة الصناعية التى تمده بالأوكسيجين . وراحت تناديه ، فرفع اليها أخيرا عينيه ، دون أن يبدو عليه انه عرفها ، ثم عاد الى غيبوبته .. واذ ذاك ، بارحت الحجرة مهدودة القوى ، واوت الى فراشها ! »

★ ★ ★

• **وعاد** صديقى يستأنف حديثه : « وهكذا لم تفلح التجربة ، فان المعجزة كانت تتطلب ملاكا قادرا على الكفاح ، أما كيتى فان حيويتها كانت قد نضبت .. ومع ذلك فانها كانت مضطرة الى أن تمضى فى انفاق الجهد .. كانت تقتل نفسها بالضنى الذى راحت تتكبده ! .. ومرت ثلاثة أيام ، أو أربعة .. ثم جاء يوم لن أنساه قط : ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٣ .. وكان يوم عيد ميلادى .. لا عيد ميلاد جسدى ، وانما عيد

ميلادى الروحى .. اليوم الذى خرجت فيه من غفلتى الى صورة قريبة الشبه من الآدمية ! يا له من يوم كان حافلا بالأحزان ، اذ كان هنرى قد قضى ليلة سيئة ، كما ان شقيقة كيتى اتصلت بها تليفونيا وانبأتها بأن أمها كانت تحتضر .. وكنت مقيدا بمحاضرة علمية فى مساء ذلك اليوم ، فلم أعد الى البيت الا فى الساعة الحادية عشرة — وكانت كيتى قد أوت الى حجرتها محزونة — فأويت لفورى الى فراشى

« وبعد ساعتين ، استيقظت مجفلا على يد مستنى . وكانت الغرفة ترزح تحت ظلمات مدلهمة ، ولكن خياشيمى اشتمت لفورها عبير الأنوثة ، فاستويت جالسا وأنا أهتف موجسا : «مسز مارتنز ؟.. هل ساءت حال الدكتور مارتنز ؟» .. ولم أتلق جوابا ، ولكنى سمعت حفيفا فى الحجرة ، ثم صرير السرير اذ جلست الزائرة على حافته . ولفنا العبير الذى كان يفوح منها ، فتذكرت فى جزع ما قاله هنرى عن شهواتها الجنسية .. أى كفر هذا بملاكى !.. واشتد بى الحياء والاستنكار ، بينما قالت كيتى بصوت أجوف انها تلقت نداء تليفونيا ثانيا من (شيكاغو) ينعى اليها أمها .. وحاولت أن أعزيها ، ولكنها تنهدت فى قنوط واعياء . وبعد صمت قصير ، سألتنى : « هل رأيت أحدا يموت ؟ » .. وكنت حتى هذه السن لا أعرف عن الموت شيئا كثيرا ! .. وسمعتها تقول : « **ما أرهبه ! .. انك تجلس عاجزا ، ترقب الروابط وهى تنفصم تباعا .. الروابط التى تربط المرء بالناس ، والتى تربطه باللغة ، والتى تربطه بالعالم المادى ، ثم .. تبدأ الرابطة التى تربطه بالجسد فى الانفصام ، فلا يبقى منها سوى خيط واهن ينحل رويدا رويدا ، ودقيقة بعد اخرى !** » .. وأدركت أنها دفنت وجهها فى راحتيها .. وعادت تهمس : « ثم يجد المرء نفسه وحيدا .. فى وحدة مطلقة ! » .. الميت فى وحدة ، والحى فى وحدة على السواء ! .. وسمعت

نهنهة فى الظلام ، ثم اهتزازات ، ونشيجا .. وكنت أحبها ، وكانت فى حزن ، ومع ذلك فاننى لم أدر كيف أواسيها .. ونسيت كل شيء عدا وجدى ، فأخذت ذراعى تتحرك نحو كتفيها ، ثم اجتذبتها نحوى .. وفى اختلاجاتها الباكية ، التصقت بى

« ودقت الساعة تنبه الى أن الوقت كان يحتضر ، وان الأحياء ـ لا الموتى وحدهم ـ كانوا فى وحدة موحشة .. كانت الميزة الوحيدة التى تميزنا عن المرأة الميتة فى (شيكاغو) ، وعن الرجل الذى كان يحتضر فى الطرف الآخر من البيت ، هو اننا كنا نملك أن نكون معا فى وحدتنا ، وان نتناسى هذه الوحدة ونخدع نفسينا بتوفر الايناس .. على اننى لم أكن أفكر اذ ذاك فى هذا الأمر ، اذ لم يكن يشغلنى سوى الحب والاشفاق على « الربة » التى انقلبت فجأة الى طفلة باكية ! .. ومسست اليدين اللتين كانتا تخفيان وجهها فاذا بهما فى برودة الصقيع .. وكذلك كانت قدماها الحافيتان ، فلم أملك الا أن انصحها بأن تدخل تحت أغطية الفراش ، ثم هممت بمبارحة مكانى ، ولكنها تشبثت بى .. وحاولت أن أتملص ، ولكنها تعلقت بى تعلق الغريق بمنقذه .. وكان لابد من ان أبقى تحت أغطية الفراش ، وحول عنقى ذراعان كالجليد ، وعلى صدرى جسد يهتز وينتحب !

« وليس بوسعى أن اقول الحقيقة كلها ، وانما دعنى أحلل الشخصيات الثلاث : كانت كيتى بدائية وضعتها الظروف فى قالب المرأة المتحضرة ، المؤمنة بالمبادىء الخلقية ، وقد عاشت عمرها سعيدة راضية عن الدنيا ، ثم الفت نفسها فجأة على شفا هوة سحيقة ، ترسل ظلماتها وفراغها رهبة تشمل جسدها وفكرها !.. **وخيل اليها ان الله ـ بل الآلهة ، لأنها فى بداوتها كانت وثنية ـ قد تخلت عنها وأخذت معها كل شيء ، فكانت تبحث عن آلهة جديدة ، كما بحث الانسان البدائى عن آلهة ،**

اذ كان لابد لها من أن تعيد توثيق صلاتها بالحياة ، وبأبسط مظاهر الحياة ، كالزمالة البدنية ، والدفء الحيوانى ، واشباع الحس النهم ! .. كانت مسألة ((محافظة على النفس)) ! ..
ثم انها كانت حزينة لموت أمها ، وحزينة لاحتضار زوجها .. وهناك قدر من التقاريب بين أشد الانفعالات ضراوة ، فالحزن كثيرا ما يذوب ـ دون أن يفطن صاحبه ـ فى الشهوة العذبة ، التى تسوق بعد شبعها النوم الى صاحبها !

« أما أنا ، فكنت ابن أمى .. طاهرا نقيا ، متدينا ، متشبثا بالمثل العليا ، الدينية ، فلم أكن أملك سوى أن أعتبر نفسى زانيا خائنا ، وأن أعتبر كيتى .. ماذا ترانى أقول ؟.. هذا بينما كان الأمر فى رأى كيتى ـ كربة من ربات الوثنية ـ أمرا عاديا ، وكل ماهو طبيعى وعادى يعتبر ، طبقا لمعاييرها الخلقية ، خيرا !.. كانت هى فوق الخير والشر ، بمقاييس آلهة جبل أوليمب ، الذين لم يكونوا سوى حفنة من الحيوانات البشرية السامية التى أوتيت قوة خارقة !.. أما أنا ، فلم أكن فوق الخير والشر ، بل كنت غارقا حتى أذنى فى حمأة الرذيلة التى خلقتها النوازع البشرية نحو الاثم ، والعرف الاجتماعى .. كانت ربة هبطت مؤقتا من قمة جبل اوليمب ثم شرعت فى العودة الى الأرض عن طريق الشهوة الحسية . وكنت روحا موزعة حائرة ، ترتكب اثما يزيده الشعور بالنشوة بشاعة !.. **والواقع اننى كنت اذ ذاك شخصين راحا يتناوبان الظهور : شاب برىء طاهر ، وشاب حديث عهد بالحب ، وأتاه حظ غير عادى فوجد نفسه فى أحضان امرأة جمعت بين الفسق والأمومة ، فهى رقيقة كل الرقة ، وهى شهوانية الى أعمق حد .. وكان هنرى يحتضر !**

« فى ذلك المساء ـ الثالث والعشرين من ابريل ـ كنت واياها فى العالم الآخر ، فى جنة الظلام والعرى والتلامس والاندماج .. وأية اطياف فى تلك الجنة ؟!.. كانت قبلاتها

كملائكة تهبط فجأة !.. وما كان أشد ترددى فى الاستجابة .. ولكن ترددى الكافر بمثلى العليا جوزى بنشوة بهيجة تفوق كل ما يمكن تصوره !.. ثم : الاثم ، والخسة ، والدنس .. تلك هى الكلمات التى راحت تعذب ضميرى ، وأنا أرقب كيتى فى نومها . النوم .. وهذا عالم آخر !.. كانت وهى **نائمة كالملاك الوادع .. ومع ذلك فقد كانت مغرقة فى الاثم** والخسة والدنس !.. كأنما كانت هذه الكلمات معاول تغوص فى كيانى ، وأنا أسمع أنفاس كيتى فى نعاسها .. تلك كانت حبيبتى ، نائمة ، مسلوبة الحول ، وادعة ، ومن ثم فهى مقدسة فى ذلك العالم الآخر ، مهما تكن تلك الكلمات !

« ثم ، غشينى النعاس .. وانتبهت على شقشقة العصافير عند الفجر ، فاذا كيتى واقفة بجانب السرير ، تطرح شالها على كتفيها . ولم أنتبه الى سر وجودها ، ولكن لجزء يسير من الثانية ، ثم تذكرت كل شىء : الرؤى والأطياف والظلام ! .. ولكن النهار كان قد أقبل ، وأصبحنا ثانية فى هذه الدنيا .. وأصبح على أن أدعوها مسز مارتنز !.. اثم ، خسة ، دنس ! كيف أقوى بعد ذلك ان أتطلع الى وجهها ؟.. بيد أنها فى تلك اللحظة التفتت الى ، فشرعت أبتسم ابتسامتى المعهودة ، ولكنى فى لوعة الحياء والحيرة حولت عينى .. وانحنت هى فطبعت قبلة على جبينى ، كما تفعل الأم مع ابنها .. ووددت ان أهمس اليها بأننى لا أزال أعبدها ، وان حبى كان عارما بقدر ندمى ، وان الأمر لن يتكرر ثانية ، ولكن لسانى انعقد .. وما لبثت ان وجدتنى وحيدا ، تحت المعاول الثلاثة : الاثم ، والخسة ، والدنس ! .. وما ان حان موعد الفطور ، حتى كنت قد عقدت العزم على الرحيل .. نهائيا !

« وصادفت بيولاه وأنا فى طريقى الى قاعة المائدة ، فاذا بها تبشرنى بأن المعجزة وشيكة الحدوث ، لأن مسز مارتنز قد استردت روحها وحيويتها .. وفعلا ، كانت حرارة الدكتور

مارتنز قد هبطت ، عندما انضمت الى كيتى على المائدة !..
وكان الأمر عجبا ، فلقد عادت كيتى من شيكاغو فاقدة الروح والحيوية ، فلم يكن ثمة نفع يرجى منها لهنرى ، بل انها كانت عبئا على نفسها !.. ان أية امرأة أخرى كانت خليقة بأن تصلى ، وان تدعو الله ان يمنحها القوة ، ولكن كيتى لم تكن من الصنف الذى يصلى .. كانت المعجزات ــ وما فوق الطبيعة ــ هى الطبيعة لديها .. **ولم تكن القداسة عندها فى الروح أو فى الانسانية ، وانما فى مناظر الطبيعة ، وفى الحيوانات ، وفى أشعة الشمس ، وفى القبلات ، وفى ارضاء الحب بالاتصال الجسدى** !.. وكانت الأسابيع الثلاثة التى قضتها الى جوار أمها قد قطعت هذه الصلة ، ثم عاد اليها البهاء عندما عادت تلك الصلة فى ذلك المساء ، الثالث والعشرين من أبريل .. ساعة من الحب ، وست من النوم ، ثم امتلأ الفراغ ! وعادت اليها الاشراقة الروحية ، والبهاء الحيوانى ، والجمال الآدمى . وشعر هنرى بعودة حيويتها اليها ، فتجاوب معها ، وبدأ يتماثل للشفاء ! »

* * *



• **وهنا** سألت صديقى عن الرحيل الذى كان قد اعتزمه ، فقال : « قبل أن اقدم عليه ، رأيتها تهبط الى الطابق الأرضى ، وقد حفت بها هالة الربة التى كانتها .. ربة فى ثياب الحداد ، مما أثار اشفاقى وأثار تعبدى الدينى ، اذ خيل الى أن حبيبتى روح خلقت لكى أعبدها بروحى ! .. وكانت ياقة ثوبها الأسود

تكشف عن عنق كأنه عمود من نور .. وفى اطار من شعر بلون عسل النحل ، كان وجهها يتألق باشراقة لا تمت للأرض بصلة !.. **ولكن أسارير الرضى الجنسي هى هى مثيرات الرغبة الجنسية ، وبشرى المتع الموعودة فى المستقبل !.. يا الهى ، لشد ما اشتهيتها اذ ذاك ، رغم ندمى ، ورغم مثلى العليا !..**
وفى المساء وافتنى ثانية فى الظلام ..

« وفى تلك الأثناء كانت المعجزة تجرى ، وبسرعة . فقد استطرد تحسن هنرى .. وأسعدنى ان شعرت بأننى ساهمت ـ بطريق غير مباشر ـ فى اتمام المعجزة .. **لقد خنت أستاذى ، ولكنه كان مسوقا الى الموت لو لم أخنه ! كان هذا نوعا من التبرير !.. ومن ناحية أخرى ، لشد ما استبشعت ان أرى ان بهاء كيتى وحياة زوجها كانا يتوقفان على شىء دنىء .. اثم ، وخسة ، ودنس !..** كانت كل مثلى العليا تثور على هذه الحقيقة !.. وكان أول ما فعله هنرى حين تمالك قواه ، أن سحب كل ما قاله فى ليلة فورته ، وان سألنى ان أنساه . فلما كان المساء ، أردت ان أصارح كيتى بما فى نفسى ، ولكنها اسكتتنى بقبلاتها ، فنحيتها بعنف ، وأجبرتها على ان تنصت لشكواى من عذابى الخلقى ، فأنصتت فى اشفاق الربة ، ثم قالت : « ما أنبلك ! ولكن ، الا تفكر فى غير نفسك ؟.. **فكر فى انا ، أو فى هنرى .. فكر فى العبقرى المريض ، وفى المرأة المسكينة التى قدر عليها أن تستبقى العبقرى حيا ، متمالكا قواه العقلية !.. فكر فى ذكائه الجبار وغرائزى .. فى انكاره الحياة وهو يتفرغ لأبحاثه ، وفى الحياة الطافرة الدافقة فى كيانى ! »** .. كان هذا كل ما بررت به تصرفاتها !

« ولم أزدد الا حبا لكيتى .. وما لبث أن عاد الصغيران الى البيت ، وبدأت الحياة تسترد مجراها العادى ، وأصبح حتما علينا ان نكون على حذر .. وكانت كيتى تحب صغيريها ، ولكنها كانت تبدو وكأنها مدفوعة على الرغم منها الى

تفقد اخطائهما ، وفرض سلطان الأمومة عليهما . فلم تنقض دقيقتان على استقرارهما فى البيت ، حتى عركت اذنى تيمى ، لأنهما كانتا قذرتين .. ثم اكتشفت ادوات الزينة لدى روث ، وكانت عادة تبدى استياءها فى ترفق ، ولكن استياءها فى هذه المرة اتخذ قالبا صاخبا ، فأمرت بالقاء الأدوات فى صندوق القمامة ، وسكبت بنفسها العطر فى دورة المياه ! وما ان حان موعد العشاء ، حتى كانت الشاعرة الصغيرة محتقنة العينين ، ناقمة على كل امرىء .. على أمها لأنها أذلتها ، وعلى بيولاه لأنها تنبأت من قبل بما جرى ، وعلى هنرى لأنه كان السبب فى عودة أمها ، وعلى أنا لأننى كنت أعاملها كطفلة ، وأصف اشعارها بالركاكة .. ولأننى كنت أوثر ان أجالس أمها على ان أجالسها هى ! »

* * *

• **وسألت** جون ريفرز : « هل تراها ارتابت فى شىء ؟ » ، فقال : « من المحتمل انها حدست كل شىء ، اذ كانت شديدة الغيرة من أمها ، وقد آذت أمها شعورها .. وكانت خليقة بأن تعتقد ان بيننا ثمة علاقة ، حتى اذا لم يكن قد جرى بيننا شىء ، ومن ثم أخذت تشعر بالكراهية نحونا .. وكانت كراهيتها بعد ذلك الاذلال شديدة ، حتى انها كانت تقضى اياما بأكملها وهى تأبى ان تكلمنا .. **وكان صمتها ـ اذا ما اجتمعنا حول المائدة ـ صمتا أسود ، مثقلا بكثير من السخط الأخرس .. فان معاملتى وكيتى لها قد أهاجت خيال المراهقة ، فأخذ استمراؤها للغيرة والشك ـ كمظهر للسخط ـ يزداد يوما بعد يوم** • ثم وقع ـ بعد أسبوع من عودة الصغيرين ـ ما أشعل النار ضارية فى الحقد المزمن .. اذ رأى الطبيب ان يقضى هنرى بضعة أسابيع فى الريف . وكان للأسرة كوخ خلوى ، فاقترحت كيتى ان نذهب ـ أنا وهى ـ فى اليوم التالى لاعداده

للاقامة ، واذا بروث تخرج من أعماق الصمت المفعم بالشر ، لتقول ان اليوم التالى من أيام الدراسة ، فأجابت كيتى بأنها اختارته لهذا السبب بالذات . فقالت روث فى صوت يخنقه الغيظ : « يجب ان أذهب معكما » ، فتساءلت كيتى : « ولماذا يجب ؟ » . ورمقت روث أمها لحظة ، ثم أرخت نظراتها وقالت : « لأننى .. » ، وامسكت لحظة ، ثم تمتمت : « لأننى أريد ذلك » . فضحكت كيتى ساخرة .. وعندما صادفت الفتاة فى مساء ذلك اليوم ، رمقتنى بنظرة عدائية متوعدة ! ولكننى رأيت ان أداعبها وأترضاها ، فسألتها عما اذا كانت قد نظمت شيئا من الشعر . واذا بابتسامة صفراء ترتسم على وجهها ، وهى تقول : « أجل » . ووعدتنى بأن تطلعنى على قصيدة فى اليوم التالى

« وكنت قد نسيت هذا الوعد ، حين دفعت الى فى الصباح بمظروف أنيق ، قائلة : « هاك القصيدة ، وأرجو ان تروق لك » . وكنت منهمكا فى نقل الأشياء التى اعتزمنا نقلها الى الكوخ فى السيارة ، فدسست الخطاب فى جيبى .. وما لبثت أن انطلقت مع كيتى !

« وفى الكوخ ، نعمت بالنشوة مرات مع كيتى ، تحت بصر صورة كبيرة الحجم لهنرى مارتنز .. وبين نشوتين من تلك النشوات ، وقعت يدى على المظروف الذى اسلمتنيه روث ، ففضضته . وكانت قصيدتها فى هذه المرة قصة عن عشيقين : زوجة خائنة مثلت مع عشيقها أمام الله فى يوم الحساب ، فشعرا وكأن أيدى خفية تخلع عنهما كل المظاهر الزائفة التى كانا يصطنعانها ، وتعريهما من كل ثوب ، فاذا بجسديهما شفافان ، واذا كل جارحة فيهما بشعة ، تشمئز لمنظرها النفوس .. ثم سلطت الاضواء على جسديهما ، أمام ملايين من الأنفس التى راحت تصرخ بالسباب ، والاستنكار ، والدعوة الى الانتقام ! .. **كانت الغيرة ، والحب المرفوض ، والكبرياء**

الجريحة ، والغضب المتمرد ، قد بعثت فى أعماق روث كل ماسمعته عن يوم الحساب ، وعن الجحيم ، وعن العقاب الأبدى .. كان الغضب قد تحول الى غيرة على الفضيلة !.. وكانت القصيدة دليلا على أنها لم تعد ترتاب ، وانما أصبحت موقنة من ذنبنا !

« وقرأت القصيدة مرارا ، ثم دفعت بها الى كيتى ، وهى جالسة الى المرآة تصلح من زينتها ، وقد اشرق وجهها بابتسامة الربة الوثنية التى كانتها !.. وقلت لها : « أو تحبين ان تعرفى ما يدور بخلد روث » .. ولمحت على أساريرها الاهتمام والاستغراق وهى تمضى فى قراءة القصيدة ، وأخذ عبوسها يشتد .. ولأول مرة ، تبينت أن الربة لم تكن معصومة من التأثر !.. **ولأول مرة ـ ايضا ـ شعرنا بأن الواجب يحتم علينا ان نفعل شيئا .. ورحنا نبحث الأمر اثناء عودتنا ، فاقتنعت كيتى فى النهاية بأن لابد لعلاقتنا من ان تنتهى !**

« وتفرست روث فى وجهينا ـ عندما عدنا ـ بعينين متفحصتين ، ثم سألتنى رأيى فى قصيدتها ، وكنت قد أعددت نفسى لهذا السؤال ، فتضاحكت قائلا انها ذكرتنى بمواعظ أبى !.. وأسرعت أتهرب منها ، بعد ان انتصرت فى الجولة الأولى . ولكن الحرب كانت لا تزال قائمة !

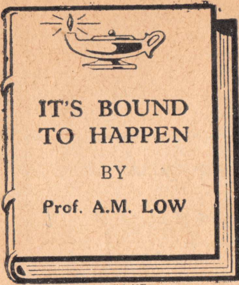
« **وبعد** يومين ـ وكان يوم الجمعة ـ تلقيت خطابا من أمى ، كان فى الواقع جزءا من خطة دبرتها لتبرير التعجيل برحيلى .. وكان الخطاب ينذرنى بأن أمى مريضة ، وان لابد من أن أخف الى جوار سريرها .. وتقرر فى ذلك المساء ان أرحل فى صباح الأحد ، بعد ان أساهم فى نقل هنرى الى الكوخ الخلوى فى صباح السبت !

« وسبقتنا كيتى والصغيران فى سيارة الأسرة ، بينما شاركنى هنرى وبيولاه سيارتى .. وعندما قطعنا نصف ميل ، تذكر هنرى أنه نسى كتابا ، فعدنا لاحضاره ، وبذلك اتسعت المسافة

بيننا وبين السيارة الأخرى .. وكان ثمة ملتقى للطرق ـ على بعد ميلين من الكوخ ـ يعرج المرء عنده الى اليسار .. وكانت الغابة تكتنف الطريق ، فلما بلغت ملتقى الطرق ، خففت من سرعة السيارة ، وضغطت البوق مرارا ، ثم عرجت الى اليسار .. وخلف منحنى الطريق ، رأيت السيارة الأولى وقد انقلبت فى حفرة ، وبجوارها سيارة نقل تهشمت مقدمتها .. وبين السيارتين ، كان ثمة شاب فى ثياب سائقى السيارات ، راكعا الى جوار طفل راح يصرخ .. وعلى مسافة خمس عشرة قدما منهما ، كانت ثمة كومتان من الثياب الملطخة بالدماء : كيتى ، التى لفظت آخر انفاسها بعد وصولنا ببضع دقائق ، وروث ، التى قضت نحبها وهى فى الطريق الى المستشفى . أما تيمى ، فقد قدر له أن يعيش ليموت بعد ذلك فى الحرب .. وراح يروى لنا ونحن ننقله الى المستشفى كيف ان نقاشا حادا دار بين كيتى ـ التى كانت تقود السيارة ـ وروث التى كانت تجلس الى جوارها .. ولم يدر موضوع النقاش ، لأنه كان فى شغل عنه ببعض لعبه . **وكل الذى علق بذهنه لم يتجاوز كلمات سمعها من امه ، اذ صاحت فى الفتاة : ((انك لاتفقهين ما تقولين)) ، ثم : ((اننى أمنعك من ان تقولى اشياء كهذه !)) ..** ثم بلغت السيارة المنحنى ، وشغلت كيتى بالحديث عن ان تخفف من السرعة ، أو أن تطلق البوق ، فوقع التصادم »

★ ★ ★

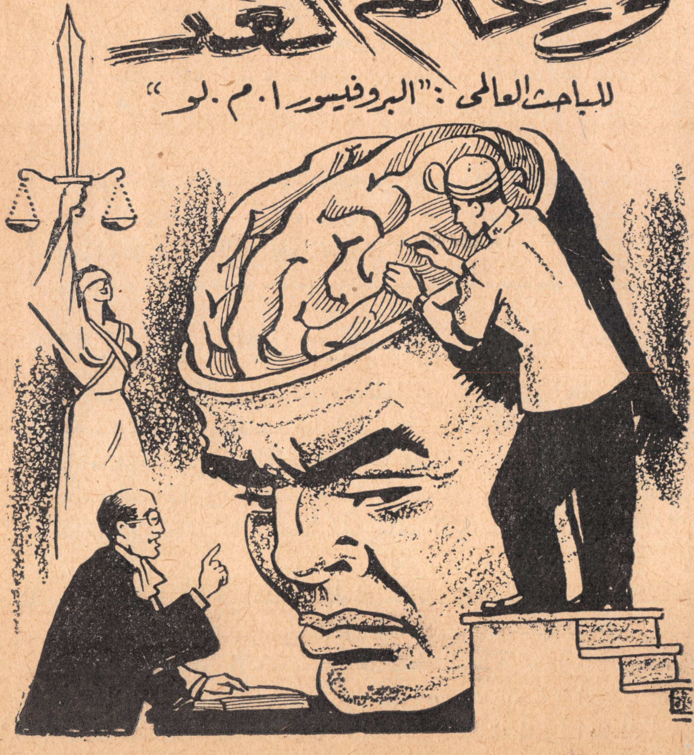
• **وسكت** ريفرز لحظة ، ثم قال : « وهكذا كان ما فعله القدر المحتوم بنفسين مختلفتين .. نفس روث ، الطفلة المهتاجة والأنثى المشبوبة الغيرة .. ونفس « الربة » التى أحاطت بها ظروف معينة ، وفطنت فجأة الى انها لم تكن سوى انسانة ، فاذا هذا الاكتشاف يزعجها الى درجة جعلتها تغفل الحذر ، مما تركها عاجزة عن التصرف ازاء ما كتب لها القدر من مصير ! »





الجريمة والعقاب.. والأخلاق في عالم الغد

للباحث العالمى: "البروفيسور ا.م. لو"



تلخيص: الدكتور ناجى يسى

معايير جديدة .. للجريمة والعقاب !

◆ لن يترك عصر الذرة ناحية من نواحى حياتنا أو نظاما من نظمها دون أن يتدخل ليفرض سلطانه عليها ، سواء بالتغيير أو بالتحوير وسوف يحكم الانسان لهذا التدخل بأنه .. تقدم !.. والذى لاشك فيه أن كل ما يتصل بموضوع الجريمة والعقاب والأخلاق ، سوف يخضع لهذا التدخل - ان لم يكن قد خضع بالفعل - ولن نلبث أن نرى معايير الجريمة وقد اختلفت تماما عن معاييرها الحالية ، ومقاييس العقاب وقد سلكت دروبا لاتفضى الى سجون أو مشانق أو مقاعد كهربائية ، وانما الى .. الى ماذا ؟ !

هذا ما تجيبك عليه الحلقة التالية من كتاب « عالم الغد » ، الذى ألفه الباحث العالمى « البروفيسور ا. م. لو » وتنبأ فيه - على أسس علمية منطقية - بمعجزات عصر الذرة !

« الراديو » .. أفعل وسيلة لارتكاب الخيانة العظمى !

◆ **اذا** كان القانون يسير متخلفا عن « الرأى العام » سنين عديدة ، فانه قد يتخلف عن الكشوف العلمية قرونا كاملة !.. وكلما امتد بنا الزمن ، أصبح لزاما علينا أن نجرى على تشريعاتنا تعديلات متتالية فى فترات متقاربة للحاق بركب التقدم العلمى .. ذلك لأن اختراعا واحدا قد يقلب الأوضاع قلبا كاملا خلال جيل واحد ، ويخلق سلسلة من الظروف ما كانت لتدور بخلد الذين وضعوا لنا قواعد السلوك . بل لعل العرف الاجتماعى - بما له من شأن أكبر من شأن القانون فى تحديد نهج سلوكنا - عرضة للتغيير هو الآخر !.. فهبوط نسبة جرائم القتل ، فى عصرنا الحاضر ، لا يرجع الى تغير فى تشريعنا ازاءها ، ولكن لأن القيم الخلقية لدينا تغاير تلك التى كانت لدى أجدادنا

ولنأخذ « الراديو » كمثال لما قد يترتب على اختراع واحد من نتائج : فعندما صيغ القانون الخاص بجرائم القذف ، كان اسوأ ما يستطيع فرد ان يرتكبه بلسانه هو أن يرفع عقيرته ليسمع بضعة آلاف من الناس . **أما الآن فانه يستطيع ان يخاطب ـ عن طريق الراديو ـ مئات الملايين من المستمعين بصوت هادىء ، ويضمن نشر سبابه فى مدى أوسع ووقت أقصر مما تتيحه أية وسيلة أخرى للنشر !**

وعندما وضعت النصوص التى تشمل الوسائل المختلفة التى يرتكب الفرد جريمة الخيانة ضد بلاده ، اذا هو انتهجها ، لم يكن يدور فى مخيلة المشرع احتمال اقامة الخائن فى أرض العدو وتوجيهه الخطاب الى الملايين من مواطنيه فى كل يوم .. بيد أن هذه الطريقة بالذات كانت أكثر طرق الخيانة شيوعا ابان الحرب العالمية الأخيرة . ولما كان القانون يمتاز بقابلية عظيمة للتأويلات والتفسيرات ، فان التلاعب بالألفاظ يسر له أن يعالج انواعا من المخالفات ما كانت لتخطر ببال المشرع عندما صاغ النصوص بالطريقة التى ترضيه ..

ولقد أصبح كثير من القوانين وقواعد السلوك التى أوردتها التعاليم الدينية القديمة ، غير ذات موضوع فى عصرنا الحالى ، بسبب المخترعات والكشوف العلمية الحديثة ، حتى بات التمسك بها غير مجد عمليا . فنحن لا نستطيع ـ مثلا ـ ان نزج بمحضرى الأرواح فى السجون ، استنادا الى أحكام وضعت لمعاملة السحرة .. كما نلاحظ أن الفوضى البادية فى عمليات المراهنة ـ سواء على سباق الخيل أو على مباريات كرة القدم ، كما هو شائع فى بعض البلدان كانجلترا ـ انما يرجع الى أنها محكومة بقوانين وضعت أصلا لحماية المقامرين الأغنياء من محترفى الغش فى لعب الميسر .. وما كان ليدور بخلد واضعى هذه القوانين انها ستستخدم يوما فى تنظيم المراهنة على كرة القدم مثلا

آلاف الضحايا .. بسبب فساد قوانين المرور !

• **وينكر** رجال العلم عادة أية مسئولية خلقية أو أدبية مترتبة على عملهم . ولكننا قد نضطر فى المستقبل القريب الى أن نعهد الى لجان مؤلفة من خبراء ، باستقصاء الآثار الاجتماعية والاقتصادية التى تترتب على البحوث العلمية ، حتى نكون على بصيرة بما يجدر بنا أن نقدم عليه من تعديل للقوانين القائمة ، أو سن لقوانين جديدة . ونحن نرجو أن لا يسمح لمثل هذه اللجان بأن تملى اراءها املاء ، وانما يكفى ان تتولى ابراز ما يمكن أن ينجم عن اختراع معين من نتائج تقتضى منا موقفا قانونيا أو أخلاقيا معينا . ولو أن هيئة كهذه وجدت فى عصر السيارة ـ أى فى مطلع هذا القرن ـ لكانت كفيلة بأن تبرز التطورات التى كانت محتملة خلال الخمسين سنة الأخيرة ، ولساعدتنا على التخلص من كثير من سخف « الروتين » ، وعلى توفير الملايين العديدة التى انفقت فى محاولة استصلاح الطرق القديمة لتجرى عليها السيارات ، رغم أنها كانت فى الأصل معدة لتسير عليها العربات والخيل ، وكانت بطبيعتها ضيقة ، بينما كانت المدن تزدحم باطراد .. مما زاد من نسبة الحوادث ، ومما هبط بحركة السيارات الى سرعة الخطى الآدمية !

وليس معنى ذلك ان الخبراء العلميين أكثر صوابا من المشرعين السياسيين ، ولكنهم ـ ولا شك ـ يستمدون من علمهم نظرة صائبة الى المستقبل ، لا تتاح لرجال الحكم والسياسة الذين يعالجون المشكلات بروح عاطفية ، ويصبغون وجهات نظرهم ـ ازاء ما قد يحدث فى المستقبل ـ بصبغة مستمدة من رغباتهم الشخصية !

وعجزنا عن توقع الأمور المقبلة وتكييف أنفسنا ـ بدنيا وعقليا ـ تبعا لها ، هو السبب فيما نعانى اليوم ، اذ نرى

آلاف الناس يفقدون حياتهم فى كل عام ، واذ يخال سائقو السيارات أنهم ضحايا ظلم اليم . ذلك لأن القوانين المتتالية اخفقت فى تنظيم المرور ، كما ان اشارات المرور لم تفلح فى تخفيض عدد حوادث الطرق . وكان يكفينا ـ لتجنب كل هذا العناء وهذه الفوضى ـ قليل من بعد النظر الذى يبين لنا احتمالات السيارة ، كاختراع كفيل بأن يحدث أعمق الأثر فى حياتنا وعاداتنا وموارد دخلنا

مازال الناس يرجعون أسباب الجريمة الى «عمل الشيطان» !

• **ولقد** اقترن كل اختراع بظروف كتلك الظروف التى حفت باختراع السيارة ، وان تكن النتائج أقل اثارة للاسى . والواقع ان اللجان التى تؤلف للتحقيق فى هذه الأحوال تتأثر الى درجة كبيرة ـ مع الأسف ـ بأفكار متجنية ، مما لا يؤدى بها الا الى عرقلة كل تقدم . وفى مجال الطب خير مثال على ذلك . فما من نعمة أتيح له ان يستغلها ، الا بعد معارضة مريرة من « الديكتاتوريين » الذين يسيطرون على المهنة دون أن يكونوا ذوى نفع لها !

ومن الأمثلة الدالة على الفوضى التى تترتب على تجاهل العواقب الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية لأى تقدم فنى ، ما نراه ممثلا فى النظام القضائى ونظام العقوبات . **فان هذين النظامين يقومان على أفكار يرجع العهد بها الى عصور قديمة ، لم يكن الناس فيها يعرفون عن أسباب الجريمة أكثر من أنها « من عمل الشيطان » ، وان ارتكابها « رذيلة » !..** وكانت الأضواء الوحيدة التى بحث أمر الجريمة تحتها ، أضواء مستمدة من الدين ، مما ترتب عليه مانراه اليوم من زيارة القساوسة ـ دون سواهم ! ـ للسجناء ، وحضورهم تنفيذ أحكام الاعدام !.. ولقد بدأت خلال القرن الأخير محاولات لتطبيق الأساليب العلمية فى الكشف عن أسرار العقل البشرى

وسلوك الانسان . ولكن هذه المحاولات لم تسجل سوى أثر ضئيل فى النظم القضائية ونظم العقوبات . فلا نزال مضطرين الى ان نحتفظ بجهاز بوليسى ضخم . ومع أن هناك آلافا يتعرضون للعقاب كل عام ، الا أن هذا لا يردع آلافا عديده أخرى عن المضى فى طريق الجريمة !

كل القتلة « مجانين » لا يستحقون الاعدام !

• **وهناك** مثال آخر ، نلمسه فى التناقض الذى نتخبط فيه بين الأمراض العقلية وجرائم القتل ، ودور « الاعدام » فى كل منهما . فلقد تغيرت النظرة الفنية الى الجنون — فى القرن الماضى — تغيرا يعتبر انقلابا . **الا ان القواعد التى تحدد الجنون قانونا ، لا تزال مستمدة من تلك العهود التى كان يلقى فيها بالمجانين الى أعماق الآبار ، او يعاملون على انهم ضحايا « أرواح شريرة » تسكن أجسامهم !..** ويعتقد النـــاس فى أيامنا هذه ، ان من الخطأ — بل من الوحشية — اعدام اى قاتل مصاب بلوثة عقلية .. ومع انه لم يعد من المتعذر ، على ضوء العلم الحديث ، اثبات جنون أى شخص يرتكب جريمة قتل ، الا ان قوانيننا — بل وسبل تفكيرنا — لا تزال متأخرة عن العصر بما لا يقل عن ثلاثمائة عام . **فنحن نتجاهل دون اكتراث كل ما وصل اليه العلم عن العقل البشرى خلال القرن الحالى ، ونستمر فى اعدام القتلة الذين نصفهم بأنهم متمتعون بقواهم العقلية وبأنهم يميزون ما يعملون ، فى حين يرى العلم أنهم مصابون باختلالات عقلية .. بينما نترفق بمن نســـميهم « مجانين » ، حتى اننا نخصص لهم ملاجىء يعيشون فيها ما شاء لهم العمر أن يعيشوا !**

ولقد كان من المتبع فى الماضى ، اذا ما ثار نزاع لاثبات حالة الحمل لدى احدى السيدات ، ان تؤلف « هيئة محلفات » من سيدات مسنات ، ليبدين الرأى فى صحة الحالة . ومن

الغريب ان القضاء فى انجلترا لا يزال متمسكا بهذا التصرف ، رغم أن غالبية الناس تميل الى الاعتقاد بأن اى طبيب ماهر أقدر من العجائز على تكوين رأى صائب فى هذا الصدد .. والأمر ذاته ينطبق على موقف القضاء من حالات الأمراض العقلية التى تعرض عليه ، اذ أن المبدأ المتبع يتمثل فى أن يترك البت فيها للمحلفين ، بدلا من أن تترك للعلم !

لن يرضى الناس فى المستقبل عن العقوبات الحالية !

• **وبالرغم** من أن دراسة العقل لاتزال فى مهدها ، الا أن كثيرا من التقدم — فى هذا المضمار — قد أحرز خلال الثلاثين سنة الماضية ، فأصبح من الميسور تفسير كثير من التصرفات التى كانت منافية للعقل فى الماضى . ولسوف يكون لهذا أعمق الأثر فى تشريعاتنا ومعاملاتنا مع من يخالفون العرف . **أما العقوبات التى نوقعها على المذنبين فلن تبدو أقل غباء ووحشية ، فى نظر الأجيال القادمة ، مما تبدو عقوبات التعذيب البدنى فى نظرنا .. نحن أبناء الجيل الحاضر !**



ولن يتسنى الوصول الى نتائج ناجعة ، الا اذا لجأنا الى الطرق العلمية — بدلا من الأساليب العاطفية — فى علاج مسألتى الجريمة والعقاب . فان ممارسة العقوبات على مر القرون لم تؤد الى نقص عدد نزلاء السجون ، كما أنه لا نزاع فى أن المستوى العام للاخلاق — اذا قيس بمدى مراعاة القانون والنظام والعرف الاجتماعى — لا يعتبر اعلى مما كان فى أى وقت مضى !.. ولن

يرضى الناس فى المستقبل عن بقاء السجون متخمة ، ولا عن استبقاء جهاز ضخم من الحراس ومن رجال الأمن ، ومن ثم فلابد أنهم سيرون أن الخير فى مواجهة الحقائق . ولا ينتظر **أن يحدث هذا التغيير بغتة ، كما انه ليس من المحتمل ان يطالب الرأى العام بالغاء عقوبة الاعدام فورا ، ولكنه قد يوافق ضمنا على اعفاء القاتل من الاعدام** . وهذا ما يحدث بالفعل فى كثير من الحالات ، حتى أن عقوبة الاعدام لم تنفذ مرة واحدة فى الخمسين عاما الأخيرة ، فى بعض الدول ، رغم بقائها فى نصوص قوانين تلك الدول

لن يسجن مجرمو المستقبل !

• **وهكذا** لن يمضى وقت طويل ، حتى يجرى البحث عن وسائل لـ « علاج » المجرمين ، بدلا من الزج بهم فى السجون ، وتسخيرهم فى أعمال لا طائل من ورائها ، واخضاعهم لنظام قاس ، مع عدم امدادهم بتغذية كافية . بل ان أبناءنا سيسخرون — ولا شك — من مجرد التفكير فى ان الزج بالمحتالين أو متعددى الزوجات ، كاف لردعهم عن السرقة او الاحتفاظ بأكثر من زوجة واحدة !

وليس من شك فى أن الأغبياء من المجرمين هم الذين يقعون فى قبضة القانون — رغم ما نصفهم به من ذكاء — لذلك فلن يلبث المجتمع ان يقتنع بضرورة بحث مشكلاتهم علميا . **وقد ينتهى الرأى فى النهاية الى ان كل المجرمين أشخاص غير عاديين ، أو منحرفون ، وربما تسنى التأكد من ان هبوط مستوى الذكاء لدى كثيرين منهم ، انما ينجم عن حالة عضوية يمكن علاجها ، كنقص التغذية ، او اختلال نشاط الغدد** . واذا كانت فكرة القاء تبعة الميول الاجرامية على « فيروس » ما من الفيروسات التى تحدث حالات مرضية مستعصية .. اذا كانت هذه الفكرة تبدو الآن مثيرة للسخرية ، الا انها قد تجد

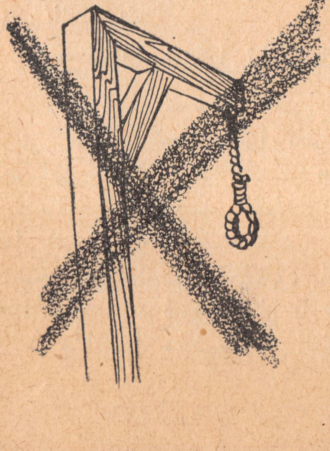
تقديرا فى المستقبل

ولا جدال فى أنه سيتسنى فى المستقبل تصحيح الشذوذ ، فى بعض حالاته على الأقل ، بعد ان يسر « مرسم المخ » — وهو الجهاز الذى يسجل موجات المخ — مشاهدة مظاهر الشذوذ لدى الأطفال فى مرحلة يسهل فيها علاجهم وانقاذهم من أن يصبحوا مجرمين !

ومن العجيب انه لا توجد لدينا — حتى الآن — مدارس خاصة بعلم الجريمة .. ويبدو أن المقياس الوحيد لكفاءة القائمين على السجون ، هو عدد السجناء الذين يستطيعون منع المسجونين عن الاستجابة للحافز الطبيعى الذى يسول لهم الهرب من السجن .. لا عدد المجرمين الذين يوفقون الى ردعهم عن الجريمة !

« عيادات » خاصة .. لمن يشعر بميل الى الجريمة !

• **ومن** الجلى أن التطور سيشمل المحاكم أيضا . وسيصبح من غير المعقول أن يحكم القضاة بعقوبات لا دراية لهم بها ، فما أقل القضاة الذين يزورون السجون ليشهدوا تنفيذ العقوبات ، وما أشبههم بالأطباء الذين يصفون أدوية لا دراية لهم بمدى صلاحيتها !.. والمتوقع أن لا يقتصر اختصاص المحاكم على اصدار أحكام بالعقاب ، ولكنه سيتجاوز ذلك الى البحث عن العلاج ، والتوصية بمعاملة المجرم تبعا لسبب جريمته لا لمدى بشاعتها أو لنتائجها . وبهذا لا يكون ثمة نوع



واحد من العقاب ــ كالسجن ــ لألوان متباينة من الاجرام !.. **أما العمل الذى يفرض على المجرم اداؤه ــ أثناء العقوبة ــ فسيحدد بنفس العناية التى يبديها الطبيب فى تحديد نشاط الناقه من مرض خطير !.. وسيكون العمل وسيلة لتمكين المجرم من تعويض المجنى عليه .. فنحن اليوم نتحدث عن واجب الجانى فى أن يفى بدينه للمجتمع ، ولكنا لا نترك له الفرصة ليفى بدينه للمجنى عليه !**

ومن كل هذا نرى أن العلاقة بين القاضى والمتهم ستصبح أقرب الى علاقة الطبيب بالمريض . ويوحى هذا التطور بأنه قد يأتى اليوم الذى يقبل فيه القضاة على مناقشة الميول الشاذة مع « المجرمين » قبل ارتكاب جرائمهم !.. **بل ان من المحتمل أن تنشأ « عيادات » يفد عليها اولئك الذين يخالفون القانون او يشعرون بميل الى ذلك ، رغبة فى الحصول على استشارات فنية . فاذا رؤى احتجاز أحد للعلاج ، كان ذلك أشبه باحتجاز المريض فى المستشفى !**

وقد يبدو هذا اغراقا فى الخيال ، ولكن المقارنة بين قضائنا العصرى ومحاكم التفتيش فى القرون المظلمة ، تدل على أنه ممكن الحدوث !

طرق تفادى النسل أبقت على الاتصالات غير المشروعة !

• **ومن** المستحدثات التى قد تترتب عليها نتائج بعيدة المدى ــ مالم تعط قدرا كافيا من الاهتمام ، عملية التلقيح الصناعى !.. ان مبدأ التستر هو السبب المباشر فى ان الأمراض التناسلية ظلت مصدر خطر وبيل أمدا طويلا ، بعد ان اهتدى العلم الى طرق علاجية تضمن الشفاء لأغلب المرضى . ولايزال الاحجام عن الجهر بالحقائق عائقا فى سبيل العلم ــ حتى يومنا هذا ــ رغم توفر وسائل الوقاية من هذه الأمراض . ولقد كانت مناقشة موضوع « التلقيح الصناعى » فى مجلس

اللوردات ـ وهو أشد الهيئات تشبثا بالتقاليد ـ تعتبر خطوة هامة . والواقع أن مجرد الاعتراف بأن الكشوف العلمية كفيلة بأن تحدث أعمق الأثر فى حياتنا ـ من الناحيتين الخلقية والمادية ـ جدير وحده بالاعتبار . فقد كانت الهيئات التشريعية تحرص من قبل على تجاهل الحقائق العصرية المربكة . أما الأجيال القادمة فستكون أوفر نصيبا من التربية العلمية التى تحفزها الى الملاحظة والتدبر وتقدير الحقائق الحديثة

ولعل خير مثال لما قد ينجم من اضرار عن تجاهل الواقع ، « حقيقة » ظلت معروفة سنوات عديدة ـ فى عصرنا هذا ـ دون ان نقدر أثرها فى أخلاقنا وتشريعنا . تلك هى « التحكم فى النسل » . فكم من شبان وفتيات يقدمون على الزواج وهم غير راغبين فى انجاب أطفال .. **كما أن طرق تفادى النسل مكنت من استمرار الاتصال الجنسى غير المشروع ، دون خوف من أن يثمر نسلا غير شرعى . ومع ذلك فان نظمنا الخلقية والتشريعية لا تزال تسير على الزعم القديم ، بأن المرء لا يملك حيلة ازاء النسل ..** وكم من أمور أخرى ـ كالاجهاض ، والازدياد المطرد فى حالات الطلاق ، وانعدام التناسب بين نسبة المواليد وأبسط القواعد الاقتصادية ـ لن يتسنى حلها ما لم نعترف علنا بالحقائق الحديثة . وبغير ذلك سيظل الارتجال فى التشريع قائما !

المدنية معرضة للتأخر .. مالم يختنف الأغبياء !

• **ان** الطب الحديث وتقدم الخدمات الاجتماعية يعملان معا على عرقلة قانون بقاء الأصلح واستئصال العناصر الضعيفة أو الناقصة ، مما يؤدى الى بقاء العيوب التى تنتقل بالوراثة ، والى استفحالها .. **وما لم يوضع لهذا حد ، فان الانسانية ـ كما يقول هكسلى ـ « ستدمر نفسها من الداخل شيئا فشيئا ، وينخر السوس منها اللب والروح » !**

والعلاج الواضح يستلزم الاعتراف بالواقع ، ونقض العراقيل المالية والاقتصادية والاجتماعية التى يفرضها مشرعون لا يستشيرون الا معتقداتهم المبتسرة ، المشوبة بالتحامل ، **فاذا ما بدت صلة حقيقية بين النجاح وبين التحكم المدروس فى نسبة الاخصاب ، فان الواجب يقتضينا ان ندرس هذه الصلة دراسة منصفة ، بعيدة عن التأثر بالعاطفة ، بدلا من ان نتركها فى أيدى قوم تستهويهم الميول العاطفية التى توحى اليهم بأن « الأرض وما عليها » للبؤساء والمساكين !..** ولقد أصبحت مظاهر التناقص التدريجى فى مستوى الذكاء واضحة فى بعض الدول المتمدينة ، وان كان من العسير تقدير مدى النقص تقديرا دقيقا . كما أن هناك من الدلائل ما يوحى بأن حجم الأسرة يتعرض للزيادة كلما نقص مستوى الذكاء بين أفرادها .. أى ان ذوى الذكاء الناقص هم أكثر الناس انجابا للابناء ! .. ولو اننا تمادينا فى تجاهل هذه الظاهرة ، وفى الاغضاء عن الحقائق التى اثبتها علم الوراثة ، فلن تكون النتيجة الا هبوطا بمستوى التقدم !

التحكم فى جنس المولود .. أصبح وشيك الوقوع !

• **على** ان هناك مشكلة أخرى سيقع على عاتق المستقبل عبء مواجهتها . فقد بدت بشائر النجاح فى التحكم فى جنس المولود .. **ولن يلبث الوالدان أن يصبحا قادرين على ان يختارا لنفسيهما جنس المولود الذى يرجوانه . وعندئذ ستصبح السلطة الطبيعية التى توازن بين نسبة الذكور ونسبة الاناث فى أى مجتمع ، فى يد الانسان !..** فهل ستنتبه الاجيال القادمة لهذا الأمر ؟ وهل ستواجه خطورته وآثاره على قوانينها وكيانها الاجتماعى ؟ او انها ستكتفى بأن تدفن رأسها فى الرمال ، زعما بأن التدخل أمر طبيعى ، فلا تلبث أن تصبح مهددة بالفوضى ؟ ان على الأجيال القادمة ان تفكر فى الآثار الخلقية والسياسية

العميقة ، التى قد تترتب على انتهاج عادات « فسيولوجية » جديدة .. ومن الأشياء المحتملة التحقق فى المستقبل القريب ، التحكم فى الجنس ، والحمل من أب غير معروف - بالتلقيح الصناعى - وترقيع انسجة حية تنقل من انسان الى آخر ، بدرجة قد تبدو الآن من قبيل الاعجاز !

ومن المحتمل أن لا يفطن الرجل العادى الى ما قد ينجم عن التلقيح الصناعى من متاعب .. اذ سيغدو من الميسور لرجل واحد أن يكون أبا لآلاف من الأطفال ، تنجبهم آلاف من الأمهات ! وطالما ظللنا ننظر الى التلقيح الصناعى على أنه مشين وغير لائق ، فان صعوبة الحصول على متطوعين لهذه المهمة سترجح استخدام رجل واحد كمصدر للتلقيح ، مما يفضى الى عواقب شتى : كالاكثار صناعيا من نماذج آدمية غير مرغوب فى الاكثار منها ، وتهيئة الفرصة للتوالد الداخلى فى نطاق الأسرة ، اى التوالد بين الآباء والأبناء ، وبين الأخوة بعضهم وبعض .. هذا فى الوقت الذى لايزال مشرعونا مشغولين ببحث ما اذا كان للرجل أن يتزوج من شقيقة مطلقته ، ويغمضون أعينهم عن احتمال ان ينجب الأب من ابنته بالتلقيح الصناعى !

هل تصبح عمليات الترقيع تجارة رابحة ؟!

• **ولقد** احرز الجراحون الحديثون نجاحا عظيما فى عمليات « الترقيع » ، بحيث أصبح من الممكن نقل عصب سليم الى أحد الأطراف التى تلف عصب فيها . وقد جرت العادة فى روسيا - حيث طبقت هذه العملية خلال الحرب - على الحصول على الأعصاب السليمة من جثث الضحايا الذين قتلوا حديثا . **وقد لا يبدو هذا الأمر ذا خطر بالنسبة لرجل العلم ، ولكنا نستطيع أن نتصور مدى الضجة التى يثيرها اذا طبقت هذه الطريقة فى بلاد تعتبر جثة الميت فيها مقدسة ، وقد يكون**

أول رد فعل لذلك ، هو المطالبة بمنع عمليات الترقيع ، بحكم القانون ، فينشأ اذ ذاك موقف مماثل لما حدث عندما احتاج علماء التشريح لجثث يجرون عليها أبحاثهم ، فغدا اختطاف الجثث تجارة رابحة !

وهذا الشىء بالذات هو الذى يحدث فى وقتنا الحاضر ازاء العمليات غير المشروعة ، دون أن ينجح القانون فى منعها ، لأنها تجرى فى الخفاء . فالقانون اذن لا يعمل على انقاذ الحياة ، بل هو يساعد على التضحية بها ، لأن الخفاء يمكن للجهلة وغير الخبراء أن يندسوا بين من يمارسون هذه العمليات !

والواقع أن القانون متخلف عن الزمن تخلفا مروعا ، لاسيما فيما يتعلق بشرعية النسل .. فالطفل قد يكون شرعيا ، طبقا للقوانين الأمريكية ، ولكنه يكون غير شرعى طبقا للقوانين الانجليزية . وهذه أمور ذات أثر كبير بالنسبة للمنازعات المتعلقة بالميراث . **فلو افترضنا أن رجلا كره أن يكون له ولد ، ولكن أقاربه استطاعوا أن يحصلوا على مادة التناسل منه عند موته ولقحوا بها زوجته صناعيا ، فكيف يكون موقف القضاء من الطفل الذى ينجم عن هذه العملية ؟!**

ان تجاهل الحقائق ليس علاجا للمشكلات ، وانما يتمثل خير حل للمسائل المترتبة على تقدم العلم ، فى تبسيطها للجمهور ، وفى الاعتراف بها وتقدير عواقبها ..

وفى العدد القادم ، يحدثنا ((البروفيسور لو)) عما ستكون عليه الآلات والمواصلات فى عالم الغد



تلخيص : محمد كامل الدهميس

حتى الأزواج .. يشترون بالمال !

◆ هل يستطيع النفوذ والجاه والمال ان تشترى كل شىء فى حياتنا ، وان تسخر كل محتاج فيصبح أداة لتنفيذ نزواتنا ؟!.. هكذا خال « المركيز فابيو » ـ أحد أبطال المسرحية التى يقدمها لك كتابى اليوم ـ عندما أراد ان يتستر على زلة ارتكبها مع فتاة ، فحاول أن « يبتاع » زوجا لعشيقته ، فاذا به يحول مجرى حياته وحياة عشيقته وأمها والزوج الذى ابتاعه لها الى سلسلة من « الدرامات » ، فى اطارات من المواقف المعقدة ، الممزوجة بسخرية لاذعة ، لا يجيدها كاتب كما يجيدها المؤلف الايطالى الأصل « لويجى بيراندللو » ، الذى سبق ان قرأت له مسرحية « الحياة نفاق » فى العدد ٢٨ من « كتابى » .. وهى المسرحية التى فاز بسببها بجائزة نوبل للآداب

الفصل الأول

◆ **ترفع** ستار الفصل الأول عن رجل فى الثامنة والثلاثين ، لبق ، انيق ـ هو « موريس سيتى » ـ وقد وفد على قاعة الجلوس بدار آل « رينيه » . ولا تلبث أن توافيه مدام مادلين ، ربة الدار . وهى سيدة فى الثامنة والخمسين ، أنيقة ، تحتفظ بمسحة من الجمال .. وتبادر السيدة ضيفها فى لهفة وارتباك : « ماذا وراءك ؟.. هل اقتنع ؟.. هل اخبرته بكل شىء » . ويطمئنها الشاب ، ولكنها تلح فى التساؤل بانفعال : **« تعنى أنك أخبرته بأننا ..؟ وبأن ابنتى ..؟ »** . ويعود الشاب الى التأكيد ، فتقول : « وهل يوافق على هذا الوضع ؟.. يا الهى ! ولكن كيف هو ؟ »

موريس : الا تثقين بى ؟.. انه حسن المظهر ، بل .. جميل !

مادلين : الأخلاق يا سيتى !.. انما أقصد أخلافه !.. وحديثه !.. أخشى ان يجرح شعور ابنتى ـ بكلمة اواشارة غير مقصودة ـ فتموت المسكينة .. أخشى ان يزل لسانه فيقول شيئا عن .. عن .. (تتلعثم ، ثم يغلبها البكاء ، فيحاول موريس أن يسرى عنها ويشجعها ولكنها تقول) انها طعنة قاتلة لابنتىأجاثا يا سيتى .. مصيبة حلت بنا !.. وهذا الرجل الغريب يدخل دارنا فى هذه الظروف ، فماذا يجرى لو انه انتهز الفرصة ..؟

ويقاطعها موريس مطمئنا ، وهو يقول : « ألست أنا واحدا من الأسرة يمسنى مايمسها ؟.. ان المركيز العزيز أكثر من ابن عم لى .. انه بمثابة اخى ! » .. فتؤكد له ـ بدورها ـ ثقتها فيه ، وتقول : **« ولكنك لاتعرف قلب الأم حين ترى ابنتها توشك أن يقتلها الحزن ، أو يحل بها الجنون يأسا وندما على خطيئة كان خليقا بها أن تتجنبها ! »**

موريس : ولكن المركيز « فابيو » رجل شريف ، وهولايزال واقفا الى جوارها !

مادلين : انه مرتبط بامرأة أخرى غير جديرة به ، ولولا ذلك ما عانينا هذا الموقف . قل لى : أليس ذلك هو السبب ؟.. أكان فابيو يحجم عن الزواج بابنتى لو أنه كان حرا ؟

موريس : كلا ، بلا أدنى شك .. الا ترين بنفسك مدى شغفه بها ؟

مادلين : آه ! اننى أرى كل شىء .. أرى أن ابنتى قضت السنين الطوال تنتظر شريك حياتها دون ما طائل ، حتى اذا عثرت على الرجل الجدير بحبها ، لم تجده خالصا لها ، بل فوجئت بالحوائل تعترض سبيلهما . **وفى لحظة واحدة ، اذا بهما يضعفان .. وتبقى المسكينة ـ بعد هذه اللحظة ـ تبكى ذنبا دفعتها اليه كل الظروف المحيطة بها ..** اما كان أحق بالانسان أن يموت ؟.. ولكن الموت لا يستجيب لطالب !

ويقبل المركيز فابيو - وهو نبيل فى الثالثة والاربعين من عمره - فيهتف بمادلين فى اضطراب : « اذهبى اليها .. لا تدعيها وحدها ! » . وما أن تخرج السيدة ، حتى يقول لموريس : « افتظن انك وجدت علاجا ناجعا ؟.. انك لاتفعل أكثر من وضع « الروج » على وجه المريضة ، فتكسبه مظهر العافية .. المظهر فقط !.. اننى أتعذب ياموريس .. اتعذب من أجل هذه المخلوقة التعسة ، ومن أجل نفسى ! »

موريس : اذن فاترك الأمر لى ، ودعنى أضع « الروج » كما تقول ، فان الأمر لا يحتمل ارجاء . تعال معى وقابله ، اذ أنه نزل بالفندق المجاور على بعد خطوة واحدة .. تعال لتتفق معه ، فان شروطه جد يسيرة .. انه لا يطلب أكثر من تسوية ماضيه ، فان عليه بعض الديون !

فابيو : كم ؟ أكثيرة هى ؟.. آه ، هذا ماكنت اتوقعه !

موريس : وهل بلغ بك التفكير انك كنت تريده بلا ديون ؟.. ان ديونه قليلة - على أية حال - ولكنى أؤكد لك انه رجل ذو أخلاق .. **وتتمثل أخلاقه فى قوله : « أسهل على المرء أن يكون بطلا ، من أن يكون شريفا ! »**

فابيو : بربك يا موريس لا تمزح ، فانى اتألم حقا .. أهو متواضع كما ينبغى ؟

موريس : انه متوسط فى كل شىء ، وان كان شكله يثير بعض التساؤل . فاذا قبلته الآنسة أجاثا .. ولكنى واثق من أنها ستقبله .. بل ستشكرنى من أجله . وسوف ترى أنه سيكتسب ثقتها سريعا !

* * *

• **وينصرف** موريس ليدعو الرجل من الفندق ، فيغادر فابيو الحجرة ، ثم لا يلبث أن يعود مهرعا وراء أجاثا .. وهى شابة فى السابعة والعشرين من عمرها ، تندفع بسرعة ،

وهى تقول : « دعنى .. دعنى ارحل بعيدا ! » .. دعونى أجن .. بل دعونى أموت ، فماذا بقى لى ؟ »

مادلين : انتظرى حتى يراه فابيو ويكلمه .. وحتى تريه أنت الأخرى !

أجاثا : أنا ؟!.. لا ، لا .. الا تدرون انكم تعذبوننى ؟.. الا ترون انها وحشية تلك التى تتبعونها معى !

فابيو : صبرا حتى تريه ، فاذا لم يعجبك فارفضيه .. وانا أيضا سأرفضه اذا لم يرق لى !.. انها وحشية حقا ، ولكن .. **هل لديك الشجاعة كى تواجهى الموقف معى برأس مرفوع دون ان نعمل حسابا للناس ؟**

مادلين : ماذا تقول يا فابيو ؟.. انك رجل وبوسعك أن تسخر من الفضيحة .. اما نحن فامرأتان ضعيفتان لا حول لنا ولا قوة ، وسيحل العار بنا وحدنا .. علينا ان نختار واحدة من اثنتين : اما الفضيحة أمام الجميع ، واما ..

وهنا تقاطعها أجاثا ، لتتم لها العبارة فى سخرية مريرة : **« واما الفضيحة امام رجل واحد !.. يجب ان أبقى مع هذا الرجل واتطلع الى وجهه .. هذا الرجل الذى يعرف ، والذى يتصف بالخسة ، اذ يرضى بهذا الوضع !.. دعونى ارحل ! »** .

ولكن أمها تقول : « بل امكثى .. يجب ان نبقى هنا جميعا ، ونقتسم ثلاثتنا الألم ، كما اقتسمنا الخطأ ! »

أجاثا : ولكنه سيبقى هنا .. اتتصورين هذا ؟.. سيبقى هنا ، دائما معنـــا .. رجل يعرف السر الذى نخفيه عن الجميع !

فابيو : وسيهمه هو أيضا أن يخفى السر .. من أجل نفسه !

وتنبعث طرقات على الباب ، فترتجف أجاثا ، وتجذب أمها مغادرتين الحجرة ، بينما يقبل موريس ومعه «بالدوفينو» .. وهو رجل فى الأربعين ، بادى الفاقة ، ولكنه جاد المظهر ،

صارم النظرة ، تنم حركاته وأساريره على أنه عاش حياة قاسية ، خرج منها بفلسفة خاصة مفعمة بالسخرية والتسامح معا !.. وما ان يقدم موريس كلا من فابيو وبالدوفينو الى الآخر ، حتى ينصرف

★ ★ ★

• **ما أن** يخلو الجو لبالدوفينو وفابيو ، حتى يضطجع الأول فى مجلسه ، ويثبت نظارته على قنطرة أنفه ، ويسأل المركيز ان يسمح له بتوجيه بعض اسئلة . ثم يخرج من جيبه مفكرة يقلب صفحاتها ، وهو يقول : « لقد دونت مذكرات عن الظروف الحاضرة ، ويبدو لى أن علينا أن نناقشها أولا ، لأتأكد من دقة معلوماتى ! » .. ويقرأ شيئا فى المفكرة ، ثم يقول : « انك يا سيدى .. عشيق الآنسة طبعا ! »

فابيو : أوه ، كلا ! .. اسمح لى .. ولكن .. !

بالدوفينو : هاقد بدأنا نراوغ منذ السؤال الأول !.. ان لى كرامة أنا الآخر ، ولست مستعدا لقبول مهزلة مهينة دون أن أعرف تماما موضعى فيها ، فأرجو أن تحدثنى بصراحة ، والا فسوف انصرف !

فابيو : دعك من الثورة ، ولنتفاهم فى هدوء ..

بالدوفينو : **لقد فهمت أن مهمتى أن أحافظ على شرف الآنسة ، أعنى صورة الشرف !**

ويستطرد قائلا ان للموقف نتائج أخرى أولها انه سيكون قاسيا . واذ تتجلى الدهشة على فابيو ، يقول الرجل : « أجل ، سأكون قاسيا بحكم الظروف ، ولأشرح لك الأمر . لم أكن انا الذى ارتكب الخطأ ، وانما ارتكبته انت . فاذا تقدمت انا لانقاذ الموقف ، وجب أن أحد من حريتكما ـ انت والآنسة أجاثا ـ حتى نحافظ على مظهر الشرف الذى نبتغيه !.. ثم ان عليكم انتم الثلاثة ان تدينوا لى بالاحترام .. باحترام يليق بالصورة التى أمثلها هنا !.. اننى أتستر على الأمر

لصالحك ، ولصالح الآنسة أجاثا بوجه خاص . ولذلك فان عليكما أن تدينا لى بالاحترام التام .. ولكنكما فى الحقيقة لن تحترمانى أنا ، وانما ستحترمان الصورة التى أمثلها .. صورة الرجل الشريف ، زوج المرأة الشريفة !.. انك رجل مهذب تعرف ظروفك الخاصة التى تجبرك على ألا تكون شريفا فى أعمالك . ولكنك فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تتغاضى عن الشرف ، ولذلك فانك تحاول أن تعوض بى أنا ما ينقصك فى أفعالك من الشرف . **واذن فيجب أن أمثل أنا شرفك انت : وهذا يعنى أن أكون الزوج الشريف لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجتك ، والأب الشريف لطفل لا يمكن أن ينسب اليك .. أليس ذلك صحيحا ؟..** ولكن ، هب أن الزوجة كانت زوجتك أنت وليست زوجتى أنا ، وان الطفل طفلك وليس طفلى ، ألا ترى انه لا يكفى أن أكون أنا وحدى شريفا ، بل يجب أن تكون انت الآخر شريفا أمامى ؟ **حتما يجب أن أكون شريفا ، وكذلك أنت وجميع من هنا .. بالقوة »**

وينزعج فابيو اذ يلحظ ان بالدوفينو يحاول أن يغير الشروط التى تبيح له استمرار الاتصال بأجاثا ، فيتساءل عما اذا كان يرمى بذلك الى تغيير الشروط الموضوعة ، فيجيب بالدوفينو : « ان المظاهر التى تريد حفظها لا يمكن أن تكون أمام الناس فقط ، بل ستكون هنا أيضا بالنسبة اليك .. فكر فى الأمر .. بل يجب أن تستشير الآنسة أجاثا كذلك .. لسوف انصرف الآن ، وسأنتظر بالفندق حتى تخبرنى بما يستقر عليه الرأى »

ويسير نحو الباب ، لكنه يلتفت قبل خروجه قائلا : « وعلى أى الأحوال يا سيدى ، تستطيع أن تثق أنت والآنسة أجاثا من كتمانى الشديد للسر . ومهما يكن من أمر ، فسأبقى دائما عارفا لجميل صديقى القديم موريس ، اذ أوجدنى فى هذا الموقف »

الفصل الثانى

• **ويدور** الفصل الثانى فى نفس قاعة الجلوس بدار آل « رينيه » ، فنرى شخصا فى الخمسين من عمره ، بادى الخبث والمكر — هو « فونجى » صديق فابيو — وقد انهمك فى التهامس مع المركيز ، بما يوحى بأنهما كانا يدبران مكيدة لبالدوفينو ، اذ يكرر « فونجى » خلال همسه عبارة : « لقد وقع فى الشرك » . ثم يشير بأصابعه قائلا : « ثلاثمائة ألف فرنك .. سيكون مشهدا كوميديا رائعا .. دعنى اعمل يا صديقى ، وسنستدرجه الى المصيدة بلطف ! »

ويغادران الحجرة ، فيقبل بالدوفينو وموريس الذى عاد أخيرا من سفر ، والذى راح يقول لصديقه : « بلغنى انك المتصرف هنا فى الأموال . ولكنهم يشكون من تقتيرك ! »

بالدوفينو : وماذا تريدنى ان أكون .. أن لا اعرف للنقود قدرها ؟

موريس : آه ! .. انك سيد من يقدرها ، ولكنهم يقولون ان بوسعك ان تكون أقل شحا !

بالدوفينو : ولم ؟ .. أترانى أمسك يدى من أجل نفسى ؟.. كله من أجلهم هم ؟.. ثم اننى أرى ان الحال لن تستمر طويلا على هذا الوضع .. انظر الى فعال ابن عمك !.. انه ليتمنى ان يتخلص منى بأسرع ما يستطيع ، برغم اننى انفذ اتفاقنا بحذافيره !

ويمضى فى الشكوى من ان الأسرة أصبحت تضيق به ، ولا تحفل بارضائه ، ثم يقول : « ولو اننى غادرت هذه الدار ، فسيقولون أن السيدة طلقت من زوج لم يكن كفؤا لها . **ومن ثم فسيصبح لها العذر — وهى صغيرة وجميلة — فى أن توثق الود مع صديق قديم للاسرة .. وكل الذى كان محرما عليها وهى عذراء ، سيغتفر الناس لها اتيانه وهى**

امرأة مطلقة ، غير مقيدة بالاخلاص لزوج !.. ثم اننى اذا غادرت هذا البيت ، فلن يحيق الضرر الا بالطفل الصغير .. ولكن ، هل هناك من يهتم للطفل ؟ »

ويعترف موريس بأن الاسرة أوفدته ليغريه على التخلى عن اسم «سيجسموند» الذى اختاره للطفل ، ولكن بالدوفينو يتشبث بالاسم قائلا انه اسم أبيه وجده ، ثم يقول : « أليس من حقى أن اسمى ابنى .. تذكر اننى أبوه ، ولو فى نظر الناس ! »

* * *

• **وينصرف** بالدوفينو ، فيظل موريس جامدا فى مكانه . ولا يلبث فابيو ومدام مادلين ان يلجا الغرفة ، فيسأله كل منهما بايماءة من رأسه ، دون ان يتكلم . فيهز رأسه اشارة النفى . ويظل ثلاثتهم صامتين ، محزونين .. وفجأة ، يهم موريس بالانصراف ، فتحاول مادلين استبقاءه ، ولكن فابيو يصيح : « دعيه يذهب ، فانى لأعجب من انه يجد الجرأة على البقاء هنا ! »

وندرك سر سخطه حين يذكر ان اجاثا شغلت عن العالم بطفلها ، حتى انها تحتفظ بسعادتها رغم افتتان زوجها فى تنغيص حياتها !.. وتبدى مادلين توجسها من استفحال سلطان بالدوفينو على الأسرة . وما ان ينصرف موريس ، حتى يقبل القس ليقوم باجراءات التعميد . ويطلب بالدوفينو فما ان يفد هذا مرحبا به ، حتى ينبئه القس بأنه جاء ليتفق معه على موعد التعميد . وهنا يتشبث بالدوفينو بأن يجرى الاحتفال فى الكنيسة ، وليس فى البيت . واذ تعارضه مادلين وفابيو ، يجيب فى عنف : « ماكنت لأهتم بمثل هذا الأمر لولا أنه متعلق بالطفل .. يجب اجراء التعميد فى صورة كاملة ، وهو ما لا يتيسر الا اذا حملنا الطفل الى الكنيسة .. ان ابانا

القس يدرك ــ ولا ريب ــ مدى ما فى التعميد البسيط ، الذى يقام فى بيت الله ، من طهر وتقوى .. أليس كذلك ؟ »

ويقره القس على ذلك ، فيستأنف الرجل حديثه قائلا : « ثم اننى لست الوحيد المهيمن على شئون الطفل ، بل هناك أمه ايضا ، ويجب معرفة رأيها ! » .. ويكلف خادما بدعوة أجاثا ، ثم يغادر الحجرة حتى لا يؤثر على رأيها . وما ان تقبل الشابة ، وتلم بموضوع الخلاف ، وبرأى بالدوفينو ، حتى تقول : **« حسنا .. ليكن رأيه النافذ مادام القس يقره ! »**

وتنزعج مادلين ، ولكنها تبرح الحجرة لترافق القس فى انصرافه . وتمكث « أجاثا » شاحبة الوجه ، واذ ذاك يقترب منها « فابيو » ، وهو يهتز انفعالا ، ويهتف : « اجاثا .. لقد نفد صبرى ! » . وتشير الشابة الى الباب الايسر ، الذى كان بالدوفينو خلفه ، فيصيح : **« ها أنتذى تتصرفين مرة أخرى كما يريد .. هو ! »**

أجاثا : وما العمل اذا كان ما أراده صحيحا فى هذه المرة أيضا !

فابيو : بل قولى انه حطم ارادتنا منذ دخل هذا البيت .. لقد تحولت انت الأخرى .. تغيرت !.. اصبحت تفعلين ما يريد ، ولم تعد بيننا صلة !

فتسأله أجاثا : « الا ترى ذلك فى صالحى ؟ » ، ولكنه يسألها من ناحيته : « وحبنا ؟! » ، فتجيبه : « دعك من هذا ، فهو لن يجلب لنا ــ اذا تمادينا فيه ــ سوى العار .. العار لنا جميعا ، وليس له هو ! » .. **ويحاول فابيو ان يضمها ، فتقاومه ، ولكنه لا يفلتها ، بل يكرر انه سيطرد بالدوفينو فورا ، لأنه لص .. ويستطرد قائلا : « أجل ، لقد سرق ما يزيد على ثلاثمائة الف فرنك »** . وهنا يدخل بالدوفينو ، فيرى المشهد ، ويقول متهكما : « آه ، لا تؤاخذانى !.. كان يجب أن تحتاطا ، فربما كان الذى باغتكما أحد الخدم ! »



أجاثا (وهى ترتجف) : لم تكن بنا حاجة لاغلاق الأبواب .. لقد قلت نفس القول للمركيز .. على أن لديه امرا يحب أن يتفاهم معك بشأنه !

بالدوفينو : معى أنا ؟! (يتحول الى فابيو) ماذا لديك ؟

فابيو : لا .. ليس الآن

أجاثا : بل أريدك على أن تكلمه الآن .. أمامى !

بالدوفينو (بتهكم) : لعل السيد بحاجة الى بعض الشهود

فابيو : لست فى حاجة الى أحد .. انك اختلست ثلاثمائة الف فرنك .

بالدوفينو (مبتسما فى هدوء) : لا ، بل أكثر من ذلك .. خمسمائة وثلاثة وستين ألفا (يخرج من جيبه الداخلى خمس ورقات مليئة بالأرقام ، فيتأملها ويقول) خمسمائة وثلاثة وستين ألفا وسبعمائة وثمانية وعشرين فرنكا وستين سنتيما .. أكثر قليلا من نصف مليون !

فابيو : مهما يكن الرقم ، فلك ان تحتفظ به ، ولترحل من هنا .

بالدوفينو : ان الأمر أخطر كثيرا مما تتصور .. (لأجاثا) أرجو سيدتى أن تقترب وتسمعنى جيدا .. (تقترب أجاثا منه متوجسة) ولتتكرم سيدتى بدعوتى لصا ، ولكننى أرجو ألا تصدق ذلك لأول وهلة (مشيرا اليهما بالأوراق) اذ يتبين من هذه الحسابات اننى سجلت المبلغ كربح للسيد من الشركة

ويذكر بالدوفينو لأجاثا كيف ان فابيو اتفق مع فونجى على ان يستدرجاه الى ان يستولى على المبلغ ، دون ان يسجله

فى حساباته ، ثم يكشفا الأمر أمام الملا — فى المأدبة التى تقام بمناسبة تعميد الطفل — ليتسنى طرده من البيت .. ويدفع بالدوفينو بأوراق الحساب الى فابيو قائلا : « خذها ياسيدى .. مزقها ان شئت ، فالمبلغ بأكمله فى الخزانة ، ويجب أن تسرقه انت بنفسك ! دعنى اشرح لك الأمر .. **ان عليك — بعد أن آثرت أنا الشرف — أن تفعل مايلى : ان تسرق النقود فى الخفاء ، ثم تتهمنى بسرقتها . وبذلك تجد السبب الكافى لطردى من هنا . نعم ، يجب أن تفعل ذلك حتى أرحل عن البيت ! »**

أجاثا : لا ، لا .. بل يجب ان تبقى ، والا .. فماذا يكون من امر ابنى ؟

ويعلن الخادم مقدم فونجى وبعض الضيوف ، فيقترح فابيو ارجاء الجدل ، ولكن بالدوفينو يقول : « لقد عقدت عزمى ، وأنا الآن متأهب للرحيل ! »

أجاثا : قلت لك اننى لا اريد ذلك .. هل فهمت ؟

الفصل الثالث

• وترفع ستار الفصل الثالث عن بالدوفينو . وقد جلس فى حجرة مكتبه بملابسه الرثة — التى ظهر بها فى الفصل الأول — وتبدى عليه الحزن ، واعتمد وجهه بين راحتيه ، بينما كانت مادلين تخاطبه فى قلق ورجاء : « قدر الموقف ! » .. وتذكره بأن الطفل وحده هو الذى سيتأثر من جراء رحيله ، فيرفع رأسه قائلا : **« وفيم يهمنى ذلك الطفل ؟ .. ثم اننى لا أحفل بأن يستأنف المركيز علاقته معها .. وانا واثق من انه سيفعل ذلك .. والا ، فلماذا أسس شركته هذه ؟ »**

مادلين : لماذا ؟ .. ربما ليشغلك بها !

بالدوفينو : تماما .. وليستمتع هو بحريته هنا ، بينما

أكون مشغولا هناك .. ثم أن ابنتك ..

مادلين (قاطعة عليه حديثه) : لا ، لا .. ان أجاثا بريئة !

بالدوفينو : ياللسماء ! انت اذن عمياء عن هذه النقطة ..

مادلين (تقاطعه) : بل هى الحقيقة

بالدوفينو : الا تخيفك الحقيقة ؟.. ألا يجعلك هذا نفهمين أن الواجب يقتضينى ان ارحل ، وان عليك أن تذهبى لتقنعى ابنتك بضرورة رحيلى ، بدلا من بقائك هنا ؟

ولكن مادلين تصر على ان أجاثا راغبة فى بقائه فيصيح : **« أرجوك ! .. لم يعد لى بقاء هنا ، فمن الضرورى لكم — كى تستطيعوا ان تظلوا مطلقى الحرية — أن أسرق . وبما اننى قررت ألا أسرق ، فيجب ان يقوم المركيز نفسه بالسرقة ثم يلصقها بى ! »**

ويفد موريس فى تلك الاثنـــاء ، فما أن يراه بالدوفينو حتى ينفجر ضـــاحكا ويقول : « أجئت أن الآخر لترجونى الا ارتكب هذه الحماقة ؟ »

موريس : انما انا هنا ، لأنك انت الذى ارسلت تسألنى الحضور !

بالدوفينو : آه .. هل جئتنى بالمائة فرنك التى طلبتها منك ؟.. اننى مستعد للرحيل ، وكنت فى حاجة اليها لأرحل بهدوء .. (يتحول الى مادلين) لقد كان المركيز مصرا على ابقائى فى البيت ، حتى يطردنى بتهمة السرقة ، ولكن .. لا توجسى منى خيفة ، فلن أعود الى المطالبة بالطفل بعد ثلاثة أو أربعة أعوام ، اذ ما جدوى الطفل لى ؟ اما اذا كنتم تخافون أن أهددكم بعد رحيلى بالفضيحة ، طمعا فى أموالكم ..

موريس : كفى ، كفى .. ان أحدا هنا لا يفكر على هذا النحو

بالدوفينو : انما أريد أن يأخذ المركيز النقود بنفسه (يدخل المركيز مضطربا شاحب الوجه) أجل ، سيأخذها بيديه !

فابيو (مقتربا من بالدوفينو) : آخذ النقود ؟ يا الهى .. هل تركت ، هل تركت مفاتيح الخزانة مع أحد غيرك ؟ .. يا الهى !

بالدوفينو : لا تهتموا (يخبط على صدره مشيرا الى جيبه الداخلى) ان النقود هنا معى .. لقد قلت لك أن أحدا لا يستطيع التلاعب بى

فابيو : قل لى بصراحة .. الى أين تريد الانتهاء ؟

بالدوفينو : ألم تكن تريد اتهامى بسرقة النقود ؟

فابيو : ولكنى لم أعد أريد ذلك الآن

بالدوفينو : ولكننى أصبحت أريده الآن . ألم تقل بالأمس للسيدة أجاثا أن النقود فى جيبى .. حسنا ، انها فى جيبى الآن ، فماذا أنت فاعل ؟.. سأرحل بالنقود لأتيح لفونجى الفرصة التى كان يتمناها .. بل اننى سأخبره بأنى سرقت ليفعل ما كان يريد !

فابيو : ولكن لماذا ؟.. اننى بنفسى أرجوك أن تبقى

بالدوفينو : وكيف تريدنى الآن أن أبقى يا سيدى ؟



فابيو : « لقد قلت لك انى نادم .. اننى نادم حقا لما فعلته بالأمس !

★ ★ ★

• **ويأبى** بالدوفينو أن يستجيب فتهتف مادلين فى ضراعة : « يا سيدى .. اننا جميعا نريدك على البقاء ! » . فيصيح بالدوفينو : « جميعا ؟! » ، ثم يلتفت الى موريس قائلا : «أجل ، انك تريدنى بحكم الصداقة » ، ويلتفت الى مادلين : « وأنت

تريديننى من أجل الطفل ! » .. ثم يتحـــول الى فابيو قائلا : «ولكن ،أنت ؟.. لماذا تريدنى !» .. فيقول فابيو : « من أجل الطفل كذلك ! »

بالدوفينو (مسددا بصره الى عينى فابيو) : ومن أجل من غير الطفل ؟ .. ان لى حياة انا الآخر .. هل تروننى خلقت لأكون فداء للطفل ؟.. لن أبقى ، ولن يستطيع أحد منكم أن يرغمنى على البقاء !

ويسودهم صمت واجم . وفى تلك الأثنـاء ، تقبـل أجاثا شاحبة الوجه ، وفى عينيها وميض العزم . فيحول بالدوفينو بصره عنها ، وكأنه يخشى أن يضعف أمامها . وتسأل الحضور أن يدعوها تتحدث الى زوجها على انفراد ، ولكنه يقول وقد نكس بصره : «لا .. لقد صممت !» .. ولكنها تلح عليهم ، فيخرجون . واذ ذاك تقول له : **« ما جئت لأرجوك أن تبقى ، وانما جئت أعلنـك باننى راحلة معك ! »** .. ويسـكت قليلا ، وهو يغالب عواطفه ، ثم يقول : « فهمت .. ان امرأة مثلك لا تعلن استعدادها للتضحية ، وانما هى تقدم عليها .. لا ، لا .. يجب الا تفعلى ذلك . اننى أمنعك ! »

أجاثا : لن تستطيع ، فأنا زوجتك ، هل تريد أن ترحل ؟.. ليكن ، وانى لأوافقك ، ولسوف أتبعك أينما ذهبت !

بالدوفينو : أين ؟ ماذا تقولين ؟.. أشفقى على وعلى نفسك .. يجب أن تفهمى ، فانى أمامك .. فانى امامك لا استطيع الكلام ! لن تقدرى أبدا مدى خجلى من ذلك الدور الذى قمت به

أجاثا : نحن الذين طلبنا منك القيام به . وقد نبهتنا مقدما الى نتائجه !

بالدوفينو : وما كان يجب أن توافقى .. تلك غلطتك ، فما كنت انا الذى تكلم وقتها ، وانما كان شبحا منى جديرا بالرثاء .. وكنتما امرأتين تعستين تحزنان فى أفراح الوجود وتفرحان فى أحزانه : أم مسكينة سمحت لابنتها بممارسة حب لا يسمح

به القانون ، وفتاة ميالة الى رجل ، فهى تنسى أنه مقيد الى امرأة أخرى .. ثم ها أنت ذى أم حقيقة ، أما انا فماذا اكون بالنسبة لابنك ؟.. الا تفهمين ماذا ينطوى عليه هذا الموقف ؟

أجاثا : آه .. فالطفل اذن هو الحائل بيننا ؟ لأنه ليس ابنك ؟

بالدوفينو : كلا .. ماذا تقولين ؟ افهمينى جيدا . انك تتكلمين الى صورة أب ، وليس لأب حقيقى !

أجاثا : بل انى أكلمك أنت .. كرجل !

بالدوفينو : فماذا تعرفين عنى اذن ؟ من أنا ؟

أجاثا : ولكن تلك هى حقيقتك ظاهرة أمامى .. ان لك أن ترفع عينيك ، امام الجميع ، لأنك أنت الوحيد هنـــا الذى يخجل من أخطائه !

بالدوفينو : ماكنت أظن أبدا أن القدر يتيح لى أن أسمع مثل هذه الكلمات (يضطرب فجأة ، وكأنه يفيق من سحر) لا ، لا .. الا تعرفين انى لا أستحق شيئا ؟ الا تعرفين أننى أخفى بجيبى أكثر من خمسمائة ألف فرنك ؟!

أجاثا : لا بأس ، سأتبعك أنا وابنى فى نفس الطريق !

بالدوفينو : اتتبعيننى حتى ولو كنت لصا ؟!

ثم يتهالك فى مقعده مأخوذا ، وتطفر من عينيه دموع تشى بانفعال عميق ، فيخفى وجهه فى كفيه . وتنظر اليه أجاثا لحظة ، ثم تتجه الى الباب منادية : «ماما .. ماما !» . وتدخل الأم فلا تلبث أن تقف مذهولة عندما ترى بالدوفينو والدموع فى عينيه . واذ ذاك تقول أجاثا : « بوســعك أن تقولى لهذين السيدين انه لم يعد لهما مكان بهذا البيت ! »

بالدوفينو : لا ، انتظرى .. ليس هى ، بل أنا .. (يخرج من جيبه حافظة ضخمة) النقود ! (يحاول أن يمسح دموعه ، فتسرع أجاثا وتقدم اليه منديلها . ثم يأخذ يدها فى يده وقد ارتسمت البهجة على وجهه قائلا) الآن .. سأعرف كيف أكلمهما !



مصير البشرية

أبقاء ونماء .. أم اندثار وفناء ؟!

للباحث العالمى: "ب . ل . دى نووى"

تلخيص : أنطون العبيدى

طريق البشرية .. نحو الكمال !

• أكد الباحث العالمى « دى نووى » ـ فى الحلقات التى قدمها لك « كتابى » من هذا البحث العلمى الجليل ـ ان لا خلاف هناك بين العلم والدين ، لأن مصدرهما واحد . وانما نشأ الزيغ الذى حمل فريقا من الناس على انكار وجود الله ، عن تقدم العلم الذى بهر الجماهير بغزواته وكشوفه التى تلاحقت بسرعة مذهلة ، فأضلت الناس عن القيم الروحية !.. ولقد آمن المؤلف المحقق ، بأن العلم وحده هو القمين بأن يعيد الى البشرية صوابها ـ بعد ان أضلها ـ لتواصل سيرها نحو الكمال . ومن ثم وضع هذا الكتاب ليثبت بالحقائق العلمية ما أورده الدين عن الانسان . وهو فى الحلقة التى نقدمها اليوم ، يحدثنا عن النهج الذى ينبغى للبشرية ان تنهجه فى رقيها المنشود !

الحاجة الى انقلاب فى نظم التعليم

• **بدأ** العقل تطوره وارتقاءه منذ ملايين السنين ، ويلوح ان نماءه قد توقف منذ حوالى عشرة آلاف سنة . ذلك ان الانسان الذى صنع ـ فى العصر الحجرى ـ القوس والسهم من لاشىء أو يكاد ، هو الذى يصنع اليوم الطائرة الموجهة ، مستعينا بالمكتشفات العلمية الحديثة التى تكدست لديه عبر الأجيال ، حتى ليمكن القول بأن العقل يخلق منتجاته الحديثة بجهد أقل من الجهد الذى كان على أسلافنا الأقدمين أن يبذلوه لصنع ادواته البدائية !.. فالعقل فى هذا الطور من تاريخ البشرية متوقف عن النماء ، وينبغى أن تلحق به الروح . ولن يتحقق هذا الا بالرقى الخلقى والارتفاع بالقيم الروحية . **وعلى هذا فلزام علينا أن نجعل للتعليم الدينى مكانا فى مدارسنا ومعاهدنا العلمية وجامعاتنا الى جانب التعليم العلمى البحت .. ان علينا أن نحدث انقلابا فى نظم تعليمنا وانماط حياتنا على أساس**

كهذا . ومع ادراكنا لمدى حب الناس لهذه الحضارة المادية البحتة ، ووعورة الطريق الذى ينبغى أن تسلكه البشرية لتحقيق هذا الحلم ، الا أننا نؤمن ايضا بكرامة الانسان وبانه لا يرضى عنها بديلا بتلك المنافع الوقتية !

ان القواعد الخلقية محدودة العدد . وهى هى فى كافة الأقطار والأمصار ، وتتبلور كلها فى أنه ينبغى للانسان أن يدرك الفارق بينه وبين الحيوان وأن يحيا حياة انسانية . ولقد جهدت الأديان فى مختلف العصور أن تنشر هذه التعاليم بين العامة ، ولكنها لم تصب قدرا كبيرا من النجاح . فقد خلف مؤسسى الأديان أشخاص جعلوا همهم الأول محاربة بعضهم بعضا ، فمزقتهم المنازعات ، ومن ثم ضاعت فى خضم هذه الخلافات الجهود المبذولة فى سبيل الرقى الروحى .

ان سعادة الشعوب فى السلام ، والسلام لا يتحقق الا بالتعاون بين المذاهب الدينية التى ينعدم معها التشكك والحيرة ، ومن ثم تتغلغل المبادىء الخلقية فى سواد الناس ، فلا تعود وقفا على قلة من البشر — هم الذين تهذبت نفوسهم — فى حين تبقى الجمهرة فى معزل عنهم . وعلينا أن نفيد الى جانب هذا من منتجات العقل على النحو الذى نساير به ركب التطور ونرقى معه روحيا وخلقيا . وهذا يجرنا الى حديث الحضارة الذى سنتناوله فيما يلى :

الحضارة .. ثمرة كفاح الجسد والروح !

• **ألمعنا** من قبل الى أن التقاليد لعبت فى الماضى دورا كبيرا فى نمو الانسان . فقد توارث النوع البشرى من قديم الأزمنة عادات فى السلوك والحياة اليومية كان من شأنها دفع عجلة التطور الانسانى ، بل كان من شأنها التأثير فى بناء المخ ذاته .. والمخ هو مستقر العقل ، فكل تغير يطرأ عليه يؤثر فى النشاط العقلى ان قليلا أو كثيرا . والعقل يصنع الحضارة ، ويحطمها

ـ عندما تصبح غير ملائمة لأحوال نمـائه ـ لكى يقيم على أنقاضها حضارة أفضل . وقد شرحنا كيف نشأ الانسان متميزا عن الأنواع الحيوانية العديدة ، وراح يشق طريقه مصعدا نحو النماء والكمال . ومع وعورة الطريق فان الانسان بلغ ـ آخر الأمر ـ الغاية التى استهدفها ، وهى النفوق على الكائنات الحيوانية الأخرى والسيطرة على قوى الطبيعة . وهذا الكائن المتفوق ظهرت منه عبر الحقب والأجيال أنواع عديدة تلاشى بعضها بحكم سنة التطور ـ اذ ثبت أنه لا يعين على نماء النوع واكتماله ـ فتلاشت مع تلك الأنواع حضاراتها . على أن هذه الحضارات البائدة لم تختف قبل أن تترك للأجيال التى تليها تراثا . ولعل أسمى ما توارثته البشرية عن الحضارات القديمة ، هو الشعور الدينى والخلقى وحب الجمال والنزوع الى الرقى العقلى ، تلك المثل العليا التى وضعت أسسها فى أحد العصور المتحضرة القديمة أشد القدم ، وشيدت عليها عبر الأجيال مثل أخرى ارتقت بها البشرية .

ولكن .. ما هى الحضارة أولا ؟ .. ان الحضارة هى ما يسجله النوع البشرى من تقدم فى أى عصر من العصور ، مرتقيا به عما كان عليه فى عصر سابق . وهذا التقدم مستمر ومضطرد .. بدأ أول الأمر كفاحا من أجل الحياة ـ فى مرحلة التطور البدنى ـ ثم غدا كفاحا من أجل الروح والسمو الخلقى ، فى مرحلة التطور العقلى والروحى . وكان لابد له أن يتراوح بين الشدة واللين عبر العصور ، ولكنه لم يقف قط ، لأن الوقوف معناه عدم مسايرة سنة التطور والارتقاء .. والتقدم ـ الذى يسجله النوع البشرى فيما يعرف بالحضارة ـ هو الرقى بشطريه : العضوى ، الذى يتضمن اكتمال جسد الانسان .. والديناميكى ، الذى يهدف الى تزايد القوة الدافعة الى الارتقاء .. **وهذه القوة الدافعة هى القوة الروحية التى تعمل باطراد على أن ينسى الانسان أبدا ما يحرزه من تقدم**

مادى ، حتى ينتقل من تقدم مادى الى آخر ، مبتعدا طورا بعد طور عن حيوانيته الأولى . وبعبارة وجيزة يمكن تعريف الحضارة بأنها ثمرة الكفاح بين ما يتبقى فينا من الحيوانية ، وبين المثل الخلقية التى تشكل حقيقة شخصيتنا

والناحية المادية من الحضارة ليس لها خطر يذكر اذا قيست بالناحية الخلقية والروحية .. وليست طائراتنا وانماط حياتنا اليومية الحديثة دليلا على تقدمنا ورقينا ، فما عرف قدماء المصريين هذه الأشياء ، ومع هذا فقد كانوا على جانب كبير من الثقافة والمعرفة . ذلك لأنها أشياء قد تزول وتتلاشى بينما يبقى على الزمن ما تحرزه البشرية من تقدم فى المجال الروحى والخلقى .. فالتقدم الحق هو تقدم الانسان لا تقدم الأدوات التى يستخدمها فى حياته اليومية .. هو التقدم الروحى وليس المادى !

على الانسان أن يعلم أن عقله قاصر !

• **وفى** الطور الحيوانى من تاريخ البشر – أى الى ما قبل نشوء الضمير – كان كل هم الانسان منصرفا الى اشباع شهواته البدنية . والحيوان لا يأثم ، لأنه لا يدرك .. انه عار ولكنه لا يخجل من عريه . فلما نشأ الضمير عند الكائن الانسانى ، أدرك أن عليه أن يميز بين سلوك وسلوك ، وان يختار لنفسه ما يريد منهما . وهذا المعنى تعبر عنه أصدق تعبير هذه العبارة الوجيزة فى سفر التكوين فى التوراة : « لقد عرفا أنهما عاريان » (يقصد آدم وحواء)

ومن الناس من لا يفقه القيم الروحية ، وانما يحصر تفكيره فى الآليات المادية دون سواها ، متشبثا بالعقل وحده ، ومؤمنا بأن ما لا يهضمه العقل لا وجود له ! **وهذا الطراز من الناس يغفل حقيقة هامة ، هى أن وراء العقل أشياء محجوبة عنه بحكم قصوره عن ادراك كل شىء . وينبغى أن تستهدف**

الحضارة اخراج هؤلاء الأفراد ـ وما أكثرهم ! ـ من جمودهم الفكرى ، وتوسيع آفاقهم الذهنية حتى يستطيعوا مسايرة ركب التطور ، فلا يقفوا والعالم يسير . وهناك طراز آخر من الناس يسايرون التطور ولكن بدافع الخوف من أن يحق عليهم العقاب . وهؤلاء قد يكونون نواة طيبة ، ينبغى للحضارة أن تهذبهم وتصقل عقولهم وتغير آراءهم فى السلوك بما يكفل لهم السمو الخلقى المنشود . ثم ، هناك طراز ثالث ـ هو القلة النادرة ـ تنطوى جوانحه على حب التضحية والايثار ، تعمر بهما قلوبهم ، فيقدمون عليهما كخصلتين أصيلتين فى ذواتهم .. هؤلاء لا يتكلفون السمو الخلقى ولا يصطنعونه اصطناعا .. بل انهم رواد البشرية الذين ينبغى للحضارة انماءهم حتى يؤدوا الدور المنوط بهم فى الرقى بالمجتمع الانسانى

الانسان الأسمى فى طريقه الى الظهور !

• **واذا** كان العلم قد دلنا على أن حقبا طويلة من الزمن انقضت قبل أن يستوى جسم الانسان ويكتمل جانبه العقلى، فخليق بنا ألا نتوقع أنه بالغ الغاية ـ فى رقيه الروحى ـ فى وقت قريب

ولسنا نقول ان اشباع الشهوات البدنية اثم فى ذاته ، وانما نقول ان الاسراف ـ بحيث يصبح الانسان عبدا لهذه الشهوات ـ هو الاثم بعينه . ذلك لأن خلايا المخ لا تنمو نماءها الطبيعى الا عندما يكون الجسم فى حالة طبيعية من الصحة . ولن يتسنى الاعتدال فى الشهوات الا بالاستماع الى صوت الضمير ، وبسيطرته على الغرائز البدنية . فلا بد للروح والجسد من ان يعيشا فى انسجام تام . وعلى الانسان ان يكافح ذاته حتى يكفل هذا الانسجام .. ويقول دعاة المذهب المادى ، فى هذا الصدد : « ان اطاعة الدوافع الغريزية أمر طبيعى ميسور ، ومقاومتها أمر غير طبيعى ولا ميسور . فلماذا نعقد

الأمور ونفرض على الناس تلك القيود التى يريد الأخلاقيون فرضها عليهم ؟ » . **والحق ان الماديين انما يهدفون بهذه الدعوة الى انتكاس البشرية وعودتها الى العبودية والأسر .. انهم يبيعون الكرامة الانسانية بالخضوع المطلق للشهوات والميول البهيمية ، ولا يبقون حتى على حرية الاختيار التى منحتها الطبيعة للانسان منذ فجر التطور !**

بيد انه لا ينبغى لنا التشدد الى أقصى حد فى هذه النقطة .. فالطور الذى نجتازه الآن طور انتقالى يمهد لظهور الكائنات البشرية العليا ونشوء الانسان الأسمى فى آخر الأمر . قد يدوم هذا الطور مئات الأجيال ، ولكن لابد من أن يتصل الكفاح والجهد ، وألا تغفل البشرية لحظة عن هدفها . فالانسان الاسمى ليس وهما ولا خرافة ، ولكنه وجد من قبل ، وسيعود فيما بعد ! .. وجد من قبل فى أشخاص الأنبياء والرسل والشهداء — الذين ضحوا بأنفسهم وبذلوا حياتهم فى سبيل المثل العليا التى جاءوا ليحققوها وينشروها بين الناس — وسيعود عندما يبلغ تطور النوع البشرى درجة من الكمال الخلقى يتبوأ معها عرش السيادة المطلقة على ذاته الحيوانية ، فلا تعود هذه الذات تجذبه اليها ، ويخبو كل ما لها من سلطان !.. وفى مقدورنا أن نقصر المرحلة الراهنة الى حد كبير . اذ أن طولها وقصرها يتوقفان على الانسان وعلى مايبذله من جهد فى كفاح غرائزه الحيوانية ، أى على مجاهدة كل واحد منا لشهواته الدنيا .. **ويمكننا القول ان الطور الجديد قد بدأ بالفعل .. فان افرادا عديدين — وان كانوا قلة بين جمهرة الناس — يستشعرون سعادة باطنية غامرة فى النأى عن الحيوانية وسلوك الطريق الانسانى فى الحياة .. طريق الفضيلة والحب والايثار . وهذه القلة من الناس هى التى ستقود البشرية نحو هدفها الأسمى**

• اننا شديدو التعلق بملذاتنا الحسية . وهذا يدل على

أن أصلنا الحيوانى ما يزال موجودا فينا . بيد أن ثورة بعض الأفراد على هذا الوضع وانتقاضهم عليه يدل على وجود شيء آخر فى ذواتنا .. على وجود النزوع الى التحـرر من ذلك الأصل . فلم يعد الانسان يؤمن ايمانا أعمى بالقدرية القديمة .. لم يعد كيانا طبيعيا كيميائيا فحسب ، وانما هو الى جانب هذا ـ بل وفوق هذا ـ عقل وروح ، لهما حياتهما الخاصة التى يجب أن يرقيا بها باطراد !

لن نستطيع الحياة .. بالعلم وحده !

• **والشعور** الدينى شعور فطرى كامن فى النفس البشرية، عرفه الانسان فى كل عصر وفى كل مكان . وقد ظل خفيا هاجعا زمنا طويلا ، قبل أن يظهر فى المجتمع الانسانى أفراد نبهوه وأيقظوه وبذلوا فى سبيل هذه الغاية جهودا مضنية ، بل بذلوا حياتهم نفسها .. فقد ظهر فى مختلف العصور زعماء روحيون تصدوا لقيادة الجماهير وارشادها فى شتى نواحى الدين . بيـد أن هؤلاء القادة لم يسايروا ركب التطور ولم يلقوا بالا لما طرأ عبر الأجيال من تغير فى الفكر الانسانى . وكان جـديرا بهم أن يوائموا بين المعتقدات الدينية الموروثة وبين تعبيرات العـلم الحديث .. **فان الاعتقاد الشـــائع ـ فى عصرنا الحاضر على الأخص ـ هو ان بين الدين والعلم خلافا شديدا ، وان هناك حقائق يقررها العلم ولا يقرها الدين ، وحقائق يقررها الدين ولا يقرها العلم . وكان ينبغى لرجال الدين أن يبينوا للنـــاس ان هذا الخلاف ليس سوى وهم مزعوم ، وانه لا يمكن أن يكون ثمة خلاف بين العلم والدين لأن مصدرهما واحد !**

وكان من نتيجة هذا القصور من جانب رجال الدين ، أن نشأت ونمت تلك المذاهب التى تقول ان العقل وحـده هو الذى ينبغى له أن يقودنا فى المجال الدينى والمجال الدنيوى على السواء . بيد أن كثيرين أبوا اعتناق هذه المذاهب ، وظـلوا

مقيمين على عقيدتهم وعقيدة آبائهم فى الغيبيات .. تلك الأشياء التى نحسها فى أعماق ذواتنا ، والتى تدلنا بيقين ــ اذا ما تأملناها وسبرنا أغوارها ــ على ان تعبيرات العقل وحدها لا تكفى لتفسير أكثر حالات النفس وعجائب الكون . فلزام علينا فى طورنا الحاضر ، أن نبدل أساليبنا فى هذه الناحية من نواحى الفكر البشرى . وهذا يقتضينا أن يتعاون المربون والقادة الروحيون مع العلماء ، وان تتضافر جهودهم لخلق جيل جديد يتفهم الحقائق الدينية على ضوء المقررات العلمية

بهذا ، وبهذا وحده ــ فيما نعتقد ــ نستطيع أن ننشىء جيلا جديدا غزير المعرفة قوى العقيدة .. هذا الجيل هو الذى سيرقى بالبشرية ، ويمهد لنشوء الجيل الأسمى خالصا من كل أثر للحيوانية .. جيل الانسان البحت !

فكرة الخالق .. وقدرته غير المحدودة !

• **نوهنا** فى فصل سابق تنويها خاطفا عن الالكترون والبروتون والنترون ، تلك الجزيئات الدقيقة أشد الدقة ، التى لا سبيل الى ادراك وجودها ، ولا سبيل ــ مع ذلك ــ الى انكار وجودها لما يثبته العلم الحديث من آثار ملموسة لها .. ونحن نسوق هذه الحقيقة العلمية لأولئك الذين يقولون انهم لا يؤمنون بوجود الله لأنهم لا يستطيعون ادراك وجوده . اذ كيف يؤمنون بتلك الجزئيات التى لا سبيل الى رؤيتها أو ادراكها ــ وان كانت تنم عن وجودها بآثارها ــ ولا يؤمنون بوجود الله بحجة انه لا يمكنهم تصوره أو ادراك وجوده ؛

على أن الملحد قد يتأمل الكون ويؤخذ بالانسجام التام ، والتوافق العجيب الذى تعمل به عناصر هذا الكون وقواه الدافقة ، فيرجع كل هذا الى بضعة عناصر يقول عنها انها قوام الكون ، رغم انه لا يعرف عنها سوى النذر اليسير . ولا شك أن النظر العلمى البحت لا يفسر الكثير من غوامض الكون وأسرار الطبيعة

ـ التى لا يزال العلم حتى الآن يقف حيالها حائرا ـ وعلى الأخص مشكلة نشوء الحياة .. تلك المشكلة التى لم ير الباحثون والعلماء امكان حلها الا بافتراض قوة تعلو الكون وتسيطر على كل مايحتويه وتسود قوانينه وتوجهه نحو غاية مرسومة . ويؤثر بعض العلماء استخدام اصطلاح «مضاد المصادفة» بدلا من كلمة « الله » . والواقع أن التعبير الأول قد يكفى للدلالة على بعض العوامل العليا ، التى تؤثر فى الكون المادى . ولكنه غير كاف للتعبير عن العلة الغائية ـ أو الغاية ـ الأولى التى هيأت ظهور الحياة ووضعت النواميس الكلية التى يسير الكون على مقتضاها

ان وجود الله لا يقع تحت حواسنا ، القاصرة بطبيعتها عن ادراكه ، وانما نحن نقبل هذه الحقيقة ـ ونسلم بها ـ حين نبذل الجهد لادراكها .. ذلك لأن هذا الجهد ذاتى ينبع من باطننا . أما ما نصل اليه نتيجة لهذا الجهد ، فليس هو الذى يثبت لنا وجود الله ، اذ أن هذه النتيجة ثمرة لعمل حواسنا القاصرة ، فهى بالضرورة قاصرة عن اثبات تلك الحقيقة الكلية المجردة . وسنجد فيما يلى الدليل على صحة ذلك :

نحن عبيد الماضى .. وأمل المستقبل !

• **للنشاط** النفسى جانبان ، يشمل أولهما الدوافع الذاتية والنوازع الموروثة أو المكتسبة من البيئة ، ويشمل الثانى الحوادث « السيكولوجية » ـ النفسية ـ التى لا يمكن ردها الى علل موضوعية . ويندرج تحت الجانب الأول : الفطرة والعقل المحض والأحاسيس ، وتندرج تحت الجانب الثانى الأفكار المجردة ، من خلقية وروحية .. والأولى هى التى تربطنا بالبيئة التى نعيش فيها وتجعل منا وحدة من وحدات الكون باعتباره كلا مكونا من أجزاء .. أما الثانية فلا تربطنا مع البيئة أو الكون المحس بأى رباط ، بل هى تسمو

بنا فوقهما ، باحثة عن جوهر أسمى .. عن كون فوق كوننا المحس ، يسوده ويوجهه مثلما يسيطر الوحى والالهام على الفنان ويوجهه عندما يصنع أثرا من آثاره الفنية . تلك هى الأفكار الرياضية والجمالية والخلقية والروحيـــة . والأفكار المجردة تثير أوجه الخلاف القائمة بين الأشـيـاء ، أما الأفكار الأخلاقية فتثير الخلاف القائم بين الذات وبين مستودعها ، أى الجسم الانسانى الذى يحملها . ان جسمنا يدخلنا فى نطاق الحياة المتطورة ، الذى يضيق شيئا فشيئا حتى ينحصر فى الحياة البشرية . ولكننا بأفكارنا الأخلاقية والروحية ننتسب الى الكائن الكامل الذى يسعى التطور منذ القدم الى أن يحققه. **فنحن من ناحية متضامنون مع جميع الكائنات التى سبقتنا ، ونحن نحمل عبء هذه الوراثة فى كافة صورها .. ونحن من ناحية أخرى أسلاف لجنس أرقى وأسمى ، سيجىء بعدنا ويحاول أن يتحرر منا ، على نحو ما يفعل فرخ الدجاج حين يحطم قشرة البيضة ليتحرر من سجنه ويرى النور . اننا فى آن واحد عبيد الماضى وأمل المستقبل . ومن ثم فان لنا الى جانب نشاطنا البدنى نشاطا نفسياً يعى مطالب الغد ويعمل جاهدا على التمهيد لتحقيقها .**

وعلى هذا ، فنحن نتصور الأشياء بحواسنا وبما تكدس فى أخيلتنا من ذكريات الماضى ، وعلى الأخص تلك الذكريات التى انطبعت فى أذهاننا بفعل حاسة البصر . ونحن نقتبس هذه الصور من البيئة التى نعيش فيها .. على اننا نعرف أن الصور التى تصنعها أحاسيسنا لما حولنا وللكون ، ان هى الا صور ناقصة ، ولا تطابق الحقيقة مطابقة تامة ، بل كثيرا ما تكون مخالفة للواقع على ما ذكرنا فى فصل سابق حينما تكلمنا عن خداع الحواس . أما الأمور غير المحسوسة ، فهى خارجة عن نطاق تصورنا ، وهى ليست الأشياء ذاتها وانما هى علائق بين الأشياء . انها فى حقيقتها مجردات ، بيد أنها

تستعين أحيانا بالأشياء المحسوسة وتتخذ منها أدوات لتتشكل بها فى أخيلتنا !

فكل تصور لله انما ينبع بالضرورة من حواسـنا ومن استجاباتنا لمؤثرات الطبيعة فى ذواتنا . وينبنى على هذا انأيه صورة نتصورها لله ، ليست موضع شك وجدل فحسب ، بل هى صورة خاطئة بالتأكيد . ومن ناحية أخرى فان فكرة الله هى من المجردات ، كفكرة القوة أو الطاقة التى لاتحتاج الى أن نتصورها ولا يمكن أن نتصورها .

ولقد قال الفلاسفة منذ أقدم العصور أن الكون كله منسجم انسجاما تاما ، تتضافر عناصره للاحتفاظ بكيانه وانسجامه . ثم نشأت ـ من تقدم العلم وتكشف الكثير من أسرار الطبيعة ـ فكرة التفرقة والتميز بين العلم العضوى والعالم غير العضوى . ووضح للناس أن العلم لا يبسط جناحيه على هذين العالمين جميعهما .. وضح هذا من تلك الحقيقة التى عرفت من قديم ، وهى أن العلم ـ الذى يقوم أصلا على أسس احصائية وعلى ملاحظة الظواهر وتحديد علاقاتها بعضها ببعض ـ انما يفسر ظواهر العالم غير العضوى ، وينطبق على المادة الجامدة وحدها ، بدليل أنه عجز عن تفسير الظواهر السيكولوجية واستعصت عليه حتى الآن أسرار الحياة وغوامضها

الحياة الروحية المحضة آتية .. رغم أنف الماديين !

● على ان فريقا من العلماء المحدثين يذهب فى الثقة بالعلم الى أبعد مما ينبغى ، ويقول ان العلم لا يتجزأ ، وانه ان عجز اليوم عن الاحاطة ببعض الظواهر وتفسيرها والكشـف عن نواميسها ، فهو لابد بالغ يوما ما هذه الاحاطة ، كاشف تلك النواميس . ومن عجب أن هؤلاء العلماء يجانبون العلم وهم يقولون بهذا .. ذلك أنهم يتشبثون بمجرد أمل فى أن يبلغ العلم فى مستقبل قريب ـ أو بعيد ـ ذلك الحد من الشمول

الذى يرتقبونه . فهم يستبدلون بالعقيدة الفطرية والايمان بالحقائق المجردة ، سرابا ومذهبا يقوم على العواطف فحسب .. على مجرد أمل قد يتحقق وقد لا يتحقق !

ان الاحداث التى توالت على العالم فى أطواره المتعاقبة تدلنا ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ على أنها تعمل عملا متواصلا على استمرار الكون وبقاء الأنواع . كان الانسان البدائى يقتل أخاه ويسلبه ماله دون أن يخشى عقابا ، اذ لم تكن تسود علاقاته بأمثاله سوى شريعة الغاب . وكان كل همه محصورا فى اشباع نوازعه الحيوانية وفى انجاب البنين . واليوم تقول لنا العقيدة الباطنية والايمان الفطرى : لا تقتل ولا تسلب مال أخيك ولا تعتد على عرضه والا حق عليك العقاب . **أفيريد أولئك القائلون بالمذهب المادى وأولئك العلماء الكذبة أن يلغوا ألف مليون سنة من التطور الذى بلغ بنا الى هذا المستوى الرفيع فى تاريخ البشرية ؟** .. تقول النظرية الغائية ان للتطور هدفا يسعى لبلوغه ، وهو الوصول بالانسانية الى حياة روحية محضة لا يشوبها شىء من رواسب الحيوانية الأولى ، ولابد للبشرية من بذل جهود مضنية لبلوغ هذه الغاية ، ومن ان تبذلها راضية ، لأن كرامة الانسان تقتضيها ومصير البشرية يحتمها ويتوقف عليها

.. وبالحياة الروحية .. يصل الانسان الى الكمال !

• **هذا** عن فكرة الخالق ـ فى ذاتها ـ أما عن قدرته اللانهائية ، فينبغى الا نسىء فهمها ، وعلينا ان نحاول ادراكها على حقيقتها . ذلك أن فهمها على غير حقيقتها انما يؤدى بنا الى مذهب القدرية المطلقة ، ويعود بنا الى تلك العصور المظلمة التى شاع فيها الاعتقاد بسلطان قاهر غاشم كان الناس ينسبونه الى الألوهية ويخشونه ويرتعدون خوفا منه وهلعا .. **فى تلك العصور كان الناس يعزون الى الآلهة الجبروت والطغيان ،**

ويرجعون اليها كل ما كان يصيبهم من المحن وكل ما كان يقع عليهم من مظالم . وكان الانسان فى نظرهم لا يكاد يرتفع عن الحشرة ، تسحقها القوى العليا فى غير شفقة أو رحمة . أما اليوم فقد حلت محل هذه الفكرة الخاطئة فكرة الاله الذى يفيض حبا وحنانا وشفقة على مخلوقاته ، وخاصة على الانسان الذى تميز عن سائر المخلوقات ، وخصه الله بالعناية والايثار !..
هذا الى ان مذهب القدرية يتعارض تماما مع التطور كما عرفناه فى الفصول السابقة ، وكما أدركنا نواميسه وطرائقه بما لا يدع مجالا للشك فى أنه يعمل عملا متواصلا متجها صوب غايات وأهداف معلومة

فقد ذكرنا عن المراحل الأولى من تطور النوع الانسانى ان الله خص الانسان بالضمير ومنحه حرية الاختيار التى تميز بها عن الحيوان . والمتأمل فى هذه الميزة لا يلبث أن يرى فيها حدا من سلطان الله وقدرته .. فالله تبارك وتعالى – اذ نزل للانسان عن هذا القدر من سلطانه – أراد له التحرر والانطلاق من العبودية التى كان يرسف فى أغلالها من قبل . وللحرية ثمنها .. وهو بالنسبة للانسان الكرامة التى ينبغى له الحفاظ عليها والتشبث بها ومجاهدة العوامل التى تنتقص منها . فان هو لم يحفل بكرامته وأساء استعمال حريته ، تردى الى الحيوانية التى أراد الله له التحرر منها .. **وان قدرة الله غير المتناهية لتبدو فى هذا المستوى الرفيع الذى بلغه الانسان . فهو يدرك الآن انه بالغ يوما مرتبة الكمال الانسانى ، وان هذا ليس وهما من الأوهام ، ولا حلما من الأحلام ، وانما هو حقيقة لابد من التسليم بها .** فقد وجد بين النوع الانسانى – فى مختلف العصور – أفراد بلغوا فعلا هذه المرتبة ، وهم الرسل والأنبياء الذين تجردوا من البهيمية تجردا تاما فصفت نفوسهم وسمت أرواحهم وضربوا للبشرية أروع المثل فى الكمال الخلقى

(يتبع)


THE
SYMPOSIUM
BY
PLATO
دستور الحب
في جميع العصور!
الحب.. الأفلاطوني
للفيلسوف الأشهر
أفلاطون

« الحب الأفلاطونى » .. على المائدة !

◆ « الحب الأفلاطونى » !.. كم من مرة قرأت هـذا التعبير ، وسمعته ، فتقبلته كحقيقة واقعة ، أو نظرية ثابتة .. وربما استخدمته فى أحاديثك كقضية مسلم بها ، ولكن : هل عرفت كيف ظهرت هذه الحقيقة ، أو النظرية ، أو القضية ؟.. ان « كتابى » يقدمها لك فيما يلى ، ملخصة عن « المائدة » ، التى تعتبر من أبدع محاورات أفلاطون . فقد درج هذا الفيلسـوف اليونانى الخالد على ان « يصب » نظرياته فى شكل حوار ، بين شخصيات يورد على ألسنتها الآراء والحجج ، مستخلصا فى النهاية ما يهدف اليـه .. وفى حديثه عن « الحب » ، تصور الفيلسوف اليونانى مأدبة ضمت عددا من أهل الفكر ، لتكريم الشاعر «أجاثون» ، الذى فاز بالجائزة السنوية فى فن « التراجيدى ».. وبعد ان أورد أفلاطون كل ما قيل عن الحب ، على ألسنة بعض الحضور ، أورد على لسان « سقراط » أبدع تحليل للحب وطبيعته ، قبل أن يصل الى نظريته

والآن .. تعال نقرأ معا هذا الحوار البديع ، لنعرف ما هو « الحب الأفلاطونى » !

سقراط .. الذاهل أبدا !

◆ **اجتمع** نفر من الأصدقاء عند « أجاثون » الشاعر : منهم المؤلف ، والممثل الكوميدى ، ورجل الأدب ، والطبيب ، ورجل السياسة النابغة .. والتفوا حول المائدة فى انتظار « سقراط » الفيلسوف ، وقد تأخر عن موعده . فلما طال الانتظار ، أوفد « أجاثون » أحد عبيده فى طلبه ، فما لبث الخادم ان قال : « لقد وجدت سقراط واقفا فى ناد مجاور ، وهو ذاهل عن كل شىء .. حادثته فلم يجب ، وصحت به فلم ينتبه ! »

ولكن سقراط لم يلبث أن أقبل ، وهم منصرفون الى مآكلهم ، فحيوه جميعا ، وأحلوه مكان الصدارة منهم ، اذ أجلسه



« أجاثون » الى جواره لعل القرب
أن يوصله الى شيء من علمه !
.. على أن سقراط ـ بما عرف
عنه من تواضع شديد ـ قال :
« اذا كان للحكمة أن تنتقل من المستوى الأعلى الى المستوى الأقل ، فانما ستنتقل منك الى !»
.. وأكلوا ، ثم شربوا خمرا ،
وما لبث « أركسيماخوس » أن
اقترح ان يصرفوا المنشدة التى
كانت تغنى لهم ، كى يفرغوا
الى الحديث . واقترح أن يكون حديثهم عن الحب !

الحب يجعل من الجبان شجاعا !

• **واذ** أعجبت الفكرة سقراط ، اقترح أن يبدأ « فييدرس » بعرض ما لديه من آراء فى الحب ، فقال هذا :

ـ ان الحب هو أقدم الآلهة ، وأسمى ما يوجد من العواطف بين الناس .. تغنى به الشعراء جميعا ، فلم ينكر قدره أحد منهم . وها هو ذا « هزيود » يخبرنا بأن اول الموجودات هو « العدم » ، ثم نشأت فيه الأرض الواسعة ، وبعدها جاء الحب .. ثالث الموجودات !.. كذلك يقول « بارمنيدس » أن أول اله وجد فى الكون ، هو اله الحب . والحب هو الباعث الأول على الخير ، فالمحب يأبى الا أن يكون حسن الخلق أمام حبيبه ، والجبان لا يلبث أن ينقلب شجاعا أمام عينى من يعشق .. **ولعمرى ان خير ما يفعله من ينشىء دولة هو أن يؤلف جيشا من المحبين ، فان مثل هذا الجيش لا يمكن الا أن يكون مظفرا لا يهزم قط !**

ولكن «بوزانياس» لم يوافق «فيدرس» ، فاعترض قائلا :

« لا ، اننى لا اوافق فيدرس على نظرته هذه الى الحب ، فهو لا يفعل أكثر من أن يمتدحه ويسهب فى الاعلاء من شأنه ، فحسب ، دون أن ينظر فى طبيعة الحب ، أو يحاول تحليله .. **ولكن الحب ـ فيما أرى ـ نوعان : أرضى ، وسماوى . فالحب الأرضى هو أوضع العواطف ، لأنه منتسب الى الربة «أفروديت» الصغرى ، التى جاءت من اتصال جنسى محض بين « زيوس » و « ديون » ، ومن هنا فان هذا الحب يكون دائما متصلا بالنساء فقط !.. فهو حسى محض ، لايمت الى الروح بصلة !** .. أما الحب الآخر ـ وهو منتسب لأفروديت الكبرى ـ فانه يكون عادة بين رجل ورجل ، وهو روحى لا يمت الى الجسد بسبب ، بل يتصل بالعقل ويقوى العواطف السامية عند الأفراد !.. لذلك فنحن هنا لا نخجل من سلوك المحب ، مهما تهالك على محبوبه وسعى وراءه ، بينما نخجل كل الخجل اذا فعل الرجل ذلك من أجل غاية أخرى غير الحب .. كالمال أو الجاه !»

واذ حان دور الحديث على «أرستوفان» الشاعر، لم يستطع أن يتكلم لما ألم به من الفواق (الزغطة) من جراء الافراط فى الأكل والشراب ، فقال للطبيب أركسيماخوس : «اما أن تشفينى من الفواق ، أو تتولى أنت الحديث فى دورى » . فقال الطبيب: « سأقوم بالأمرين معا ، فأحل محلك فى الحديث ، ثم تحل أنت مكانى بعد أن تكون قد شفيت »

الحب يصون صحة البدن !

• **وبعد** ان نصح أركسيماخوس لأرستوفان بما يعفيه من الحاح الفواق ، شرع يدلى برأيه فى الحب ، قائلا : « لقد بدأ بوزانياس حديثه بداية رائعة ، بيد أنه لم ينته الى نتيجة تذكر .. وقد أحسن اذ جعل الحب نوعين ، ولكنى أزيد عليه أن كلا من النوعين يجب أن يجد من القيود بين المحبين ما يمنع

من المغالاة فيه ، فان المغالاة تفسد كلا من نوعى الحب . ثم ان الحب لا يقتصر على الانسان فحسب ، بل انه يشمل باقى الموجودات كلها ، فهو علة النظام فى هذا العالم . **وعلى ضوء مهنتى كطبيب ، فانى أضرب مثلا بأثر الحب فى جسم الانسان .. ذلك أن تناسق عناصر الجسم ، وانسجام أعضائه ، وملاءمة كل جزء فيه للاجزاء الأخرى ، تعتبر فى رأيى نوعا من الحب ، اذ يكون الجسم متمتعا بالصحة !** أما اذا اختلت هذه الملاءمة وذلك التناسق ، فان الجسم لا يلبث ان يستسلم لصنوف المرض .. وليس عمل الطبيب الماهر سوى اعادة التناسق والملاءمة الى الجسم ، أو فلنقل : اعادة الحب بين أجزائه !.. فالحب النبيل هو أساس التوافق فى كل شىء .. انه أساس الصحة والجمال والخير . أما الحب الدنىء فهو الذى تنتج عنه الشرور بأنواعها ، كاختلال النظام فى الجسم أثناء المرض ، وهو أيضا مصدر الخطيئة بصنوفها المختلفة ، ذلك أن الانسان اذا اتجه الى اشباع الحب النبيل كانت أفعاله كلها خيرة طيبة ، أما اذا انصرف الى اشباع حاجته من الحب الدنىء ، فانه يتردى فى الاخطاء والزلات على تنوعها ! .. **وهكذا ترون أن للحب سلطانا شاملا لا يعادله شىء آخر فى السمو ، فهو مصدر كل خير وسعادة ، وهو الذى يحفظ الود والانسجام بيننا وبين الناس الآخرين .. وبيننا وبين الآلهة !** .. ذلكم هو رأيى فى الحب ، ولعل أرستوفان أن يتدارك ما أكون قد وقعت فيه من الخطأ أو السهو .. او فليعرض علينا رأيه اذا كان قد تخلص مما ألم به من أمر الفواق »

الانسان يبحث عن نصفه الآخر !

• **قال** أرستوفان : « حسن .. لقد تخلصت من الفواق بعد أن عطست مرتين ، ولكن قل لى يا أركسيماخوس : لماذا يشعر المرء بلذة تصاحب العطس ؟ .. هل ترى الحب السامى

هو الذى يثير هذه اللذة ، أو الحب الدنىء ؟ » . فرد عليه أركسيماخوس : « أتسخر منى يا عزيزى أرستوفان ، أم انك ترمى الى اضحاكنا ؟ » . فأجاب ارستوفان : « انى آسف جدا لما بدر منى ، ولو ان الضحك لا يختلف كثيرا مع طبيعة الموضوع الذى نتحدث فيه . والواقع أننى لم أعجب بالنهج الذى التزمتموه فى الحديث حتى الآن ، وسأتخذ لى نهجا جديدا ، اذ يخيل الى ان الناس لا يعرفون قيمة الحب كثيرا ، والا لأقاموا لربه معبدا يختلفون اليه !.. أما أنا فسأتولى تعريفكم بقيمة الحب حتى تنقلوها الى الناس ، وقد يحسن بى أن أعود الى القديم ، حيث كان الانسان مختلفا عما هو الآن .. كانت المخلوقات أنواعا ثلاثة : رجل ، وامرأة ، **وجنس ثالث يجمع صفات الرجل والمرأة جميعا ! له جسد أشبه بالكرة ، وأربع أيد ومثلها من الأرجل ، ووجهان : أحدهما من الخلف والآخر من الأمام ، فى رأس واحد يدور الى جميع الجهات .. وله أذنان ، وعضوان للتناسل : ذكر وأنثى !**

« وكانت المخلوقات التى من هذا النوع تستعمل كل ما لها من هذه الأعضاء ، فتيسر لها قوة خارقة وبأس شديد ، فما لبث الغرور أن ملأها ، فتكبرت على الآلهة حتى أنها سخرت منها وهاجمتها .. وآذى كل ذلك شعور الآلهة ، فغضب كبيرها زيوس ، ولكنه لم يشأ ان يرسل على المخلوقات الصواعق لئلا يفنى الجنس ، ويحرم من عبادتهم له الى الأبد !.. ففكر وتدبر ، ثم اذا به ينتهى الى حل غريب ، يذهب ببأسهم ، ولكنه — فى الوقت ذاته — يبقى عليهم .. اذ قال زيوس : « سأقسم كل واحد من هذا الجنس الى شطرين ، وبذلك تضعف قوتهم ، فاذا تمادوا فى غيهم فسأعود الى تقسيمهم ، حتى يمشى الواحد منهم على قدم واحدة ، فيكون أضعف من أن يفعل شيئا ! » .. وشطر زيوس كل واحد من هذه الكائنات الى قسمين ، ثم أمر « أبولو » بأن يدير رأس كل شطر نحو الشطر الآخر ،

ليتبين كل من الشطرين ما ألم بكيانه عقابا على طغيانه ، فأطاعه « أبولو » وأدار الرؤوس ، ثم عالج الجروح ، فسوى الصدر وجمع الجلد الممزق الى البطن ، وترك حول « السرة » بعض التجعيدات ، ليذكر المخلوق بما جره عليه طغيانه !

وهامت المخلوقات على الأرض حزينة مذعورة ، يبحث كل شطر منها عن نصفه الآخر ، فاذا وجده التحم به فى عناق شديد وكأنه يريد ان ينضم اليه من جديد . ويظلان متعانقين بهذا العنف حتى يموتا جوعا !.. فاذا مات أحدهما قبل الآخر ، بحث النصف الثانى عن شطر آخر يلتحم به حتى يموت ، وهكذا !

الحب .. يهبنا السعادة والكمال !

• **واستطرد** ارستوفان قائلا : « على أن زيوس لم يرتح الى هذه الحال ، اذ أوشك الجنس البشرى على الفناء ، فأجرى فيهم تعديلا جديدا ، اذ نقل أعضاءهم التناسلية من الخلف الى الأمام ، وبذلك تيسر للذكر منهم أن يتصل بالأنثى . فيتم التناسل ويتكاثر الجنس البشرى . واذ يشعر كل من الجنسين بلذة من أثر هذا الاتصال ، فانه لا يلبث ــ بعد أن يرتوى ــ ان ينصرف الى مزاولة عمله ، فتعمر الأرض .. **ومنذ ذلك الوقت البعيد ، نشأ الحب الذى يربط بين الناس ويشعرهم بالسعادة ، لانه يجعل من الشطرين الناقصين كائنا واحدا كاملا .. كما كانا من قبل !**

وعندما يلتقى كل شطر بنصفه الآخر ــ على هذه الأرض ــ فانهما يتصلان وينشأ بينهما نوع من الود والتعاطف والقربى ، لا يستطيعان معه فراقا حتى موتهما . ولا يمكن أن يقال أن ذلك الحب المتبادل بينهما مرده الى اللذة الجنسية فحسب ، بل انه اشد وأعمق من ذلك ، لأنه يعيد الى الانسان الكمال الذى كان عليه ، ولكنهما لا يعرفان ان ذلك هو السبب ، فيبقيان

فى حيرة من أمرهما . لماذا يتحابان بمثل هذه القوة ؟ .. ان المحب ليندمج فى محبوبه ، فيصبحان شخصا واحدا ، يتمنى كل منهما أن يعيش مع الآخر أطول مدة ممكنة ، وأن يموت معه اذا مات ، فيذهبا الى الآخرة كائنا واحدا !.. وما ذلك الحب فى طبيعته الا تعبيرا عن شوق الانسان الى العودة لأصله الأول ، ليغدو كائنا كاملا ، ولن يتحقق له الكمال الا اذا أجتمع كل من نصفيه فى وحدة واحدة متكاملة !.. ومن هنا نميل الى الخوف من الآلهة ومحاولة ارضائهم . وما هذه المحاولة وذلك الخوف الا تعبيرا عن خوفنا من أن نشطر من جديد ، فنصبح انقص مما نحن الآن .. **ومن ثم فالحب هو الاله الأكبر الذى يجب علينا طاعته واتباع أوامره ومطالبه ، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يهبنا السعادة والكمال فى هذه الدنيا !**

« هذا هو حديثى عن الحب ، وهو ــ كما ترون ــ يختلف عن حديثكم السابق .. والآن ، لم يبق سوى أجاثون وسقراط ، فلنستمع الى مالديهما ! » . وهنا صاح أركسيماخوس : « لقد أمتعنا حديثك بحق ، ولولا علمى بأن أجاثون وسقراط من أهل العلم الكثير ، لأشفقت عليهما .. فماذا يتيسر لأحد ان يقول بعد الذى قلته انت لنا ؟ » .. فقال سقراط : « هذا حق يا صديقى اركسيماخوس ، ولو انك كنت فى مكانى لشعرت بالحرج وجزعت ، فان أجاثون سيقول فيسهب ويبدع . ولست أدرى ما الذى سيتبقى لى من حديث بعده ! »

الحب .. أرق الآلهة وأخفها وأصغرها !

وبدأ أجاثون الشاعر كلامه قائلا : « احب أن أبدأ حديثى عن شىء فاتكم جميعا ، فقد عكفتم على وصف آثار الحب ، ولم تحاولوا وصف الحب نفسه .. فالحب هو أجمل الآلهة وأكثرها سعادة .. وهو أصغر الآلهة ، ما فى ذلك من شك ، وآية ذلك أنه دائما مايعيش بين الشباب ويهرب من الشيخوخة .

وهو مرهف الحس ، يكره العنف والشر . . **انه اله رقيق خفيف ، يعيش فى أرق الأماكن وألطفها : فى قلوب الناس وأرواحهم ، وبين الزهور وفى الربى اليانعة .. أينما حل يحل معه السلام والوفاق والانسجام !..** فالحب ــ لهذا كله ــ خير وعادل أيضا ، لا يلجأ الى العنف قط ، سواء بين الآلهة اوبين البشر . فالكل مستعد لأن يطيعه ايا كانت مطالبه ، لأنه مرغوب . ولو أطاعه الجميع لساد العدل !

« والحب يتحلى بالعفة وضبط النفس ، لأنه قوى وكل اللذات والرغبات أضعف منه . فهو المسيطر عليها ولا ريب . وهو شجاع لأنه يأسر الجميع ولا يستطيع أحد أن يأسره . . كذلك هو حكيم وشاعر ، لا يكاد يمس أحدا من الناس حتى ينقلب شاعرا ولو لم يكن قد نظم من قبل بيتا واحدا . . بل انه هو الذى أسبغ عليه الآلهة كل ما يتحلون به من الصفات ، كل فى ميدان عمله . . وقد كانت السماء من قبله مسرحا للمشاحنات والصراع بين الآلهة ، فما ان ولد حتى عم السلام ، وانتشر الوئام بينهم جميعا . . وان هذه الفكرة لتلهمنى شعرا ، فاسمحوا لى أن أقول :

« هو السلام للناس والهدوء للبحر
« هو المسكن للرياح ، والنهاية لمتاعب العمر »

« انه الحب ، مصدر كل جميل فى هذا العالم . . انه ساحر الناس . . والآلهة »

سقراط .. يتحدث عن الحب !

• **وانتهى** ارستوفان من حديثه . . وحان دور سقراط ، فمهد الحكيم الكبير لحديثه قائلا : « أرأيتم كيف كانت مخاوفى صحيحة ؟ . . ما الذى أستطيع ان أقوله بعد ذلك الشاعر الملهم ؟ . . على اننى لا أستطيع ان أسلك فى الحديث مسلككم ، اذ يخيل الى انكم تتظاهرون بامتداح الحب أكثر مما تمدحونه

حقيقة . فقد خلعتم عليه من الصفات النبيلة ما هو فيه . وما ليس فيه .. ولست أملك ان أجاريكم ، بل اننى لا أستطيع الا ان اقول الحق على طريقتى .. فاذا قبلتم شرطى هذا ، فاسمحوا لى ان أوجه الى أجاثون بعض الأسئلة ! »

واذ وافقوا على شرطه ، ورحب أجاثون بالأسئلة ، قال سقراط : « لنجمل النقاش الذى دار .. فأولا : أليس الحب تعلقا بشىء ، وبشىء ينقص الانسان فهو ينشده ؟ » .. وأجاب أجاثون : « بلى ! » . فقال سقراط : « وقلتم ان حب الجمال يتمشى مع خصال الآلهة ، ولا حب هناك للقبيح .. ألم تقولوا شيئا فى هذا المعنى ؟ » .. فأجاب أجاثون : « بلى ! » .. ومن ثم عاد سقراط يقول : « اذن فالحب هو عشق الجمال لا القبح .. وقد أقررنا بأن الحب يتجه دائما الى شىء يشتهيه الانسان ولا يملكه » . وأمن أجاثون على قول الحكيم ، وهنا استطرد سقراط فى جدله المنطقى متسائلا : **« اذا كان الحب عشقا لشىء ينقص المحب ، واذا كان « الحب » الها يحب الجمال ، فمعنى ذلك ان الجمال ينقصه ! »** .. ثم خلص من جدله قائلا : « فهل تصفون بالجمال من يفتقد الجمال ولا يمتلكه ؟.. وهل بعد ذلك تقولون ان الحب جميل ؟ »

وبهت أجاثون ، ولكنه لم يقو على الانكار . واذ ذاك عاد سقراط يقول : « بقى سؤال صغير : أليس الخير جميلا هو الآخر ؟ » .. وكان الجواب بالطبع : « بلى ! » ، فاستطرد قائلا : « اذن ، فالحب اذ يفتقد الجمال ، يفتقد الخير أيضا ؟ .. هذه هى الحقيقة التى لا سبيل الى نقضها !.. والآن ، أستأذنكم فى أن أروى قصة عن الحب ، سمعتها عن الحكيمة « ديوتيما » ، فهى التى علمتنى فن الحب .. وسأبدأ بكنه الحب وطبيعته . لقد أثبتت لى الحكيمة ما قلته لكم من أن الحب ليس جميلا ولا طيبا ، فهتفت : « ماذا تعنين ، أهو شر وقبح ؟ » ، فأجابت : « صه ، وهل لا بد لما هو غير جميل

من أن يكون قبيحا ؟ » .. وراحت تبرهن على قولها : فالذى تنقصه الحكمة ليس جاهلا بالضرورة ، اذ أن بين الحكمة والجهل حال وسط تتمثل فى « الرأى الصائب » .. وكذلك الحب وسط بين الجمال والقبح ، وبين الخير والشر . ولما كانت الآلهة تتصف بالسعادة - وهى اقتناء كل ما هو طيب وخير - وبالجمال ، فمعنى هذا ان الحب ليس الها ولا ربا ! »

« الحب » ساحر ، ومشعوز ، ودجال !

• **واستطرد** سقراط فذكر ان الحكيمة خلصت من جدلها الى ان الحب ليس كائنا فانيا كذلك .. وانما هو كائن وسط بين الآلهة والبشر .. **« انه ليس خالدا ، ولا فانيا ، وانما هو روح عظيمة ، تصل ما بين الآلهة والبشر ، فتحمل لأولئك صلوات الناس ودعواتهم وقرابينهم ، وتحمل الى هؤلاء أوامر الآلهة واستجاباتهم .. فهو همزة الوصل التى تقوم على الثغرة الفاصلة بين الفريقين .. انه واحدة من وصلات عديدة تصل ما بين الأرباب والبشر ! »**

وسأل سقراط معلمته عن أب « الحب » وأمه ، فقالت : « عندما ولدت افروديت - ربة الجمال - اقيمت مأدبة ضمت الآلهة ، وكان بين الحضور « بوروس » اله الوفرة والرخاء ، فلما انفضت المأدبة ، جاءت « بينيا » - الهة الفقر والفاقة - فوقفت كعادتها لدى الأبواب تستجدى .. وكان « الرخاء » قد ثمل ، فدهمته سنة من النوم فى الحديقة . وأخذت « الفاقة » تتأمله وهى تستعرض ظروفها ، ثم عقدت عزمها على ان تنجب منه ولدا ، فرقدت الى جواره وحملت بـ « الحب » ، الذى قدر له ان يجرى فى أعقاب أفروديت ، لأنه بطبيعته محب للجمال ، ولأن أمه حملته يوم مولد أفروديت .. وهو قد ورث عن أبويه بعض حظوظهما ، فهو فقير دائما ، ولكنه ليس لطيفا ولاجميلا ، كما يخاله الكثيرون .. وانما هو خشن ،

قذر الهيئة ، حافى القدمين ، مشرد .. ينـــام على الأديم ، ويلتحف السماء ، ويجلس على قارعة الطريق او عتبات الدور ، ويعانى الضيق دائما مثل أمه .. **وورث عن ابيه تآمره دائما على الجمال والخير ، وجرأته واقدامه ، وقوته وبراعته فى الصيد ، وسعيه وراء الحكمة .. فهو فيلســوف دائما ، وساحر ، ومشعوذ ، ودجال !..** وهو ــ بطبيعته ــ ليس خالدا ، ولا فانيا ، وانما هو حى منتعش متى كان فى رخاء .. فاذا مات ارتد الى الحياة من جـــديد ، لأنه ورث عن أبيه طبيعته ! »

« الحب » .. يعشق الحكمة !!

• **كذلك** ذكرت « ديوتيما » ان الحب وسط بين المعرفة والجهل .. ذلك لأن الآلهة لا تطلب الحكمة ، فهى حكيمة بطبيعتها .. كما ان الجهلة من البشر لا يطلبون الحكمة لأنهم يخالون انفسهم حكماء . **انما يطلب الحكمة من هو وسط بين الجهل والمعرفة ، و « الحب » من هذا النوع .. ولما كانت الحكمة من أجمل الجميلات ، لذلك كان من الطبيعى أن يعشق « الحب » الحكمة !**

واستطردت ديوتيما قائلة : « هذه هى طبيعة الحب . وأخال أن الخطأ الذى شاب آراءك فيه ، نابع من انك خلطت بين اله الحب والمحبوب ، مما أوحى اليك بأن الاله جميل ، لأنه لابد للمحبوب من أن يكون جميلا ! » . وبهت سقراط لهذا المنطق ، فسألها : « ولكن ، ما نفع الحب للبشر ؟ » . فقالت : « سأشرح لك ذلك : اذا أحب انسان آخر جميلا ، فماذا يبتغى من ذلك ؟ » . قلت : « انما يبتغى أن يمتلك هذا الجميل » .. فتابعت التساؤل : «وماذا وراء امتلاك الجميل؟» .. ولم أحر جوابا فقالت : « لأضـــع كلمة الخـــير بدلا من الجمـــال ، والطيب بدلا من الجميل .. فما الذى يجنيه عاشق الخير

من امتلاك ما يعشق ؟ » .. وكان جوابى : « **السعادة !** » .
فقالت : « **أجل ، فالمرء يسعد بامتلاك الأشياء الطيبة !** » .
فقلت : « هذه بغية البشر جميعا ، فحب امتلاك الطيبات شائع بينهم » . فقالت : « فلماذا اذن لا تكون هذه حالهم بالنسبة للحب ؟ .. لماذا لا يعشق سوى فريق من البشر ؟ .. الواقع ان السبب يرجع الى أن جزءا من « الحب » ينفصل على حدة ، وينتحل لنفسه اسم المجموع ، بينما تتخذ بقية الأجزاء أسماء اخرى »

وضربت ديوتيما مثلا بالشعر ، فقالت انه اسم للكل ، ولكن الجزء الذى يلحن للغناء من الشعر يتخذ اسما آخر .. وان ذوى المزاج الشاعرى من الناس يسمون « شعراء » تجاوزا ، وكذلك الأمر بالنسبة للحب .. « ففى وسعك أن تقول ان كل رغبة فى الخير والسعادة هى فى الواقع السلطان الأسمى للحب .. أما الذين ينساقون الى الحب عن غير هذا الطريق – كالذين يعشقون جمع المال – فليسوا عشاقا ولا محبين .. وانك لتسمع أن العاشق انما يسعى وراء نصفه الآخر ، أما أنا فأقول ان العشاق لا يسعون وراء النصف ولا وراء الكل ، مالم يكن هذا النصف أو الكل طيبا خيرا .. ان الحقيقة البسيطة الصريحة هى أن البشر يعشقون الخير .. وانهم بالتالى يحبون تملك ما هو خير وطيب ، ويحبون أن يكون تملكهم له دائما .. « فالحب اذن هو الرغبة فى التملك الدائم للخير . فماذا يفعل أولئك الذين يظهرون كل هذه العاطفة المشبوبة ، وكل هذا التحمس المتأجج الذى يسمونه « الحب » ؟ .. انهم انما يسعون الى مولد الجمال ، سواء فى الجسد أو فى الروح .. **أعنى ان كل البشر يسعون الى أن يتكاثروا ، سواء من الناحية البدنية أو الناحية الروحية .. ولابد أن يكون هذا التكاثر فى الجمال وليس فى القبح .. وهذا التكاثر هو اندماج بين الرجل والمراة ، وهو شىء ذو قداسة ، لأن غايته الجمال ، وهوغاية**

الآلهة ايضا ! .. واذن فالحب ليس عشق الجمال وحده ،وانما هو عشق التكاثر والتوالد فى مضمار الجمال »

« الحب الجنسى » .. ميل الى الخلود !

• **وأخذت** الحكيمة تتحدث عن سبب الحب .. فقالت : « ألا ترى كيف ان الحيوانات والطيور والوحوش تسعى الى التكاثر ، وتعانى الآلام عندما تلتقط عدوى الحب .. العدوى التى تبدأ بالرغبة فى الاندماج بين الذكر والأنثى .. فضلا عن المتاعب التى تتكبدها فى رعاية النسل الوليد وفى حمايته ؟!. قد يقال ان العقل يبرر للانسان تحمل مثل هذه المتاعب ، ولكن .. ما الذى يدفع الحيوانات اليها ؟.. **ان الطبيعةالفانية تسعى وسعها للبقاء وعدم الموت . فالكائنات الفانية تهفو الى الخلود .. واذا كانت ظاهرة الحب تؤدى الى الخلق والابتداع ـ كما يتمثلان فى التكاثر ـ فهذا برهان على رغبة الطبيعة الفانية فى البقاء . واذن فالحب ميل الى الخلود !** .. ويظهر هذا الميل واضحا فى الحب الجنسى ، لأن التناسل يعبر عن رغبة الانسان فى أن يبقى على الدوام !.. فلا تعجب اذن من حب البشر جميعا لأبنائهم ! »

خير ألوان الحكمة : العفة ، والعدل !

• **واستطردت** الحكيمة ديوتيما قائلة : « ان طابعالأجساد الحبلى هو الرغبة فىابقاء ذكرى البشر .. أما الأرواح «الحبلى» فتلد الحكمة والفضيلة بوجه عام !.. **وخير ألوان الحكمة وأعظمها ، هى تلك التى تتعلق بتنظيم الحكومات والأسرات ، والتى تسمى العدل والعفة . والذى يؤتى بذرة هذه الحكمة فى شبابه ، يكون ملهما ، ويسعى عند نضوجه الى ان يفيض مما لديه وان يضاعفه ، ومن ثم فهو يهيم بحثا عن الجمال الذى يستطيع ان يقترن به ويولده** .. فاذا ما عثر على روح

جميلة ، ضمها اليه وسعى الى ان يوحدها معه ، وراح يحدثها عن الفضيلة وعن كنه غايات الانسان الصالح . وهو يعمل على تعليم صاحب هذه الروح ، وعلى أن يمس كل جمال فى ذهنه ، فهما يقترنان برابطة من صداقة اوثق من تلك التى تربط الرجل بالمرأة لانجاب الولد .. ذلك لأن الولد فان ، أما بنات الفكر فخالدة ! »

وانتهى سقراط من روايته ، ثم عقب قائلا : « وهذا هو السر فى اننا نحب جمال الروح اكثر من حبنا لجمال البدن ، لأن الروح خالدة والبدن فان .. **وكذلك نحب أهل الفكر والعقل ـ من الرجال ـ اكثر مما نحب ذوى الحسن الحسى ، لأن الفكر هبة ربانية تفوق أشكال المتعة الحسية . وهكذا ، ينبغى على المحب ان يسعى ـ من البداية ـ نحو الجمال العقلى ، الذى يتمثل فيما يمكن أن يسمى : حب الحكمة ! »**

وتحول سقراط يناقش أنواع الحب ، مؤكدا انه نوع واحد ، ولكننا ـ معشر البشر ـ نقسمه الى أشكال : فالشخص ذو الروح الجميلة محبوب ولو نقصه جمال البدن ، لأن جمال الروح يقود صاحبه الى تأمل الجمال المطلق .. ذلك الجمال الذى لا تحده بداية ولا نهاية .. ومن ثم فان عاشق الجمال يظل يتنقل بين ألوانه ، حتى ينتهى الى أسماها . ومثل هذا الشخص لا يتصل فى النهاية باشباح وهمية ، وانما بحقيقة مطلقة . **واذا جاز أن يوهب الخلود لواحد من البشر ، فليس أجدر به من عاشق الجمال ! »**

وهكذا يتدرج الحب الخالص حتى يصبح حبا للجمال فى ذاته .. وهـــذا هو أقوم طرق الحب .. وذروة العواطف السامية !

السياسى الذى كان يغار على سقراط !

• **وسمعت** اذ ذاك جلبة عالية ، وصوت « السبيادیس »

ـ السياسى ـ ينبعث من الخارج مناديا « أجاثون » . ثم أقبل الرجل ثملا ، وصاح : « اننى ثمل ، ومع ذلك فسوف أشرب معكم . فان أبيتم ، فلنتوج أجاثون ثم نرحل ! » .. وتهالك الى جوار أجاثون ، ثم فطن الى وجود سقراط الى جواره ـ فى الجانب الآخر ـ فهتف : « يا لهرقل ! .. أأينما ذهبت وجدت سقراط قابعا فى انتظارى ؟ » .. واذ ذاك هتف سقراط : **« الا احمنى يا أجاثون ، فلست أجرؤ على أن أتحدث أو انظر الى أحد ، متى كان « ألسبياديس » قريبا منى ، لأنه شديد الغيرة . أناشدك أن تصلح بيننا ! »**

وتدخل اركسيماخوس قائلا : « ان مهمتنا هى الحديث فى الحب وتمجيده ، والدور لك ! »

ولكن السبيادس شرع يمجد فى سقراط ذاته ، وانتهى الى أن قال : **« الواقع أن سقراط لا يشبهه أحد آخر ! .. فهو فى ظاهره جلف ، ولكنه فى داخله ملىء بكل رائع يمكن استيعابه وادراكه ! »**

وتصاعدت الضحكات من كل مكان .. ثم بدأ القوم يهجعون . ولكن اريستوميدس استيقظ بعد قليل ، فرأى سقراط وأرستوفان وأجاثون يواصلون الشراب .. وكان سقراط يجادل زميليه فى شأن المآسى والهزليات ، ويحاول اقناعهما بأن النوعين يمتان الى فن واحد . ونام الزميلان وهو ماض فى حديثه ، فلم يجد أمامه سوى أن ينصرف !



لقاء.. بعد منتصف الليل!

للقصصي الفرنسي : "مارسيل بريڤو"

تلخيص : فرج جبران

• **كنا** نسير فى صمت ، أنا والموسيقى « فرانسيس ليكوردلييه » .. وكنا نجتاز (بوليفار هوسمان) متجهين صوب متنزه (مونسو) حيث كنا نقطن .. والساعة قد اقتربت من الثالثة صباحا ، والعربات قليلة ، والمارة معدودون .. والمرء لا يملك سوى أن يحس بأن باريس قد استكانت للنعاس . **وعند منعطف (أفنو دى ميسين) ، لاح شبح كأنه انفصل فجأة عن ظلال الجدران . وحملت الينا الريح همسا تألف من كلمات متداخلة ، لا تكاد الأذن تتبينها بوضوح : «أيها السيدان ! تعاليا .. اقتربا !» .. وشعرت بيد فرانسيس تتشبث بكم سترتى ، وسمعته يهيب بى: « أسرع! .. أرجوك » .** فغذذنا السير ، ولكن الشبح تبعنا ، ووضح انه لامرأة تهيم على وجهها .. وأخذت تردد فى استجداء : « امنحانى شيئا من المال ، على الأقل ! .. اننى لم أكسب شيئا فى ليلتى .. أعطيانى خمسة فرنكات .. أو أى شىء ! »

وظل فرانسيس يشدنى وهو يجد فى السير ، حتى أوشك ان يعدو ، وقد راح يردد : « اصرفها .. أرجوك ، اعطها اى شىء لتبتعد عنا ! » . وأخرجت من جيبى قطعة فضية طوحت بها نحو المرأة ، فتحولت هذه عن متابعتنا ، لتجرى وراء القطعة . وما ان بلغنا باب منزلى ، حتى تبينت أن صديقى كان ممتقع الوجه ، فلما سألته عما أصابه ، تمتم : « لست كما ينبغى ، واذا سمحت فاننى سأصعد معك الى مسكنك فأتناول كأسا من الخمر ، عسى ان أسترد بعض قواى ! » . ثم أردف بصوت خافت : « وسأروى لك سر ما أحدث بى هذا الأثر ! »

وافرغ فرانسيس فى جوفه كأسين ، ثم جلس أمام المدفأة ، ونكس رأسه ، وشرع يروى لى القصة التالية

* * *

• **لعلك** تذكر أى رجل كنته حتى العام الماضى ، فقد اندفعت أروى نزواتى ، شأن كل رجل عاش طاهرا الى سن متأخرة ، ثم أفلت منه الزمام .. وكانت كل امرأة ، جميلة فى نظرى ، مادامت صغيرة السن ، ومن ثم فقد كنت أطارد جميع الشابات اينما قابلتهن ، سواء أكن من الوقورات والمحتشمات ، أو من المتسكعات ونساء الطرق !.. وفى ذات ليلة ، غادرت منزل خليلتى ـ اذ كانت لى خليلة رغم هذه المغامرات ـ فى ساعة متأخرة ، كتلك التى عدنا فيها الليلة .. وفيما كنت أسرع قاصدا منزلى فى شارع (توكفيل) ، وصلت الى منعطف (أفنو دى ميسين) ـ فى نفس البقعة التى ظهرت لنا فيها المرأة ، فى هذا المساء ـ **واذا بى أحس بامرأة تتسلل فجأة ، فتتأبط ذراعى ، وتسير الى جانبى بطريقة عجيبة ، مريبة ، حتى خيل الى أن فى الأمر شيئا غير طبيعى !.. على أننى سمعت ـ اذ ذاك ـ صوتا ذا رنين موسيقى بهيج : ((هل أصحبك ؟))**



ونظرت الى المرأة فاذا بها فى مقتبل الشباب ، صغيرة القد ، نحيلة القوام ، رشيقة ، ترتدى ثيابا سوداء أنيقة ، وتسدل على وجهها نقابا أبيض كثيفا يشمل وجهها وشعرها ، ويكاد يعوقنى عن تمييز قسماتها . ولكن المظهر الجانبى لرأسها كان يوحى بانها على جمال لا بأس به ، فبادرت قائلا : ((لست

أمانع فى ذلك ! » . فقالت : «وهل تقيم بعيدا ؟» .. وأجبت : « لا !.. فى شارع توكفيل »

وقطعنا المسافة — التى كانت تفصلنا عن المنزل — فى دقائق ، ونحن نتبادل تلك العبارات الجوفاء التى يلجأ اليها أى اثنين لم يلتقيا من قبل ، ولكنهما — رغم ذلك — يوشكان ان يمثلا مهزلة الحب الكبرى !.. وما ان استقر بنا المقام فى مسكنى ، وحفت بنا الأنوار ، حتى حاولت أن أقبل المرأة ، وأن أنضو النقاب عن وجهها ، ولكنها مانعت ، وتبدى عليها الجد وهى تقول : « لا ، دعنى !.. دعنى ياسيدى .. اننى أريد الانصراف من هنا ! »

★ ★ ★

وظننت — فى البداية — أن فى الأمر دعابة ، أو أن المرأة تمثل دورا لخداعى . ولكننى ما لبثت أن تبينت أن الدموع كانت تخنق صوتها ، وتبدى عليها الوجل حقا .. وظهر من تصرفاتها انها كانت على وشك الانصراف بالفعل ، ولكنها لم تلبث أن استلقت على الفراش ، ودفنت وجهها فى الوسادة .. وركعت الى جانب السرير فخلعت الحذاء عن أجمل قدم نسائية تصورتها فى احلامى .. قدم كانت تحمل جسما جميلا ، دقيق الأعضاء ، كأنه تحفة فنية !

وقالت المرأة ووجهها فى الوسادة : « اطفىء الأنوار ! » .. **ولم أجد فى وسعى سوى ان أطيع !.. ما خالجنى قط مثل هذا الشعور مع أية امرأة أخرى من قبل ، ولا أدرى أكان السبب فى ذلك راجعا الى الطريقة العجيبة التى تم بها اللقاء ، او الى ما ابدته المرأة من اعراض مفاجىء ورغبة فى الانصراف ، أو .. الى السر الذى كان يكتنفها وهى تأبى ان أرى وجهها !**

لست أدرى !.. كل الذى أدريه هو اننى كنت فى حال أقرب الى الجنون ، وأنا اضمها الى !.. وعندما هدأت سورتى ،

ارادت المرأة ان تتسلل من جوارى وتغادر مسكنى ، ولكننى كنت كالمجنون ، فلم أقو على أن أدعها تنصرف ، وطوقتها بذراعى ، ثم اغرقتها بقبلاتى ، ورحت اتوسل اليها ان تبقى ، فلم يزدها ذلك الا رفضا ومقاومة ، بينما كانت انفاسها تتهدج ، وصوتها يتحشرج .. ولم تقبل البقاء الا حين هددتها بأن أوقد الأنوار ..

ولكننى لم ألبث ان استغرقت فى نوم عميق !

* * *

• **وكانت** الشمس تملأ مسكنى عندما استيقظت من نومى .. ورأيت الساعة المعلقة الى جوار فراشى متوقفة عند العاشرة والدقيقة الخامسة ، فكأن الوقت كان قد تجاوز ذلك .. وشعرت فى بادىء الأمر بأن رأسى خاو ، ثم بدأت الأفكار تتسرب اليه مهتزة غير واضحة ، كما يحدث للمرء عندما يستيقظ بعد ليلة من ليالى السهاد والارهاق .. ثم تذكرت المرأة ، فأدرت رأسى أبحث عنها .. ولكن مكانها بجوارى كان خاليا ! .. **وعلى الوسادة ، رأيت فى مكان رأسها بقعة كبيرة من الدم !**

وانا اوقن من اننى لست جبانا ولا رعديدا ، فما خشيت يوما أي خطر ، مادمت أعرفه .. ولكنى أعترف ان الأخطار الغامضة ، المبهمة ، المجهولة ، تفزعنى !.. لذلك وجدتنى أقضى دقائق فى مجاهدة نفسى ، حتى تجلدت ونهضت ، وأسرعت أزيح الستائر عن النوافذ ، ورحت أتلفت حولى ، فاذا كل شىء فى الحجرة قد رتب ونسق .. حتى ثيابى التى تناثرت جزافا فى الليلة الماضية ، لاحظت ان يدا دقيقة خبيرة قد جمعتها ونظمتها على مقعد قريب من السرير

وتجاسرت فاقتربت من الوسادة .. **كانت البقعة الدموية تجتذب نظرى وكأن بها قوى مغناطيسية .. وكانت فاقعة**



اللون ،ولكنها جافة ،رهيبة !.. لم تكن أثرا لدم سال ، وانما كانت نتيجة التصاق لحم طرى دموى !.. وعدت أتلفت .. أين هى ؟.. اين المرأة ؟

وأسرعت ابحث عنها فى الحجرتين اللتين كان المسكن يتألف منهما ، ولكننى تأكدت من أنها انصرفت اثناء نومى ، بعد أن ارتدت ثيابها فى غير جلبة ولا ضوضاء .. ولم تخلف أثرا لوجودها ولا لزيارتها ، سوى تلك البقعة الجافة من الدم القانى ، على الوسادة البيضاء ! .. ورميت بالوسادة الى ركن من أركان الحجرة ، متعمدا ان أجعل البقعة الحمراء مواجهة للحائط .. ثم أسرعت أتأهب لمغادرة المسكن . ولكننى لم أكد أمسك بالمشط لأنسق شعرى ، حتى رأيت بين أسنانه شعرة بيضاء طويلة !

من لى بمن يشرح الطريقة الغامضة التى تعمل بها أعصابنا ؟ .. ان بصرى لم يكد يقع على الشعرة ، حتى أومض فى أعماقى قبس خافت ، فرأيت .. رأيت الحقيقة ماثلة أمام عينى .. **رأيت ما لابد أنه كان رفيقتى فى الليلة السالفة !.. أجل ،تمثلتها بما لا يدع مجالا لأى ريب .. رأيت جسما بضا ، ناصعا ، شابا ، لابد ان معجزة ما حفظت له شبابه ونضارته .. وفوق هذا الجسم ، رأس دام ، يعلوه شعر ابيض !**

آه !.. عبثا أبحثُ عن كلمات تصور الذعر الذى انتابنى ، اذ تذكرت ــ فجأة ــ أننى قد عانقت هذا المخلوق البشع ، وقبلت وجهه الدموى ، واستنشقت عبيره ، ولمسته !.. ولم أتمالك نفسي ، فسقطت علي الأرض فاقد الوعي !

★ ★ ★

• **وملأ** فرانسيس كأسه للمرة الثالثة ، ثم أفرغ ما فيه جرعة واحدة . واعقب ذلك صمت طويل ، تمالك خلاله هدوءه ، ثم عاد يستأنف الحديث :

وعندما عدت الى وعيى ، وجدتنى مستلقيا فى أحد المصحات . وعلمت اننى نقلت الى هناك منذ شهرين ، وقد أصبت بحمى فى المخ !.. وكان من حظى الحسن ، أن خلفتنى الحمى دون أثر يمس ذكائى او تفكيرى ، وان تركت جسدى مفرغا من الدم .. واذا صح هذا التعبير ، فانها خلفته « مسكونا » بالروح ، مجردا من كل رغبة ، بل من كل ميل نحو .. المرأة !

ولست بحاجة الى القول بأننى لم ادخل قط مسكنى القديم بعد شفائى ، بل انتقلت الى مسكن آخر .. وحرصت على ان أتحاشى السير فى الطرقات التى اجتزناها الليلة ، لا سيما اذا كنت وحيدا ، وكان الوقت ليلا ..

وما أحسبك الا مقدرا ـ بعد ذلك ـ ما يداخلنى من جزع حين أقابل امرأة ، ولا سيما فى تلك البقعة بالذات .. ان الأمر قد يثير سخريتك ، ولكنى أصارحك بأننى لن أقوى الليلة على العودة الى مسكنى .. وأكون سعيدا لو وجدت عندك فراشا يزيد عن حاجتك ، أو أريكة أقضى عليها الليل !

حوافز الحياة



النفس والجنس.. والمجتمع..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية ، الكتب الآتية على التوالى :
◆ كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية ◆ طريق السعادة الزوجية ◆ مركب النقص ◆ حواء الجديدة ◆ كيف تقهر الخجل ◆ كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة ◆ فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة ◆ غزو السعادة ◆ التحليل النفسى ◆ الجنس الآخر ◆ عش حياة ايجابية ◆ أبواب الحب المغلقة ◆ فن الحب (لأوفيد) ◆ الانتصار على الخوف ◆ عش بحكمة تعش سليما ◆ كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة ◆ كيف تفسر أحلامك ◆ كن متفائلا ◆ تاريخ الغزل ◆ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة ◆ أتح لعقلك حياة جديدة ◆ دنيا الحب والسعادة ◆ حب وجنس وخيانة ◆ السلوك الجنسى عند الرجل ◆ فى بلاد العراة ◆ السلوك الجنسى عند المرأة

واليوم ، تقرأ معى حلقة جديدة من اعظم بحث جنسى فى تاريخ البشرية :

أضواء .. على حياة الأنثى الجنسية !

◆ ان الحياة الجنسية للأنثى حافلة بكثير من الغوامض ، وبالمعتقدات الشائعة التى لا تقوم على أسس من العلم الصحيح ، ولكنها تحدث أخطر النتائج فى الحياة الزوجية ، بل فى حياة المجتمع عامة . وفى هذه الحلقة الجديدة من « السلوك الجنسى لدى الأنثى » ، يقدم لنا الباحث الامريكى المحقق « كينزى » وزملاؤه ، تحليلا دقيقا شاملا ، لنواح جديدة من أعظم بحث أجرى فى تاريخ البشرية ، لدراسة السلوك الجنسى للبشر ونتائجه فى الحياة الانسانية .. وان « كتابى » بحرصه على نشر أول تلخيص بالعربية لهذا البحث الخطير ، ليضع تحت أنظار العلماء والباحثين الاجتماعيين والاخصائيين التربويين فى الدول العربية هذه البيانات عسى أن يفيدوا منها فى اصلاح المجتمع العربى

حقائق مذهلة .. عن الاستمناء !

◆ **نستطيع** أن نقرر أن معظم مصادر الاثارة التى تدفع الأنثى الى ممارسة الاستمناء ــ أى العادة السرية ــ مصادر عضوية .. ففى الحالات التى درسناها ، لم نجد سوى هذه المصادر لدى أكثر من ٣٦ فى المائة من الأناث اللائى يمارسن هذه العادة .. أما الباقيات ، فكانت الاثارة لديهن نابعة ــ الى جانب المصادر العضوية ــ من الخيال أو التصور الذى يمثل لهن مواقف جنسية معينة . والواقع أن الاستمناء يتصل اتصالا وثيقا بالتصورات والخيال لدى ٥٠ فى المائة من الاناث ــ فى المجموع ــ فى بعض مراحل أعمارهن . فلدى شطر كبير من هذه النسبة ، نجد أن التصورات بدأت عقب شروعهن فى ممارسة الاستمناء بفترة من الزمن ، قد تحسب بالسنين . ومعنى ذلك أن الاثارة بدأت عضوية ، ثم أصبحت نفسية . ونتيجة لذلك ، نرى أن التصورات المثيرة أكثر شيوعا بين الاناث المتقدمات فى السن منها بين اللاتى فى مقتبل العمر !



غلمان فى زورق الصيد لوحة للفنان « هنرى سكوت تيوك »

وقد يكون محور التصورات والتخيلات متصلا بالجنس الآخر ، أومتصلا بجنس المستمنيات أو متصلا بحيوانات ، أو بأفكار سادية وماسوتشية — أى حب الايلام وحب التألم — أو غير هذه من ألوان الاتصالات الجنسية . وقد وجدنا أن التخيلات تدور حول الجنس الآخر فى حوالى ٦٠ فى المائة ممن مارسن الاستمناء — فى مرحلة من مراحل العمر — ولو لمرة أو لمناسبات محدودة. بينما تدور تصورات حوالى ١٠ فى المائة ممن مارسنه مرة ، أو مرات متباعدة ، أو بانتظام — حول أفراد من نفس جنسهن . على اننا لم نجد سوى واحد فى المائة من المستمنيات يستمددن الاثارة من تصورات تدور حول الحيوانات .. ولعل ذلك راجع الى ندرة حدوث أى اتصال جنسى واضح بين الاناث والحيوانات . وتقترن خيالات أكثر من ٤ فى المائة من المستمنيات بمواقف وظواهر سادية وماسوتشية !

الذكور يستعينون بالخيال أكثر من الاناث !

• **وعلى** النقيض مما هو لدى الذكور ، نجد أن التصورات المثيرة لمن يمارسن الاستمناء من الأناث لا تستمد من رغبات لم تتحقق ، أو من رغبات مكبوتة ، وانما هى تستمد من التجارب التى عرفنها . فلدى الفتاة التى لم تتجاوز تجاربها الجنسية حد القبلة ، نجد أن تصوراتها لا تتجاوز هذا النطاق . . ولا تدور التخيلات حول الأعضاء التناسلية بالذات ، مالم تكن المستمنية قد مرت بتجربة تمس هذه الأعضاء . **ومن ناحية أخرى ، نجد أن كثيرا من الأناث اللائى عرفن الاتصالات الجنسية الصريحة — كالجماع — يقررن فى البيانات التى أدلين بها الينا أنهن لم ينسجن صورا خيالية حول هذه الاتصالات ، أثناء ممارستهن الاستمناء !**

وتدل البيانات على أن نسبة التصورات وشيوعها واحدة فى جميع فئات العمر ، وفى جميع المستويات التعليمية والاجتماعية لدى الأناث ، بعكس ما لوحظ بين الذكور . وبوجه عام ، نجد أن الخيال كثيرا ما يكون مصدر الاثارة التى تحمل الذكر على الاستمناء ، وأن من العسير ــ عادة ــ أن يصل الذكر الى ذروة اللذة فى الاستمناء ، دون أن يستعين بالخيال .. أما الأناث فان قدرتهن على أن يصلن الى ذروة اللذة ــ فى هذا اللون من النشاط الجنسى ــ دون لجوء الى الخيال ، تؤكد معظم اعتمادهن على المصادر العضوية والبدنية للاثارة الشهوانية . ومن هنا ينشأ الخطأ لدى الذكور الذين يتناولون المسائل الجنسية لدى المرأة ، سواء من الناحية العلمية أو الأدبية . اذ انهم يخالون أن النساء عرضة للتهيج بنفس الوسائل التى تنجح مع الذكور . وهذا الخطأ يعوق كثيرا من الرجال والنساء عن أن يفهم بعضهم بعضا من الناحية الجنسية !

الكبت يولد الاضطرابات العصبية عند الجنسين !

• **وتتمثل** الأهمية المادية للاستمناء لدى الأناث فى أن معظمهن يقدمن عليه ابتغاء الارضاء المباشر لحاجاتهن الجنسية ، وكوسيلة لتهدئة الاضطرابات العضوية التى تخالجهن عند التهيج الجنسى وعندما يحول العرف الاجتماعى دون اتصالات اجتماعية بينهن وبين الجنس الآخر . وقد لاحظنا أن عدة اضطرابات عضوية ــ منها التوتر العضلى العصبى ــ تخالج الأنثى فى حالة التهيج الجنسى . فاذا ما أدت الاستجابة الجنسية الى ذروة اللذة ، خف التوتر فجأة ، وعادت الأنثى الى حالتها البدنية التى تكون عليها عادة ، فتستطيع أن تمارس أعمالها اليومية المعهودة ، بكفايتها العادية . أما بغير هذا التفريج ، فان بعض الأناث ، وكثيرا من الذكور ، يظلون

فى اضطراب وتوتر لفترة من الزمن ، وقد يؤدى هذا الاضطراب - اذا طال أمده - الى شغلهم عن مهامهم ، أو الى عرقلة مواهبهم واستعداداتهم .. **اذ يصبح الفرد منهم عصبى المزاج ، سريع الهياج ، عاجزا عن تركيز ذهنه فى مسألة معينة ، سىء المعاشرة .. بينما نجد أن معظم الأفراد ينعمون بالحياة - سواء بينهم وبين أنفسهم ، أو بينهم وبين الغير - اذا هم عمدوا عند التهييج الجنسى الى الوصول به الى ذروة اللذة !**

ويعتقد الكثيرون أن الاستمناء يحدث أضرارا عضوية . فمن الأناث اللاتى درسنا حالاتهن ، من كن يخلن انه سبب البثور المتناثرة فى وجوههن ، أو انه يطفىء بريق الذكاء ، أو انه مبعث اضطرابات المعدة ، أو سر ضعف البصر والقلب . **على أننا لم نجد من القرائن ما يدعم ذلك .** كما أن ما أوردنه عن الأعياء والخور اللذين كانا ينتابانهن عقب الاستمناء ، لايبين أنهما من ظواهر الاستمناء ذاته ، اذ انهما لايختلفان عما يصيب أى امرىء بعد أى نشاط جنسى ، فردى أو مزدوج !.. ذلك لأن كل الاستجابات الجنسية تؤدى الى استنفاد قدر من الطاقة ، ولكن أثرها لا يلبث أن ينجاب بعد دقائق

اليهود كانوا يعاقبون ممارس الاستمناء .. بالاعدام !

• ومن الأمور الجديرة بالذكر ، أن أولئك الذين كانوا يجدون موانع خلقية تعترض سبيلهم كلما أقدموا على الاستمناء - من الجنسين - هم الذين كثيرا ما يصرون على أن هذا اللون من النشاط الجنسى يؤدى الى ضرر بدنى وعقلى . وهذا يبين أثر المعتقدات الراسخة فى نفوسهم .. المعتقدات التى يعززها عدد يدعو الى الدهشة من الأطباء البشريين والأطباء النفسيين وعلماء النفس والتربية ، ولكن لا يدعمها شىء من الفحص البدني والنفسي .. **بل اننا فى الحالات التي درسناها**

ـ بين الأناث والذكور ـ وجدنا أضرارا بليغة مترتبة على الخوف والقلق اللذين يغشيان نفس الشخص الذى يمارس الاستمناء تأثرا بتلك المعتقدات ، وعلى الآثار التى تنشأ عن محاولة كبح النفس عن هذا النشاط !

والواقع أن استنكار الاستمناء فى ثقافتنا الدينية انما يقوم على أساس انه خروج على « الغرض الأصلى » للجنس ، وهو التناسل والتكاثر . فهو والحال هذه نوع من الشذوذ عن الغاية الأصلية ، مثله كمثل عشق الجنس ـ اللواطة عند الذكور ، والسحاق عند الاناث ـ ومجامعة الحيوانات ، وعشق الجنس الآخر فى غير نطاق الزوجية . **وفى التعاليم اليهودية أن الاستمناء خطيئة كبرى ، كانت تعاقب ـ فى بعض مراحل التاريخ اليهودى ـ بالاعدام !..** وفى المؤلفات اليهودية التى وضعت على أسس دينية ، ما يوحى بأن الاستمناء خطر على صحة من يمارسه ، ويعرض المرء فى الآخرة لعقاب أليم .. ولما كانت المسيحية قد نشأت فى وسط يهودى ، فقد انتقلت هذه الآراء اليها ، واعتبر الاستمناء اثما شنيعا . وقد ظل البروتستانتيون يأخذون بذلك الى عهد جد قريب ، اذ بدأوا يحكمون البحث العلمى فى الأمر

وتدل البيانات التى أدلت بها « العينات » التى فحصناها من الأناث ، على أن ٤٤ فى المائة ممن لم يمارسن الاستمناء قط ، انما صدفن عنه نتيجة الشعور بأنه خطيئة خلقية . على اننا لاحظنا أن كثيرات منهن كن ضعيفات الاستجابة للنوازع الجنسية ، مما قد يفسر قدرتهن على تقبل القيود الخلقية . بل ان البيانات الاحصائية تؤكد أن أكثر من ثلاثة أرباع الأناث اللائى لم يمارسن الاستمناء ، قررن بأن السر فى عزوفهن عنه هو عدم شعورهن بأية حاجة اليه . أما الربع الباقى من هذا الفريق ، فيرجع بعده عن الاستمناء الى أن الأناث من أفراده لم يكن يعرفن هذا اللون من النشاط !

التشجيع على الاستمناء جناية .. فى ولايتين بأمريكا !

• **ومع** أن الرأى العام الأوربى والأمريكى قد تقبل — فى الغالب — آراء اليهودية والمسيحية فى تحريم الاستمناء ، الا أن من الملاحظ أن هذه الآراء لم تلق اعترافا رسميا كجزء من القانون .. أى أنها لم تدمج فى قوانين البلاد — اللهم الا فى ولايتى (انديانا) و (وايومينج) الأمريكيتين ، حيث نصت القوانين على أن تشجيع أى شخص على ممارسة الاستمناء يعتبر جناية ! — ذلك لأن الدول تهتم بقدرة المرء على التناسل ، ولكنها لا تحفل بالنشاط الجنسى الفردى ، ما دام لا يمس مصالح المجتمع ، ولا يؤدى الى تناسل !

ومن طبيعة طرق الارضاء البدنى للشهوات — سواء أكانت فردية أو مشتركة — انها تجعل الفرد فى حالة انسجام نفسى ، طالما خلت من الهواجس والمخاوف والشعور بالاثم . ولكنا حين نتبين أن الديانات دأبت منذ ألفى سنة على استنكار الاستمناء ، وأن الرأى العلمى فى أجيال سابقة عزز هذا الاستنكار ، فاننا لا نجد وجها للعجب من أن كثيرا من الأناث والذكور يعانون اضطرابات نفسية عندما يمارسون الاستمناء . وفى كثير من الحالات ، تمتد هذه الاضطرابات سنوات عديدة ، بلغت — عند ٣٠ فى المائة من ممارسات الاستمناء فيمن فحصنا حالاتهن — ١٠ سنوات . **ومعنى هذا أن بضعة ملايين من الأناث فى أمريكا يعانين أضرارا لحقت بطمأنينة نفوسهن وبكفاياتهن الاجتماعية ، وبمدى استعدادهن للتوافق والانسجام الجنسى مع أزواجهن عند الزواج .. لا بسبب الاستمناء ، ولكن بسبب التضارب بين هذه العادة وبين المبادىء الخلقية !**

ولقد اعترف « فرويد » وكثير من علماء التحليل النفسى بأن الاستمناء لا يسبب أضرارا بدنية ، ولكنهم — من ناحية أخرى — خلقوا ألوانا جديدة من الاضطرابات النفسية ، اذ قالوا أن ممارسة الاستمناء نوع من التصرف الصبيانى ، ودليل

على عدم النضوج ، ويؤدى الى عيب فى شخصية الفرد .. وهى صفات يكذبها الواقع والبحث العلمى !

الاستمناء لا يسبب اضرارا للفتاة بعد الزواج !

• **والعوامل** التى تؤثر فى الكفاية لدى ملايين من الأفراد ، خليقة بأن تحظى باهتمام المجتمع . ومن هنا انبعث الاهتمام بما اذا كان الاستمناء مورد اشباع وارضاء ، أو مصدر اضطرابات نفسية .. وتزداد أهمية الاستمناء – كمسألة اجتماعية – اذا بحث مدى تأثيره على استعداد الفرد للتوافق الجنسى فى حالة الزواج !.. فمن علماء التحليل النفسي من يرون أن الاستمناء يعود الأنثى على نوع معين من الاثارة الجنسية ، مما يجعل من العسير عليها أن تكيف مشاعرها للاستجابة لأنواع الاثارة التى تصادفها فى الجماع ، بعد الزواج . والواقع أن أبحاثنا ودراساتنا بينت لنا ان عدد الاناث اللاتى من هذا الصنف قليل .. **وأن الصعوبة التى تلقاها الأنثى – التى مارست الاستمناء قبل الزواج – فى التكيف وفقا لمثيرات الزواج ، لا تعتبر أعظم من تلك التى تلقاها زميلتها التى لم تمارس الاستمناء اطلاقا !**

ان نوع النشاط الجنسى الذى خبرته الأنثى قبل الزواج لا يبدو ذا أهمية فى مدى تكيفها ، أو استجابتها ، أو بلوغها ذروة اللذة ، فى علاقاتها الجنسية بعد الزواج .. وهذه الحقيقة تنطبق على جميع ألوان النشاط الجنسى . ولما كان الاستمناء هو اللون الذى تمارسه الأغلبية العظمى من الأناث ؛ فمن الأحرى أن تكون هذه الحقيقة أكثر انطباقا عليه منها على سواه !

الاحتلام ظاهرة غير منتشرة لدى الاناث !

• **كان** موضوع الاحتلام – لدى الذكور – محور كتب

ومؤلفات ومناقشات علمية ودينية . ويظن الذكر الذى خبر هذا النوع من « النشاط » الجنسى ، أن للأنثى خبرة مشابهة . وكم من عاشق خالجه الأمل فى أن تحلم به محبوبته فى الوقت الذى يحلم بها . ولكن البحث يدل على أن نسبة الاحتلام لدى الأناث من الضآلة بحيث لا تبرر هـذا الظن . بل ان بعض الدراسات الاحصائية للسلوك الجنسى أخفقت فى أن تجد ما يكفى للاعتراف بوجود الاحتلام لدى الاناث!.. وهذه حقيقة عجيبة . ويزيد من قوة هذه الحقيقة ، أن الأناث أثبتن انهن لا يجدن صعوبة فى تذكر أحلامهن الجنسية ، ولم يبدين احجاما عن الاعتراف بها !

واذا كان ثمة مجال للريب لدى الباحثين ، فانه ينحصر فيما اذا كن يبلغن ذروة اللذة أو لا يبلغنها أثناء الاحتلام .. و « الاحتلام » ــ فى حديثنا هذا ــ يشمل كل الأحلام الجنسية أثناء النوم ، سواء أكان هذا النوم بالليل أو بالنهار . ويرجع الارتياب الذى قد يجده الباحثون فى الجزم ببلوغ ذروة اللذة فى الاحتلام عند الأنثى ، الى أن القـذف عند الذكور يتـرك آثارا لا يتعـذر اكتشافها . **على أن المسألة ــ فى واقعها ــ نسبية ، لأن الأنثى غالبا ما تستيقظ من نومها تحت تأثير الاختلاجات العصبية الناجمة عن بلوغ ذروة اللـذة فى الاحتـلام .. بل ان عنف الاختلاجات لدى الأنثى كثيرا ما يبلغ درجة توقظ من يكون نائما الى جوارها !** ومن مثل هؤلاء استطعنا أن نحصل على أوصاف لما ينتاب الانثى اثناء الاحتلام . وهى تدل على أنهـا تمر بانفعالات للاستجابة الجنسية أثناء النوم ، شبيهة بتلك التى تمر بها فى أية عملية جنسية أثناء اليقظة !

والواقع أن الاستمناء والاحتلام ــ حين يبلغان ذروة اللذة ــ هما خير ألوان النشاط لقياس الطاقة الجنسية الأصلية لدى الأنثى . أما بقية الألوان ، فيتدخل فيها شريك ، ومن ثم فان

الظروف التى تحيط بها تتوقف على مدى التوفيق بين رغبات الشريكين !

الأحلام ضرورية .. للاحتلام !

• **وسواء** أكانت الاستجابة الجنسية ناشئة عن احتكاك مادى ، أو عن ايعاز نفسى ، فانها تنتقل — فى البداية — خلال المراكز النخاعية السفلى والجهاز العصبى التلقائى (اللاارادى)، ثم تشمل بقية أجزاء الجهاز العصبى عامة ، وجميع أجزاء الجسم التى يسيطر عليها الجهاز العصبى ، لاسيما تلك التى تسيطر عليها الأعصاب التلقائية

فاذا حدثت استثارة جنسية ، استجابت لها عضلات الجسم فى حركة لا ارادية ، متناسقة ، هى من أهم النواحى المميزة للسلوك الجنسى . فاذا بلغ الانفعال ذروة اللذة ، شملت الجسم انقباضات واختلاجات .. وهذه الظواهر كلها تبدو أيضا عند بلوغ ذروة اللذة أثناء النوم !.. ومع ذلك ، فان الاستجابات الجنسية تكون أكثر تحررا من القيود — الناشئة عن العرف والتعاليم — فى النوم منها فى اليقظة . **ومن المميزات الهامة فى الأحلام الجنسية ، سرعة بلوغ ذروة اللذة ، ولو كان الشخص — ذكرا أو أنثى — بطىء الاستجابة فى اليقظة . ومن الأناث والذكور من يمارسون العلاقات الجنسية الى درجة القذف — أثناء النوم — قبل أن يكونوا قد بلغوا هذه الدرجة، أو عرفوها ، عن طريق أى مصدر آخر ، فى اليقظة !**

والأحلام الجنسية لدى الأناث والذكور تبدو — أكثر من سواها من أبواب التفريج الجنسى — انبعاثا عن الحوافز النفسية فى منشأها . ومن الصحيح أن ثمة مثيرات بدنية مباشرة قد تترتب عن احتكاك الجسم بثوب النوم ، أو بأغطية الفراش ، أو بزميل فى السرير ، كما أن الحالة العضوية للفرد — بما فى ذلك التركيب الهرمونى للجسم — قد تلعب دورا كبيرا فى تحديد

معدل مرات الأحلام الجنسية .. فضلا عن أن ظروف تغذية الأنثى ، وحالتها الصحية العامة ، ومدى استعدادها للشعور بالتعب ، وحرارة الغرفة ، وغير ذلك من الظروف البدنية والطبيعية ، تساهم فى خلق الأحلام الجنسية . ومن ناحية أخرى ، يلاحظ أن المثيرات التى تصل بالفرد الى ذروة اللذة فى اليقظة ، قليلا ما تبدو مؤدية الى بلوغ تلك الدرجة فى خلال النوم . على أن المشاهدات والدراسة تؤكد كلها أن العوامل النفسية أعظم مفعولا من العوامل الطبيعية والعضوية فى الاثارة أثناء النوم !

ومن أبرز معالم اللذة التى يشعر بها المحتلم ، أن الاحتلام يكاد يكون مقترنا دائما بأحلام ، حتى بين الأناث اللاتى لا يكدن ينسقن للخيال فى الاستمناء أو فى أى لون من النشاط الجنسى .. ويدل على ذلك أن معدل القذف أثناء النوم دون تذكر حلم معين ، ضئيل جدا بين الأناث ، حتى أنه يبلغ حوالى واحد فى المائة من الأناث اللائى أجرينا أبحاثنا عليهن . ثم ان ثمة ما يوحى بأن عدم تذكر الحلم ليس بدليل على عدم حدوثه . **ولهذا فنحن نميل الى أن نأخذ بما يقوله علماء وأطباء النفس، من أن الأحلام ليست عوامل ضرورية فى الأغلبية العظمى للحالات فحسب ، وانما هى العوامل المثيرة الأولى فى معظم حالات الاحتلام عامة .** ومع أن الناحية العضوية للموضوع لا تزال فى حاجة الى مزيد من الدرس والاستقصاء، الا أن الناحية النفسية تساعد على زيادة فهمنا للشئون الجنسية للأنثى

الضغط على الغدد التناسلية لا يؤدى الى الاحتلام !

• **أما** فيما يتعلق بالذكر ، فان الرأى المأخوذ به عادة ، هو أن حالات القذف التى تحدث أثناء النوم تنشأ عن « أنواع من الضغط المتراكم على الغدد التناسلية » . فمن الشائع أن المنى

يتجمع فى الخصيتين ، فاذا امتلأتا، أدت أنواع الضغط الناشئة عن هذا الامتلاء الى عملية تفضى الى اللذة القصوى والقذف أثناء النوم . **بيد أن الدراسات العضوية والتشريحية تؤكد عدم صحة هذا التفسير ، اذ أن المنى يتكون أصلا من افرازات غدة البروستاتا والأوعية المنوية ، ولا يتلقى سوى قدر ضئيل جدا من الخصيتين . وليس ثمة ما يكفى من البيانات للقطع بأن الضغط على البروستاتا والأوعية المنوية — أو أية غدد أخرى — يثير المراكز النخاعية الدنيا ، التى تشترك فى الاستجابة الجنسية .** وان مجرد عدم وجود الخصيتين ولا غدد البروستاتا ، ولا الأوعية المنوية عند الأناث اللاتى يتعرضن مع ذلك القذف أثناء النوم ، لدليل قوى على أن ضغط السائل المنوى فى داخل الغدد قد لا يكون له شأن بحالات القذف أثناء النوم لدى الذكور ، أو أن شأنه ضئيل .

ولقد ورد فى كثير مما كتب فى هذا الصدد ، ان الاحتلام لدى الاناث يعبر عن بعض اضطرابات عصبية نفسية ، وان الاناث العاديات — المتزنات من الناحية النفسية — لايتعرضن للأحلام التى تصل بهن الى التهيج وذروة اللذة . ومن العجيب أن الذين يرددون هذا الرأى ، هم أنفسهم الذين يقرون بأن من المستحيل الأخذ بأن ٨٠ فى المائة — أو أكثر — من الذكور ، يعتبرون مرضى الأعصاب لمجرد أنهم يتعرضون للاحتلام الجنسى الذى يؤدى الى ذروة اللذة !

الاحتلام يسبب ضيقا اذا لم يبلغ غايته !

• **ولقد** أقر حوالى ٦٥ فى المائة من الاناث اللائى درسنا حالاتهن ، بأنهن عرفن فى بعض المراحل التى مرت بأعمارهن ، أحلاما جنسية صريحة . **وقد امتدت هذه الأحلام لدى ٢٠ فى المائة ، وان كان أفراد هذه الـ ٢٠ فى المائة قد**

عرفن أحلاما جنسية أخرى لم تصل الى ذروة اللذة . وكما يحدث لدى الذكور ، كانت الأحلام التى من النوع الأخير تقف فجأة قبل بلوغ الذروة ، فتحدث ضيقا لدى النائم !

وتدل البيانات الاحصائية على أن ٣٧ فى المائة من الاناث اللاتى تناولتهن دراستنا قد خبرن الاحتلام المؤدى الى ذروة اللذة ، قبل أن يبلغن الخامسة والأربعين من أعمارهن ، وان حوالى نصف الباقيات ـ أى حوالى ٣١ر٥ فى المائة من المجموع ـ قد خبرن الأحلام الجنسية دون بلوغ ذروة اللذة . وفى المتوسط ، **نجد** أن الانثى التى عرفت الاحتلام حتى الذروة ، كانت تواتيها هذه الحالة بمعدل يتراوح بين ٣ و ٤ مرات فى السنة . على أن التجربة لم تحدث لأكثر من معدل يتراوح بين مرة و ٦ مرات فى العمر كله ، بالنسبة لحوالى ٢٥ فى المائة من مجموع « العينات » . وهناك ٨ فى المائة كن يحتلمن بمعدل يفوق ٥ فى المائة فى السنة ، و ٣ فى المائة بمعدل مرتين فى الشهر ، وواحد فى المائة بمعدل مرة واحدة فى الأسبوع . ولم نجد سوى انثى واحدة غير متزوجة ـ ممن جاوزن الخامسة والثلاثين من العمر ـ واثنتين أو ثلاث من غير المتزوجات ، وأربع ممن سبق لهن الزواج ـ ممن تجاوزن الأربعين ـ قد خبرن الاحتلام أكثر من مرة فى الأسبوع !

وبين حوالى ستة آلاف أنثى ، لم نجد سوى خمس زاد عدد مرات الأحلام الجنسية التى تصل الى القذف ـ فى نومهن ـ لمدة لاتتجاوز أسبوعين ، نتيجة حرمانهن من عقار كن يستخدمنه لاجتلاب النوم . على أن معدل الاحتلام حتى القذف لدى الاناث ـ حتى أكثرهن استجابة ـ لا يبلغ مثيله لدى الذكور . ويكاد معدل مرات الاحتلام ، اجمالا ، أن يستمر فى مستوى واحد فى جميع مراحل العمر ـ بين البلوغ وسن الخمسين ـ لدى الاناث ، سواء أكن متزوجات أو غير متزوجات .. وكذلك لا يتأثر المعدل بالمستوى الدراسى !

أنثى تحتلم بعد سن السبعين !

• **ومن** « العينات » التى كانت موضوع دراستنا ، نجد أن الأحلام الجنسية تحدث بين عدد قليل من الاناث الشابات ، بينما يكثر حدوثها بين الكبيرات فى السن . فهى لم تحدث ـ الى درجة ذروة اللذة ـ الا لدى ٢ فى المائة ، فيما بين البلوغ وسن الخامسة عشرة . **ولكن نسبة تتراوح بين ٢٢و٢٨ فى المائة من « العينات » ، تعرضن لهذه الأحلام فيما بين الأربعين والخمسين من أعمارهن ! ثم تهبط النسبة بعد هذا العمر .. اذ لم نجد بين من درسنا حالاتهن سوى واحدة كانت هذه الأحلام تواتيها بعد سن السبعين !..** وهذا على النقيض من الذكور ، اذ تبلغ النسبة أقصاها لديهم بين الثامنة عشرة والعشرين ، أى قبل السن الذى تبلغ فيها النسبة أقصاها لدى الاناث بحوالى ثلاثين عاما .. وهذه ظاهرة تستحق الدراسة!

وبينما نجد أن عدد اللائى تواتيهن الأحلام الجنسية من الاناث يزداد بتقدم السن ، فاننا لا نعثر على مثل هذه النسبة المطردة بين السن ومعدل مرات الأحلام ، اذ أن هذا المعدل يظل متراوحا بين ٣و٤ مرات ، من سن البلوغ حتى سن الشيخوخة ..

على أن نسبة اللائى تواتيهن الأحلام ـ من غير المتزوجات ـ صغيرة ، فهى لاتتجاوز ٢٢ فى المائة فى أوجها ، أى حوالى سن الأربعين .. ولكنها تزداد لدى المتزوجات ! فقد وجدنا أن ٣٢ فى المائة من المتزوجات قد واتتهن الأحلام ، حتى حين بلغن الخمسين من العمر .. وتبلغ النسبة أقصاها بين من سبق لهن الزواج ـ كالمطلقات والأرامل ـ فهى تصل الى ٣٨ فى المائة بينهن فى سن الخامسة والخمسين ! .. ذلك لأن تجارب الزواج تنمى امكانيات التخيل والتصور لدى بعض الاناث اللائى لم يكن قد عرفن الأحلام الجنسية قبل الزواج ، ولدى عدد أكبر ممن تزوجن ثم حرمن من الحياة الزوجية ، كالأرامل والمطلقات .

على أن هذه الزيادة وان انطبقت على عدد المحتلمات ، الا أنها لا تنطبق على معدل مرات الاحتلام !

هل يهيىء الاحتلام تفريجا طبيعيا للطاقة المحتبسة ؟!

• **ولقد** ذكرنا من قبل أن نسبة المحتلمات ومعدل حدوث الاحتلام ، لا يكادان يتأثران باختلاف مستويات التعليم لدى الاناث . كذلك لايبدو أن ثمة علاقة تذكر بينهما وبين المستوى الاجتماعى للبيت الذى تنشأ فيه الأنثى ، أى بيت أبويها . ومن ناحية أخرى ، وجدنا أن عدد المحتلمات ــ الى درجة ذروة اللذة ــ بين بنات العقد الثانى من العمر ، فى الأجيال الأخيرة ، لا يكاد يختلف عنه لدى من ولدن قبلهن بأربعين سنة ، عندما كن فى العقد الثانى مثلهن ! .. هذا ، رغم أن مكانة الأنثى فى مجتمعنا قد تغيرت تغيرا ملموسا فى الأربعين سنة الأخيرة ، حتى لقد بلغت مستوى لم تكن الاناث يحلمن به !

وهذا فى حد ذاته يدل على أن امكان الاستثارة الجنسية النفسية لدى الاناث يتوقف على شىء داخلى غير الثقافة !.. وكذلك لا يبدو أن ثمة علاقة بين السن التى يحدث عندها البلوغ لدى الاناث ، وبين نسبة ومعدل الاحتلام .. ولا علاقة بين هذين وبين نشأة الأنثى فى بيئة مدنية أو بيئة ريفية ، ولا بينهما وبين النشأة الدينية

وهناك اعتقاد شائع منذ زمن بعيد ، بأن **الاحتلام يهيىء تفريجا طبيعيا للأشخاص الذين يمتنعون عن مزاولة أى لون من النشاط الجنسى ، فكأن « الاحتلام » بمثابة « صمام أمن للطاقة الجنسية » المحتبسة !** .. ولهذا الرأى أهمية أدبية كبيرة ، اذ أنه يعترف بالأحلام الجنسية كلون من ألوان التفريج الجنسى .. وانك لتلمس أهمية هذا الاعتراف عندما نذكر أن أى نشاط جنسى خلاف الجماع بين الأزواج ــ فيما عدا الاحتلام ــ يعتبر محرما ومنكرا فى الشريعتين اليهودية والمسيحية ،

لأنه لا يؤدى الى الغرض الأصلى من الجنس ، وهو التناسل . . ومع ذلك فان المذهب الكاثوليكى يستنكر « الاحتلام » اذا كانت فى أقوال المرء أو أفعاله ما يوحى الى خياله بما يهيىء له الأحلام، واذا كان المحتلم يستشعر لذة فى الاحتلام !

حقائق متناقضة عن « الأثر التعويضى » للاحتلام

◆ **على** أن اعتبار « الاحتلام » كتعويض للمرء ــ أو كصمام أمن للطاقة الجنسية المكبوتة ــ لا تدعمه أسباب طبية أو « بيولوجية » ، أو أسباب متعلقة بطبيعة التكوين البشرى ، ومن ثم فليست هناك بيانات علمية تقر هذا الاعتقاد أو تثبته. لذلك حرصنا على أن نستعرض بدقة تحليل بيانات جميع الاناث اللائى تناولهن بحثنا فى هذا الصدد ، وعددهن ٧٧٨٩. وقد خرجنا بالنتائج التالية :

(١) : لم نجد فى أكثر من ١٤ فى المائة من هذه الحالات ، ما ينم عن أن للاحتلام أثرا يعوض الأنثى عن حرمانها من كافة ألوان النشاط الجنسى الأخرى .

(٢) : مثل هذه العلاقة التعويضية قد تبدو ــ أكثر ماتبدو ــ عندما تكون ألوان التفريج الأخرى مقيدة أشد تقييد ، أو ملغاة . وقد صحت هذه النتيجة بالنسبة لمائتين من الحالات التى درسناها ، **ويكون هذا الأثر التعويضى فى حالات كالطلاق ، أو الانفصال عن الزوج ، أو تخفيض مرات الجماع بين الزوجين عن المعدل الذى كانت تجرى عليه منذ الزواج . وبالتالى ، يزداد عدد الأحلام المؤدية الى ذروة اللذة ، عندما يقل معدل التفريج الجنسى المشترك ، أى الذى يتم بالتعاون مع شخص آخر ، سواء أكان من نفس الجنس ، أو من الجنس الآخر**

(٣) : على النقيض مما سبق ، وجدنا ١١٧ حالة ــ وهى ٧ فى المائة من عدد اللاتى خبرن الاحتلام حتى ذروة اللذة ــ بدا أن معدل الاحتلام كان يزداد لدى صاحباتها بازدياد اقبالهن على ألوان النشاط الجنسى الأخرى ! . . كذلك وجدنا أن

١٨٣ أنثى ـ يمثلن حوالى ١٠ فى المائة من اللائى خبرن الاحتلام حتى ذروة اللذة ـ قد بدأن هذا اللون من الاحتلام فى نفس العام الذى بدأن فيه لونا آخر ـ أو أكثر ـ من ألوان النشاط الجنسى ، كالجماع عند الزواج . على أن الاحتلام لم يلبث أن توقف عندما ازداد معدل الجماع !

(٤) : هناك ما يدل على علاقة طردية بين حدوث الاستمناء وحدوث الاحتلام ، بحيث يزداد الثانى بازدياد الأول ! كما أن هناك علاقة طردية بين الاحتلام ، وبين حدوث التصورات الوهمية المثيرة أثناء الاستمناء

غموض الأحلام الجنسية لدى الفتاة !

• **أقر** حوالى واحد فى المائة من الاناث اللاتى أجرينا دراستنا عليهن ، بأن الاحتلام كان يواتيهن بغير احلام . على أن ما بين ٨٥و٩٠ فى المائة من الباقيات ، كانت أحلامهن تدور حول الجنس الآخر . وهذه النسبة تعادل نسبة الاناث اللائى اتصلن بعلاقات جنسية ـ أيا كان لونها ـ مع أفراد من الجنس الآخر ، فى اليقظة . وكانت أحلامما بين ٣٠و٣٩ فى المائة من الاناث ، تمثل جماعا مع أفراد من الجنس الآخر ، فى حين أن نسبة تتراوح بين ١٧و٣٨ فى المائة ، كانت أحلامهن تدور حول معابثات مع الجنس الآخر لاتنتهى الى جماع

والذكور فى هذه الأحلام يكونون عبارة عن شخصيات مبهمة فى العادة ، لا يمكن تمييزها فى الحياة الواقعية . كذلك يلاحظ أن المحتلمة كثيرا ما تكون ـ فى الحلم ـ مجرد متفرجة ، اذ يدور الاتصال الجنسى بين الذكر المبهم وانثى مبهمة ..
كما أن كثيرا من هذه الأحلام لاتتضمن علاقات عضوية مع الجنس الآخر ، وانما هى تدور حول علاقات عاطفية غير محددة المعالم . ومن الأحلام ما يوحى بأنه جنسى فى حين أن العلاقة الجنسية فيه لا تكون واضحة !

فتيات يحلمن بالحمل والوضع !

• **وكانت** أحلام ما بين ٨ و ١٠ فى المائة من الاناث ، تمثل علاقات مع اناث مثلهن . وهذه النسبة أيضا تعادل نسبة من يتصلن جنسيا – فى الواقع – بأفراد من جنسهن . **وهناك أحلام انطوت على حالات حمل نشأت – فى المنام – بين المحتلمات وأفراد من نفس جنسهن !.. وقد رأت أناث – تتراوح نسبتهن بين واحد و ٣ فى المائة من المجموع – انهن حملن ووضعن أطفالا فى المنام !..** ويلاحظ أن مثل هذه الأحلام اعتبرت جنسية ، رغم انها لم تؤد الى ذروة اللذة .. وهى فى حاجة الى مزيد من الدراسة ، لأن العلاقة بين الوظيفة التناسلية والتهيج الشهوانى ليست واضحة فيها بالشكل المعروف لدى العلماء ورجال علم النفس . ذلك لأن كثيرا من الذكور – وبعض الاناث – اذا اجتمعوا معا ، يشعرون بالتهيج الحسى حين يخطر ببالهم أى تفكير فى انجاب النسل . ولعل هذا هو السبب فى أن الاناث يعتبرن الأحلام الخاصة بالحمل والوضع أحلاما جنسية !.. ذلك لأنهن يعرفن – فى أذهانهن – أن ثمة علاقة بين السلوك الجنسى والتناسل . وقد يكون لدى علم النفس مزيد من التفسير لهذه الظاهرة !

وكثيرا ما تكون الأحلام الجنسية – لدى الذكور والاناث على السواء – انعكاسات لتجارب واقعية . ومن ناحية أخرى ، هناك ١٣ فى المائة من الاناث اللاتى راودتهن الأحلام الجنسية – ممن دارت حولهن دراستنا – ذهبت أحلامهن الى ما هو أبعد من تجاربهن الواقعية . **ونخرج من هذا بأن الأحلام التى تعكس تجربة ، انما تمثل فى الواقع رغبة فى الاشتراك فى نشاط لا يعتبر مقبولا أو مشروعا فى الحياة الواقعية ، أو فى نشاط لم يتح بعد للأنثى تحقيقه . كما يحدث للانثى التى عرفت الجماع فى اليقظة ، حين تشتهى أن تشترك فى هذه العملية مع رجل لا يباح لها أن تتصل به جنسيا !**

ويعتقد « فرويد » وأنصاره أن الحلم يعبر فى الغالب عن رغبة مكبوتة . والواقع أن نسبة ليست بالقليلة من الأفراد يحصلون فى الأحلام على ارضاء كاف ومتعة مستمدة من ألوان من النشاط لا يتاح لهم فى الحياة الواقعية أن يمارسوها لسبب من الأسباب . ومن ناحية أخرى ، نجد أن بعض هذه الأحلام — لدى الأناث — يمثل اغتصابا . ومن الطبيعى أن الأنثى لا تهفو الى الاغتصاب بل تخافه . لذلك فمن الجائز أن نعتبر بعض هذه الأحلام من قبيل الأضغاث ، أو « الكابوس » !

وتدل البيانات على أن الغالبية العظمى من الاناث اللائى خبرن الأحلام الجنسية ، تقبلنها دون ما اضطرابات نفسية . على أن نسبة صغيرة منهن انزعجن ، بتأثير الناحية الخلقية والأدبية !

والاستمناء والاحتلام هما اللونان الوحيدان من ألوان النشاط الجنسى ، اللذان يمتازان بالفردية ، بمعنى أن الشخص لا يحتاج الى شريك فى اتيان النشاط الذى يمثل أيهما . وهما مصدران لربع حالات اللذة القصوى لدى الاناث . ومن ناحية أخرى ، نجد أن المعابثة والجماع مع أفراد من الجنس الآخر ، والعلاقات مع أفراد من الجنس ذاته — أى علاقة انثى بأنثى مثلها — هى أهم ألوان النشاط الجنسى المشترك ، أى الذى يتطلب شريكا مع الفرد الذى يمارسه . وهذه الألوان الثلاثة هى مصدر ثلاثة أرباع اللذة القصوى لدى الأمريكيات عامة . ويزيدها أهمية ما لها من معنى اجتماعى يستأثر باهتمام المجتمع

اعتياد طلبة أمريكا وطالباتها .. على المعابثة !

• **والعلاقات** الجنسية بين فردين من جنس واحد نوع من الخروج عن المألوف ، ويسمى هذا النشاط لدى الاناث « السحاق » . أما العلاقات بين فردين من جنسين مختلفين ،

فتمثل اتحاد الأعضاء التناسلية لدى ذكر وأنثى . على أن الاتصالات البدنية التى لاتنطوى على اندماج هذه الأعضاء أصبحت لونا من ألوان السلوك الجنسى لدى الأمريكيين، وسنطلق عليها فى هذا البحث اسم « المعابثة » . **وقد أصبحت المعابثة واسعة الانتشار بين جميع الاناث والذكور — تقريبا — من الشباب فى أمريكا ، كما أنها ليست قليلة الحدوث بين غير المتزوجين ممن جاوزوا الشباب !**

وقد تكون « المعابثة » تمهيدا للجماع ، سواء فى حالة الزواج أو فى غيرها . على انها لدى الذين لم يتزوجوا بعد ، تصبح — فى كثير من الأحيان — غاية فى حد ذاتها ، يسعى اليها غير المتزوجين ، من الذكور والاناث ، للارضاء العاجل لرغباتهم، ومن ثم فهى قد تستخدم كبديل للجماع ! .. ذلك لأن المعابثة قبل الزواج ، وان كانت موضع حملات شديدة من الغيورين على الأخلاق ، الا أنها لا تلقى من الاستنكار ما يلقاه الجماع قبل الزواج ، مما يغرى الشباب من الجنسين على اتخاذها بديلا عن الجماع ، لا سيما وانها لاتتطلب ما يتطلبه الجماع من ظروف ومن احتياطات ، كما انها لا تؤدى الى ما قد يؤدى اليه من حمل .

ومن ثم أصبحت المعابثة من ألوان السلوك الجنسى المعتادة لدى معظم طلبة وطالبات المعاهد العليا والجامعات ، لاسيما وان العادات الاجتماعية لوسطهم — كالرقص والشراب وركوب السيارات — تمهد له !

وتتضمن « المعابثة » — بمعناها الصحيح — كل اتصالات بدنية تنطوى على محاولات مقصودة للاثارة الحسية . ومعظم الذكور والاناث الذين يمارسونها يدركون هذا المعنى ، ويرون فيها مصدرا للاشباع الشهوى . وما لم يكن الاتصال بقصد الاثارة ، فانه لا يعتبر — فى دراستنا العلمية — من المعابثة فى شيء ، ولو أدى الى التهييج الحسى . فى حين أن المعابثة المقصودة قد لا تؤدي الي هذه الحال ، ولكن مجرد القصد والتعمد

يجعلها تخضع لهذا الاصطلاح العلمى بمعناه الذى نستخدمه هنـــا

وبعض ألوان المعابثة تستخدم بين الأزواج كتمهيد للجماع، كما أن من الأزواج ما يكتفى بها - فى بعض الأحوال - كمصدر للارضاء الجنسى . وهناك من « المعابثة » ما يكون لونا اضافيا من ألوان النشاط الجنسى لدى بعض المتزوجين ، وهو غالبـــا ما يجرى بين ذكر وأنثى ليس كل منهما زوجا للآخر !

الحيوانات لجأت الى المعابثة .. منذ ملايين السنين !

• **وتشاهد** المعابثة بشكل واضـــح لدى كثير من أنواع الحيوانات الثديية ، وليس لدى النوع الانسانى وحده . فكثير من هذه الحيوانات تعمد عنـد التهيج الى حك أجســادها - بعضها ببعض - والى لصق شفاهها وألســنتها ، والى استخدام الفم فى مداعبة بعض أجزاء الجسم . وقد تذهب الى الدغدغة ، والعض ، والخدش ، والقرص .. ومثل هــذه التصرفات تمتد بين بعض الحيوانات ساعات بأكملها ، بل انها تمتد أياما لدى أنواع من الحيوانات الثديية !

وتدل الأبحاث العلمية على أن بعض فنون « المعابثة » هذه قد لازمت الحيوانات الثديية منذ أقدم عصور نشوئها ، وهى مدة تحسب بملايين السنين ، بل ان منها ما يرجع الى مئات الملايين من السنين .. **ولعل مبعث ذلك ان ازدحام الحيوانات معا ، كان يؤدى الى احتكاك أجسادها ، مما كان يولد انفعالا حسيا مستعذبا فطنت اليه هذه الحيوانات ، فتعودت أن تلجأ الى الاحتكاك كلما تاقت الى هذا الانفعال !**

ونخرج من هذا بأن « المعابثة » من السلوك الجنسى الطبيعى، وانها ليست وليدة التنور والتمدين كما هو شائع ! .. وبالتالى، فانها ليست - كما يزعم البعض ممن يجهلون الأنواع الثديية القديمة من الحيوانات - ابتكارا ابتدعه الشـباب الأمريكى

الجديث ، نتيجة الانهيار الخلقى ، وتطور البيئة المدنيـــة والصناعية ، وتطور التعليم والتربية والثقافة !

التاريخ يعيد نفسه .. حتى فى الجنس !

• **والواقع** أن الأجيال السابقة عرفت كثيرا من فنـــون « المعابثة » تحت اسم الغزل والمداعبة ، وما اليهما . وتعدد الكلمات التى تشير الى فنون المعابثة ، فى لغة الأجيال السالفة ، دليل على أن هذا النشاط الجنسى كان يمارس بدرجة كبيرة فى القرون الماضية من تاريخ البشر . والذى يطلع على ما كتب عن الحب والغزل باللغات السنسكريتية والصينية واليابانية واليونانية والرومانية والعربية والأوربية ، منذ أقدم العصور، يجد أن جميع فنون المعابثة المعروفة لدى الأجيال الحديثة ، مذكورة بأكمل أوصافها .**بل ان الآثار الخزفية التى وجدت فى (بيرو) ، والتى يرجع عهدها الى ما قبل ميلاد المسيح بسبعمائة أو بثمانمائة سنة ، تحمل نقوشا تبين جميع فنون الغـــزل والمعابثة والجماع ، المعروفة لدى أجيالنا الحديثة !**

واذا كان ثمة جديد فى المعابثة لدى الشـــباب الأمريكى الحديث ، فان هذه الجدة تنحصر فى نسبة انتشار هذا اللون من النشاط الجنسى ، وفى معدل ممارســته فى الدولة ، وفى وضعه وقيمته فى النسيج الكلى للسلوك الجنسى الأمريكى ، وفى مدى الصراحة والعلانية اللذين يمارس بهما !

وفى العدد القادم من « كتابى » تقرأ معى حلقة جديدة من هذا البحث الخطير ، الذى يعتبر أهم بحث علمى فى تاريخ البشرية ، والذى يلقى أضواء على كثير من مشكلات المجتمع الحديث ـ فى أية دولة ـ ويمهد الطرق أمام المعنيين بالاصلاح من رجال التربية والاجتماع


MEMOIRES
DE
CASANOVA
مغامرات في الحب والسياسة !
مذكرات
كازانوفا
الكتاب الكلاسيكي الخالد
في أدب العشق
والمغامرة

أمير العشق .. الذى لا يهدأ أبدا !

◆ فى مدرسة « دوبريه » للرقص – فى تورين – التقى كازانوفا بحسناء فتانة تدعى « أجاثا » ، فهام بها حبا . واستغل طيبة أمها الساذجة للتقرب اليها ، ثم أدرك الفقر الذى كانت تعيش فيه الفتاة وأمها ، فدبر حفلة فخمة فى مسكن « دوبريه » ، وابتاع للفتاة ثوبا أنيقا غاليا ، ثم اهداها قرطين ماسيين ثمينين ، لم يطلعها على قيمتهما ، بل زعم أنهما من الماس الزائف . ولكن الفتاة ما لبثت أن عرفت الحقيقة !.. وفى اليوم التالى ، زارته أمها لتشكره ، وراحت تقبله وتعده بأن تعمل على توثيق علاقته بابنتها !

والآن ، تعال نتابع القصة فيما كتبه أمير العشق والمغامرة فى مذكراته التى تعتبر من تحف الأدب الكلاسيكى ، والتى ترسم صورة للمجتمع الأوربى فى العهد الذى عاش فيه « كازانوفا » !

برود .. انجليزى !

◆ **سرعان** ما كافأتنى الحسناء « أجاثا » على القرطين ، فأغرقتنى بلطفها وحنانها ، وأذاقتنى أطايب حسنها ، فاذا بى أتدله فى هواها . ولولا الحادث الذى أوشك أن أرويه ، لما فارقتها قط .. والواقع اننى كنت مبعوث القدر كى أتيح لهذه الفتاة حظا وثروة . ولعل هناك من يعترض على قولى بأن القدر كان خليقا بأن يختار طريقة اكثر تمشيا مع الأخلاق ، لاسعاد هذه الفتاة . ولكن .. منذا الذى يريد أن يتدخل فى مشيئة القدر ويتحكم فى ارادته ؟.. ومن أدراه بأن للقدر غاية ، لا يدركها الا بعيد النظر ؟

ذلك أن الشاب الانجليزى – لورد « بيرسى » – كان قد اصبح متيما بحب عشيقتى ، فراح يلاحقها فى كل مكان ، دون أن يغفل وسيلة من وسائل الاغراء الا عمد اليها . وكانت ترد اليه جميع هداياه ، وتمعن فى صده . ولما كنت

موقنا من صدق وفائها لى ، فان تماديه لم يزدنى الا غرورا. لذلك لم يلبث الشاب ان عدل عن خططه السالفة ، وحاول أن يوقع بينى وبين الفتاة .. ثم سعى الى أن يجعل من الأمر صفقة !

وفى برود بنى وطنه وجرأتهم ، زارنى اللورد بيرسى ذات صباح ، فاستقبلته فى أدب وحفاوة ، ودعوته الى الفطور

الحب .. فى ميدان التجارة !

• وشرع الشاب يحدثنى عن حبه لأجاثا ، ثم عرض مشروعا ضحكت منه وان لم أغضب ، اذ كنت خبيرا ببرود الانجليز!.. ذلك أن بيرسى كان على علاقة براقصة من راقصات «الأوبرا»، فعرض على ان نتبادل الفتاتين ، وأضاف استعداده لأن يدفع الفرق بين الفتـــاتين مالا .. ولم أتردد فى اتخاذ قرارى . وما أحسبنى ندمت قط على هذا القرار حتى اليوم . فقد أبديت للشاب امتعاضى ، ولكننى ترفقت به ، وقلت ان من حق الفتاتين أن تستشارا أولا . فأجاب بأنه واثق من ان فتاته لن تعارض . ولكننى أكدت له ان « أجاثا » ستعارض ، فكان جوابه : « هذه مهمتى أنا .. كل ما يعنينى الآن هو أن أعرف رأيك ، والمبلغ الذى تقدره كفرق بين قيمتى الفتاتين ! »

وبدا الموضوع طريفا ، ولكن حبى لأجاثا حملنى على أن أحاول استغلاله لمصلحتها . ومن ثم فقد انبأتها به ــ حين وافتنى فى تلك الليلة ــ فضحكت من أعماق قلبها..وسألتها عن رأيها ، فأجابت : **« اننى لا أتردد عن اتيان كل ما تبغى. واذا كانت الصفقة فى صالحك ، فأنصحك بأن تقبلها ! » .. وكنت أدرك انها تمزح ، ولكن جوابها مس شيئا فى نفسى ، لعله .. كبريائى !**

وان هى الا ايام ، حتى ذكرت لى « أجاثا » ان مدير أحد

المسارح عرض عليها أجرا طيبا ، لتكون الراقصة الثانيـة فى فرقته . واذ سألتنى رأيى ، قلت : « اذا كنت صادقة فى حبى يا أجاثا ، فارفضى كل عمل لمدة عام واحد ، ولن أدعك تحتاجين الى شىء ، بل اننى سأستأجر لك خير معلمى الرقص ، حتى تصبحى فى طليعة الراقصات ! »

ـ ولكنه يعرض أجرا مغريا .. ستين دينارا ؟!

ـ بوسعك ان تحصلى على هذا المبلغ دون رقص ، فارفضى !

ـ فليكن .. ولكنى أرى من الأفضل ان أرد العرض بأن أغالى فى تقدير الأجر !

تسـليم .. ((السلعة)) !

• وفى اليوم التالى ، جاءتنى وهى لا تكاد تتمالك نفسها من الضحك ، وقالت انها طلبت من مدير المسرح خمسمائة دينار أجرا ، فاذا به يسألها ان تمنحه مهلة للتفكير ، وان هى الا ساعة حتى حمل اليها عقدا ـ وفق شروطها ـ لتوقعه !.. وداخلنى اذ ذاك ريب فى أن أجاثا ـ وليس رقصهـا ـ هى المقصودة بهذا العقد . وما لبثت أن وجدت اننى كنت مصيبا فى حدسى ، اذ لم يكن الرجل سوى ستار ، وكان اللورد بيرسى هو .. دافع الأجر !



وكان بوسعى أن أعرقل الصفقة ، لولا اننى وجدتها فى صالح ((اجاثا)) ، ولولا اننى كنت قد مللت الاستقرار ، وبدأت أتوق الى الرحيل . لذلك آثرت أن أكسب ود الشاب ، وأن أحمله على أن يودع فى أحد المصارف مبلغا

طيبا باسم الفتـــاة . ثم جمعتهما على مائدتى ذات مساء . واذ رأيت أن أجاثا تتلطف الى اللـــورد بيرسى ، قـررت أن أعجـل بالرحيـل ! وقلت للشـــاب اننى كنت ازمع زيارة انجلترا ، وأبديت رغبـــة فى أن يمـــدنى بخطـــاب تقديم الى أمـــه الدوقة . وكان جوابه أن أخرج من جيبه صورة لها ، فى اطار مرصع بماسات ثمينة ، وقال : « هذا خير خطاب أقدمك به اليها ! »

فى ضيافة كونتة اسبانية !

• **وكنت** قد تعــرفت ــ منذ زمن ــ الى نبيل من أهل (ميلان) ، أرمز لاسمه بحرف « ا . ب » . وكان اذ ذاك فى ضائقة ، فاعتدت أن أدعوه لمائدتى ، وان أقدم له القروض . لذلك أحبنى الرجل ووثق بى ، حتى انه أطلعنى على كثير من أسراره . وذكر لى أنه متزوج من حسناء اسبانية سمراء فى الخامسة والعشرين من عمرها . فلما اعتزمت السـفر الى (ميلان) ، كتبت اليه ، فدعانى الى النزول ضـــيفا عليه ، وسألنى ان أبتاع لزوجته قطعتين من حرير من نوع لم يكن يوجد الا فى (تورين) .. **ووددت فى الواقع أن أعتذر عن النزول ضيفا على الزوجين ، لولا اننى كنت مشوقا الى رؤية الأسبانية ، لما كنت قد سمعته عنها من زوجها ، ولما كنت قد قرأته عن أن الاسبانيات مشبوبات العواطف !**

ولكننى فوجئت بأن الاسبانية كانت على خلاف ماتصورتها .. كانت جميلة ، ولكنها كانت دقيقة القوام ، شديدة التزمت ، جافة الطباع .. فما ان قدمت اليها القطعتين الحريريتين ، حتى شكرتنى باقتضاب ، قائلة ان راعى كنيسة القصر ـ الذى كان يقيم مع الأسرة ويعمل كوكيل للاعمال ـ سيدفع لى ثمنهما .. وظلت طيلة الوقت صامتة ، لا تبدى تقديرا لماكنت أوجهه اليها بأكثر من ابتسامة واهنة .. فلما رافقنى الكونت

ليريني حجرتي ، اخذ يعتذر عن جفوتها وصمتها ، وأكد لي انها لن تلبث ان تألفني

وكانت معالم الفقر تبدو على القصر — فيما عدا غرفتي التي كانت فسيحة مريحة

صديق الأسرة !

• وفي الصباح التالي ، جاءني القس وسألني ان أذكر للسيدة انه دفع الى ثمن الحرير . فلما استنكرت منه ان يحرضني على الكذب ، قال : « انك لا تعرف السيدة ، ولا تدري كيف تسير الحياة في هذا القصر يا سيدي ! » .. ثم ترك المهمة الى الكونت ، الذي شرح لي مدى كبرياء زوجته . فانها ما كانت لتقبل القماش مالم تطمئن الى انني قد تقاضيت ثمنه .. ولم تكن موارد الزوج لتسمح بذلك !

وكانت الحياة في القصر عجيبة بالفعل !.. ففيما كنت منهمكا في كتابة بعض الخطابات في ذلك النهار ، أقبل الكونت وزوجته على غرفتي ، مصطحبين شخصا قدماه لي باسم المركيز « تريوليتسي » . وكان رجلا في مثل سني ، أبدى سروره بالتعرف الي ، وبالجلوس في غرفتي ، اذ كانت هي الغرفة الوحيدة التي تعمر مدفأتها بالنار !.. ولما كان وصيفي قد انهمك في اخراج أمتعتي من حقائبي ، ونشرها على المقاعد ، ماعدا مقعد واحد ، **فقد جلس المركيز على هذا المقعد ، ثم جذب اليه الكونتة وأجلسها على ركبتيه ، فتملصت وهي حانقة ، وقد تضرج وجهها ، وصاحت : « ألم تتعلم — رغم كبر سنك — كيف تحترم السيدات ؟ »**

وأجابها الرجل في قحة : « بلى ياسيدتي .. وآية احترامي انني لم أحتمل ان أراك واقفة وأنا جالس ! »

ودعا الكونت ضيفه الى الغداء ، ثم قال : « وبما انك تفخر بطاهيك ، فارسل اليه كي يحمل العشاء الى هنا ! » .. ووافق

المركيز . والحق أن الغداء كان ينم عن بذخ !.. وكان المركيز قد لاحظ بين الأمتعة التى أخرجها خادمى من حقائبى ، ثيابا نسوية من الحرير الثمين ، فسألنى مازحا عما اذا كانت لى صديقة فى (ميلان) ، فأجبته بأننى أطمع فى ان أحظى بواحدة !

الفساد .. فى المجتمع الايطالى !

• **وذهبنا** جميعا الى دار « الأوبرا » فى بداية المساء ، واستقلت الكونتة عربة المركيز ، بينما شاركنى الكونت عربتى .. واغتبطت اذ التقيت فى الدار بصديقتى القديمة « تيريزا باليسى » ، فوعدتها بأن أزورها فى أول فرصة تسنح للهرب من مضيفى !.. وسنحت هذه الفرصة فى الصباح التالى .. وكم تبينت اننى كنت أحبها !

وفى مساء ذلك اليوم ، قالت لى الكونتة « ا. ب » ونحن نجلس الى العشاء : « اننى أعرف اين كنت اليوم .. ولكن للسيدة عشيقا لن يتردد فى ان يهجرها اذا انت أكثرت من زيارتها ! » .. وكانت أول مرة ترفع فيها الكلفة ، فقلت لها : « لو انه هجرها لحللت محله ! »

ـ انك تحسن عملا اذا قصرت وفاءك على اللاتى يقدرن هداياك . وانى لأعرف انك لا تقدم الهدايا الا بعد ان تكون قد ضمنت الثمن !

ـ انها قاعدة لم أخرج عنها قط يا سيدتى !

وعلمت منها ان عشيق « تيريزا » كان ـ للمصادفة ـ نفس المصرفى الذى حولت اليه أموالى من (تورين) وكان يدعى « جريبى » !

وذهبت الكونتة مع « تريوليتسى » فى المساء الى الأوبرا ـ وقد تأكدت من انهما عشيقان ـ بينما صحبنى الكونت الى أحد منتديات المقامرة ، حيث خسرت مبلغا من النقود . ثم ذهبنا الي الأوبرا ، حيث خسرت مبلغا آخر . وبهتت الكونتة ،

اذ أنها لم تكن تدرى مدى ما أمتلك ، فنصحتنى بأن أعوض خسارتى ، بأن أبيع للمركيز ثوبا نسويا من الحرير الغـــالى كان قد رآه بين امتعتى وأعجب به . ولكننى رفضت العرض ، ولم يفتنى أن ألمح استياءها ، مما أكد لى انها كانت ترجو ان يبتاع المركيز الثوب ليهديها اياه !

كازانوفا يهاجم « غرور » الأسبانية !

• وفى اليوم التالى ، سألتنى الكونتة ان أصطحبها فى عربتى الى حفلة راقصة ، فأدركت انها تتلطف الي من أجل الثـــوب الحريرى . لذلك قلت لها ــ ونحن فى العربة ، جنبا الى جنب ــ ان الثوب تحت أمرها ، اذا هى تلطفت فى مسلكها نحوى . واذا بها تجيب قائلة : « انك تهينني يا سيدى ! » . فقلت : « ليس فى الاعجاب أية اهانة يا عزيزتى الكونتة .. الا اسعدينى بارتداء ذلك الثوب »

ــ لو أننى كنت أحبك لغفرت لك ، ولكن تصرفك يضاعف من نفورى منك !

ــ أحسبك كنت تؤثرين أن أكون اكثر حياء وترددا ، وانا أبدى اعجابى بك !

ــ مهما تفعل فلن أحفل بك !

ــ اننا فى هذا سواء ، اذ ما أحسبنى سأحفل بك يوما . واذا كنت قد أظهرت استعدادى لأن أهديك الثوب ، فما ذلك الا رغبة فى تحطيم غرورك وكبريائك اللذين لا يطاقان !

وليس غير الله من يعلم ما كانت الاسبانية المغرورة خليقة بأن تفعل ، لو لم تقف العربة بباب الملهى !.. وتركتهـــا فى مقصورتها ، بينما ذهبت الى قاعة المقـــامرة ، حيث خسرت مبلغا جسيما . وفيما كنت والكونتــة عائدين الى القصر ، استأنفنا الشجار ، اذ قالت : « لقد سرنى انك خسرت .. ان المركيز على استعداد لان يدفع لك ألف دينـــار ثمنا

للثوب ! » . فقلت : « ولعلك تحبذين ذلك ، لكى ترتدى الثوب !.. ولكننى لن أنيلك اياه ، فأنت تعرفين الطريقة الوحيدة لكى تظفرى به ! »

الزوج يتوسط .. ارضاء لزوجته وعشيقها !

• **وزارنى** الكونت فى غرفتى فى تلك الليلة ، ليحاول من ناحيته اغرائى على أن أبيع الثوب للمركيز . ولكننى أرجأت بحث الامر الى الغد . واستيقظت فى ساعة مبكرة ، فذهبت الى « جريبى » المصرفى ، وسحبت ألف دينار ، بعد أن أوصيته بأن لا يذكر ذلك لمخلوق ما ، خشية أن ينبىء «تيريزا» .. وما ان عدت الى غرفتى ، حتى ألفيت الكونت جالسا أمام المدفأة ، فحدثنى عن غضب زوجته منى . واذ ذاك قلت فى صراحة : « انها غاضبة لأننى أصر على أن لا أدع أحدا سواى يهديها الثوب الحريرى ، ولكنها تأبى أن تتقبله منى »

ـ انها حمقاء !.. على اننى أعرف انك لا تحفل بالمال ، وأن كانت الالف دينار كفيلة بأن تسعدنى . لذلك أناشدك أن تنزل عن عنادك ، اكراما لصداقتنا ، فتقبل المبلغ من المركيز ثم تقرضنى اياه !

وانفجرت ضاحكا ، ثم قلت له : «سأبيع الثوب لتريوليتسى ، ولكننى لن أقرضك المبلغ ، بل سأقدمه لزوجتك ، على شريطة أن تبدى تلطفا نحوى ! » .. فنكس المسكين رأسه ، وهو متضرج الوجه حياء .. ثم خرج

وفى ذلك المساء ، التقيت بشاب من البندقية يدعى « باربارو » ، كان من نزلاء السجن معى ، فدعانى الى أن أصحبه الى بيت محترم ، يجتمع فيه نفر من علية القوم للمقامرة ، فى كل مساء . وعرض على أن أشترك معه فى مؤامرة صغيرة للكسب ، فوافقته من قبيل الفضول . وما أن

بلغنا البيت ، حتى قدمنى لأهله ، وكانوا أربعة : مركيز شيخ مليح الوجه ، وسيدة بادية الوقار والاحترام ، وشابتان شقيقتان ، هما ابنتا أخت للمركيز ، وتحمل كل منهما لقب مركيزة . وما لبث أن أقبل حوالى عشرين شخصا من ذوى الجاه والثراء

كازانوفا .. يؤنس الزوجة !

• **وقضيت** بعض الوقت فى اللعب ، ثم غادرت المائدة ، بعد أن أقرضت « باربارو » مبلغا ليلعب به ، على أن يكون لى نصف الربح . ثم رحت أحوم حول الشابتين ، فقد كانتا بارعتى الجمال !

والتقيت بتريوليتسى فى دار الأوبرا فى ذلك المساء ،فبادرنى قائلا : « علمت انك قبلت أن تبيعنى الثوب الحريرى ، وانى لأشكرك ، وأضع تحت آمرتك خمسة عشر ألف فرنك ، تأخذها متى شئت !».. وانتهزت الفرصة فرحت أستدرجه، حتى وصلت فى المناقشة الى ذكر المركيزتين الشابتين ، فقال : **« اننى أعرفهما ، فهما من أسرة من أعرق الأسرات ، ولم أسمع عنهما كلمة سوء واحدة .. ويقال أن لاحداهما عشيقا، ولكن هذا من الأسرار طبعا . وفى وسعى أن أقدمك اليهما ان شئت ! »**

وفى اليوم التالى ، قدم المركيز الثوب الى الأسبانية المغرورة، فتلعثمت ولم تدر كيف تشكره . ولكنه ضحك ونصحها بأن من الحكمة أن تبيعه ثانية ، لأن الناس يعرفون ما كانت الأسرة تعانيه من شظف ، ومن ثم فسوف يثير ظهورها فى ثوب غال كهذا أقاويل السوء .. وجلبت عليه هذه النصيحة غضب السيدة وشتائمها ، ولكنه راح يجيبها فى عبارات ظاهرها الأدب وباطنها سخرية لاذعة !

وعندما تأهب للانصراف ، نقدنى خمسة عشر ألف فرنك

ذهبا . واذ انصرف ، **سألنى الكونت أن أؤنس زوجته فى غيابه** ، اذ كان مضطرا الى التغيب خارج الدار بعض الوقت، فقلت فى لهجة لاذعة : « اطمئن الى أن الألف دينار فى جيبى ، وسأسلمها لزوجتك اذا أثبتت انها عاقلة ! »

تبذل سيدة .. وتعفف خادمة !

• **وصعدت** الى غرفتى ، فاستبدلت بالفرنكات الفرنسية الذهبية ، الدنانير الألفالتى سحبتها من «جريبى» . وخلعت ثيابى ، وارتديت ثياب البيت . على اننى لم أخف لايناس الكونتة فورا ، اذ وافتنى فى الغرفة خادم فاتنة كانت مخطوبة الى ترزى فقير ، وقد حاولت اغراءها مرات فلم تفلح معها أساليبى ، مما جعلنى أكبرها ، وأمد لها ولخطيبها يد العون ، كى يعجلا بزفافهما .. وقد أقبلت تنبئنى بأن الزفاف سيتم بعد يومين

وكانت الكونتة فى فراشها حين سعيت اليها ، فلما رأتنى فى ثياب البيت تساءلت : « أوتراك ستضحى بسهرتك ومقامرتك لايناسى ؟ » . فقلت : « بلا شك » .. وقالت: «انك تحسن صنعا ، فمن الحرام أن تبدد المبلغ الذى أسلمك اياه المركيز مقابل الثوب ! »

ترى ما الذى سيجرى بين « كازانوفا » والكونتة الأسبانية المغرورة .. هل يواصلان الصراع الخفى ، أو ينتهيان الى وئام ؟ .. هذا ما ستكشفه لنا الحلقة التالية من المذكرات

« مطبوعات كتابى » تقدم لك فى منتصف يونيو
الجزء الثالث والأخير من القصة العالمية الكبرى

بيلا دونا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز"، مؤلف حديقة الله

الجزء الثالث والأخير





العمياء

لوحة رائعة للفنان « ميليه »





فى الجزءين السابقين من القصة الجبارة "بيلاّ دونّا"
التى قدمت لك "مطبوعات كتابى" أول ترجمة لها بالعربية
بعد أن ترجمت الى جميع لغات العالم .. رأينا كيف
صور المؤلف الصراع الذى كان يدور بين الاستعمارين
التركى والبريطانى فى مصر، وهو يروى لنا قصة
غانية انجليزية بارعة الدهاء، تزوجت من شاب انجليزى
جاء بها الى مصر - حيث كان يعمل - فالتقت بمليونير
مصرى شاب أشعل فى كيانها ضراما حرق
آخر ما تبقى لها من حكمة وعقل .. ثم أصيب
الزوج بمرض غامض مريب الأعراض !

وفى الجزء الثالث والأخير
من هذه القصة الجبارة

بيلاّ دونّا



الذى يصدر به عدد منتصف يونيو من "مطبوعات كتابى"
نرى كيف يشتد الموقف تعقدا وغموضا، وكيف يقوى عنصر المغامرة
والمفاجأة فيه .. حتى اذا اشتدت ظلمات الغموض، أرسل المؤلف ومضات
بارعة تكشف عن أسرار مرض الزوج والأمور الرهيبة التى تعرض
لها! .. والصديق الذى ظهر على غير توقع لإنقاذه فإذا به يطرده ..
والصراع الجبار الذى دار بين الصديق والزوجة، بل والزوج نفسه! ..
فكيف انتهى المؤلف بالموقف؟ .. وما مصير الزوج والزوجة والصديق والعشيق؟

